رحلة فتاة سودانية إلى الصين

أفراح آسيا

رحلة فتاة سودانية إلى الصين / أفراح آسيا
خديجة صفوت / كاتبة من السودان
الطبعة الأولى، 2006
حقوق الطبع محفوظة

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص. ب: 44480
الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6322079، فاكس: 6312866

المركز الأفرو آسيوي للمرأة والثقافة
CAWAC - كاواك
أكسفورد – المملكة المتحدة
e-mail: info@alkatiba.com

تصميم الغلاف: الفنان ناصر بخيت
الصف الضوئي: القرية الإلكترونية/أبو ظبي

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

رحالات شرقيات

رحلة فتاة سودانية إلى الصين

أفراح آسيا

خديجة صفوت

يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجرّاح

في قرية الصين المتحررة
أبصرتُ كلَّ شيء
ولم يقصوا عليّ شيئاً
وكان الأطفال من حولي
لا يُفسحون لي المجال لكي أسير
وأكلت أرزهم
وأكلت ثمارهم
واحتسيتُ خمرهم
خمر الأرز الشاحب
وعرضوا لعيني كل شيء
بذات الأنِفة التي عرفتُها في رومانيا
وعرفتها في بولونيا
وعرفتها في المجر
إنها الأنفة الجديدة
أنفة الفلاح
الذي يُبصر الطحين لأول مرة
على أضواء عالم الغد

رياح آسيا

بابلونيرودا

استهلال

لطالما كانت الحركة عبر الجغرافيا ووصفها والسيطرة عليها من أعمال الرجال الذين ينتمون إلى مختلف الثقافات. يبدو هذا الأمر بدهياً بسبب شيوع هيمنة الرجل على العالم، وهيمنته خصوصاً على ملف الجغرافيا والحركة عبرها، فالحملات العسكرية، والاستكشافية والعلمية وغيرها من الحملات على مر العصور كانت تتألف من الرجال. ولم تبدأ المرأة بالمشاركة، ولو بصورة محدودة، في البعثات الاستكشافية والعلمية إلا مع ازدهار نشاط الجمعيات الجغرافية والعلمية الطبيعية والآثارية، فوصلت إلى بلاد الشام ومصر والعراق على نحو خاص بعض النساء الغربيات اللواتي أصبن ولعاً خاصاً بالشرق فتجولن في عوالمه، وسكنَّ تلك العوالم، وبعضهن توفين ودفن هناك كالليدي ستانهوب التي هامت بحب بلاد الشام. ومع ذلك وبخلاف الانطباع السائد عن فقر الثقافة العربية من النصوص التي كتبتها النساء الشرقيات وتدخل في باب أدب الرحلة سوف تذهب هذه السلسلة الجديدة من الكتب تحت عنوان "رحالات شرقيات" إلى البرهنة على وجود نصوص كتبتها المرأة وتدخل في باب أدب السفر.. ويأتي الكشف عن هذه النصوص في إطار مشروع استكشافي واسع داخل أدب الرحلة في الثقافة العربية.

سنبدأ، بطبيعة، الحال مع نصوص الكاتبات العربيات، ثم نثري المكتبة بنصوص شرقية لكاتبات من إيران وتركيا والهند وغيرها من بلاد الشرق، قبل أن ننتقل أخيراً إلى ترجمة نصوص نسائية من أدب الرحلة الغربي.

هذه السلسلة تنشر بالتعاون بين "المركز العربي للأدب الجغرافي-ارتياد الآفاق" في أبوظبي، و"المركز الأفرو آسيوي للمرأة والثقافة" في أكسفورد.

نشير هنا إلى أن الإصدارات الأولى التي جرى تحقيقها وستصدر في هذه السلسلة سنة 2006 ستتضمن يوميات كتبتها كاتبات عربيات معروفات وأخريات مجهولات بينهن: مي زيادة، عنبرة سلام الخالدي، ماري عجمي، لطيفة الزيات، أمينة السعيد، دريّة شفيق، وغيرهن.

ويجري من خلال هذه النصوص وأمثالها الكشف عن صوت المرأة في مغامرة العلاقة مع المكان، والسفر فيه. وربما يكون بعض هذه اليوميات مفاجئاً في قيمته الأدبية وما يكشف عنه من وقائع وقصص وأفكار وانطباعات وخواطر دونتها النساء عن ذواتهن في الأسفار.

بهذه السلسلة الجديدة من كتب الرحالة نخطو خطوة أخرى موسعين بحركتنا فضاء الرحلة، ومنفتحين هذه المرة على صوت المرأة وحركتها وتطلعها إلى الحرية عبر أدب السفر.

محمد أحمد السويدي

المقدمة

I

خديجة صفوت الكاتبة والباحثة السودانية، المقيمة منذ زمن طويل في أكسفورد، واحدة من أبرز الباحثات في حقل الاقتصاد السياسي والتنمية والقضايا النسوية. وهي أستاذة أكاديمية عتيدة، عنيت لسنوات طويلة بمبادئ نظريات التنمية، ولها في هذا المضمار العديد من إصدارات بالإنجليزية والعربية والبرتغالية والفرنسية. ومن أعمالها اللافتة للاهتمام بالعربية كتابها "الإسلام السياسي ورأس المال الهارب" المنشور سنة 1995.

المثير للاهتمام أن الكاتبة، ومنذ أواسط الستينات، عنيت بكتابة أدب الرحلة، في وقت كانت كتابة اليوميات عن الأسفار وخلال الأسفار حكراً على الرجال، فوضعت ونشرت كتابين الأول عن رحلة لها إلى الصين، هو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وقد نشرت طبعته الأولى أواسط الستينات تحت عنوان "أفراح آسيا"، وكان ثمرة جولة لها في الصين، والكتاب الثاني تحت عنوان "ستار الصمت"، حول أفريقيا البرتغالية وظهر في 1971 على إثر رحلة طويلة في افريقيا البرتغالية، غينيا بيساو وموزانبيق وصولاً إلى زيمبابوي. وكتاب "رسالة إلى بولينا لومومبا" وضعته على إثر إحباط ثورة باتريس إميري لومومبا. ومن دراساتها بالإنجليزية بحث تحت عنوان "تنويعات الاستبداد

الغربي/الشرقي: المفهوم والممارسات"، وشاركت في وضع "الموسوعة العالمية للمرأة"، وهو عمل موسوعي كبير صدر عن "دار راتليدج Rutledge" في كل من نيويورك ولندن وسيدني. ويصدر لها خلال هذا العام 2006 باللغتين البرتغالية والعربية طبعتان من كتاب جديد وضعته بالاشتراك مع المفكرة النسوية البرتغالية ذات الأصول الموريسكية، مريام جوزف أومارا، تحت عنوان "النسوقراط"، وله عنوان فرعي شارح هو "تأنيث التاريخ، وإفقار سوق العمل: الاقتصاد السياسي لوأد البنات"، وقد وضعت الترجمة العربية للكتاب بنفسها. ويصدر لها في بيروت في أواسط هذا العام أيضاً كتاب تحت عنوان "الطرق الصوفية والأحزاب الحديثة في السودان".

II

هذه المقدمة لن تكون مكرسة، أساساً، للتعريف بالرحلة إلى الصين، أو التعليق على النص، فقد فعلت الكاتبة في مقدمتها لهذه الطبعة بأفضل مما كنت سأفعل، والواقع أنني أميل إلى تقديم الكاتبة نفسها إلى قراء العربية الذين أجزم أنهم ما عرفوا إلا القليل عنها من خلال نتاجها الذي وضع بالعربية، مما صدر منه أربعة كتب نشرت فى فترات متباعدة، فجل أعمالها بقيت بالإنكليزية ولغات أوروبية أخرى وما يزال أغلبها لم يترجم إلى العربية.

ولئن هي شرفتني بكتابة هذه المقدمة فلابد أن أشير، هنا، إلى تلك الصداقة الفكرية القوية التي ربطتني بها في لندن منذ مطلع التسعينات خلال عملنا المشترك في حقل الكتابة النسوية، وسعينا الفكري إلى بلورة خطاب نظري جديد يتعلق بالمرأة في المجتمع، والمؤنث في الثقافة والاجتماع، إنْ من خلال منبر مجلة "الكاتبة" إبان سنوات صدورها ما بين 1993–1995، أو من خلال السجال الفكري الذي طالما خضناه خلال عقد التسعينات مع ناشطات ونشطاء فكريين ينتمون إلى حركة

الفيميترم الغربية، وبعض النسويات والنسويين العرب المتأثرين بهم و بهن، إلى جانب النشاط الشعري والفكري لي في تلك السنوات المشرقة والعصيبة معاً. فقد وقع اللقاء الفكري العميق بين د. خديجة صفوت وبيني في اتفاقنا على اقتراحين لفكريين أساسيين جرت توأمتهما بطريقة أو أخرى: الأول ما أسميته بـــ"الفضاء الثالث" أو Third Space ، وهو الحقل الفكري الذي اقترحته على منظومتَيْ الرجال والنساء مع صدور مجلة "الكاتبة" وجعلته شعاراً للجدل والسجال والتنظير حول قضايا الأنوثة والمؤنث في الثقافة العربية بعيداً عن استقطابَيْ الذكورة والأنوثة الكلاسيين داخل حركة الثقافة العربية، وقد أثمر التفافاً جريئاً من حول المشروع الفكري لمجلة "الكاتبة" في ظل استقطابات عالمية كانت النسوية الغربية خلالها تسعى إلى الهيمنة على مجمل خطابات النساء في العالم. كان ذلك قبل عام على الأقل من موعد انعقاد قمة المرأة في بكين، وإن كان اهتمامي مركزاً في تلك الآونة على الجوانب الجمالية والفكرية في نصوص النساء وأفكار الرجال، وليس على النشاط السياسي للجماعات النسوية، وهو ما جرى التعبير عنه في الاهتمامات الأدبية لمجلة "الكاتبة". بالمقابل، فإن د. خديجة صفوت كانت، آنذاك، تعمل على بلورة اهتمام مركز و واسع من حول فكرة "العالم ثالثية" كنزعة فكرية أصيلة حكمت مجمل النشاط الفكري للمفكرة التي نشطت على قوس جغرافي - فكري – اقتصادى سياسي واسع أراد أن يبلور مشروعاً مضاداً لعنصرية مركزية النسوية الغربية لصالح نسوية عالمية جديدة تنطلق من مواقع التهميش الذي فرض على النسويات العالم ثالثيات بفعل تفرّد واستئثار النسويات الغربيات بزعامة حركة المرأة في العالم. هنا عند منطقة رفض التهميش، تبرز أمثلة عظيمة الأهمية كثمرات للقائنا الفكري، ليس أبرزها ذلك التكريس للمنحى الذي اقترحته صفوت هي ورفيقاتها المفكرات العالم ثالثيات وتبنيت طرحه في بيان وغلاف العدد السادس من مجلة "الكاتبة" مايو/أيار 1994 تحت عنوان "نساء عند نهاية القرن- تحالف ثلثي نساء العالم- مشروع مانيفستو عالمي للنساء"، وهو

ما أثار حفيظة مساجلينا على الطرف الآخر من الجدل والصرع داخل ومن حول قضية المرأة" والتي احتدمت في الحقل الأدبي بصورة خاصة خلال نقاش دار في "مركز الفنون البريطاني" ICA وهو أعلى هيئة ثقافية بريطانية، عندما قاطعت محاضرتي نسوية أميركية متوحشة بالسؤال التالي: من تظن نفسك حتى تحدد ما هو السؤال، مصادراً حقي في تحديد هذا السؤال وتعيين زمان طرحه؟ لم يصدمني سؤالها بمقدار ما صدمتني فظاظتها.. وقد بدت لي نموذجاً لليأس من أي لقاء فكري بين النساء والرجال. كانت تريدني باستمرار في الخندق الآخر، وأن أكون جاهزاً لأرمى بالرصاص كرجل أو كنموذج ذكوري. وخلال الرشق المتلاحق من خندقها الأكيد إلى خندقي المتوهم.. كان عليَّ أن أراقب ما طاف من سحر غربي في عيون صديقاتي الكاتبات الشرقيات الناعسات الحاضرات عربيات وإيرانيات وتركيات وحتى إندونيسيات في اللقاء وبعضهن مشاركات فيه. وكان على مخيلتي أن تستعين مراراً بصور صديقات متمرسات وذوات رحابة فكرية حقيقية كخديجة صفوت وفاطمة المرنيسي ولطيفة الزيات وأهداف سويف التي كانت مشاركة في تلك الجلسة، لأهدئ من غضبي.. أعني لئلا أنساق إلى معركة بلا طائل.. ولأفوت الفرصة أيضاً على هذه السيدة المتطرفة وصويحباتها البريطانيات وبعض الأديبات العربيات اللواتي بدون في تلك الجلسة جاهزات للانقضاض علي بالسؤال التالي: صحيح كيف تكون أنت من يحدد شكل ووقت وكيفية عرض الخطاب وتقديمه.. من خلال مفارقة.. رجل نسوي بين نساء كثيرات؟... ولكن، هل كان ينبغي أن يكنَّ مسترجلات ومعهن رجل نسوي مخنث.. لتستوي المعادلة؟ أم نذهب إلى منطقة المؤنث في الرجل؟ أم نحتكم إلى فكرة الفضاء الثالث؟ ما المطلوب فكرياً؟ تحرير المرأة من أنوثتها، أم إخصاء الرجل من ذكوريته؟ تحرير المرأة من قيودها، أم تحرير الرجل من أوهامه عنها، ومن عاداته الذهنية المضادة لكيانها.. والبحث عن فضاء جديد من خلال علاقة خلاقة بين

المرأة والرجل؟ وهذه لن تكون إلا على أرض جديدة وفي فضاء فكري وجمالي مختلف، وهو ما كان في صلب الإطار الفكري لـــ"الكاتبة".

والآن أنا متأكد أكثر من أي وقت مضى أن ما جعلني أشعر بعدالة وجمال وأرضية الفكرة هو اتهام تلك النسوية المتطرفة لي بصدد ما طرحته تحت شعار "الفضاء الثالث" بأنه فكرة شعرية. قلت هنا اتفقنا أنت وأنا للمرة الأولى. من ثم قالت بعصبية: "لكنني أرفضها.. أرفض شعرنة الحقيقة".

والواقع أنني لم أكن أشعر بحقيقية الشعر والتصورات الشعرية للأشياء كما شعرت بها عندما "اتُّهِمَتْ" فكرة "الفضاء الثالث" بأنها شعرية، فلطالما اعتبرتُ الشعر الأكثر حقيقية بين الظواهر الثورية والخلاقة لكونه يقع في قلب فكرة الحلم، أي في قلب مسعى الإنسانية المعذبة في بحثها الحالم وسعيها الجارف للتغير. لطالما كنت أرى أن الشعري أكثر حقيقية وقوة ونفاذا من التنظير الإيديولوجي الذي يستعمل كسلاح مماحك.

هذا النموذج من النسويات الغربيات خلال ذلك النموذج من اللقاءات عالمية الطابع في تلك السنوات، حاول أن يختطف اهتمام النسويات العربيات الشابات.. خصوصاً العاملات في حقل الكتابة، وكان على "الكاتبة" كمنبر عربي حرّ أن يتيح سجالاً مفتوحاً يتعلق بحرية الاختيار. لكنني أعترف هنا، وقد عرضت هذا المثال، أنني لم أكن لأفوت فرصةً دون أن أضيء على خطل التفكير النسوي الغربي المتطرف. ومن هنا ينبع تقديري للتجريبية الأصيلة التي يتمتع بها فكر خديجة صفوت والذي أعتبره بديلاً متطوراً عن التفكير النسوي الشرقي المنسحق أمام النسوية الغربية، لاسيما أن صفوت هي من بين النساء العربيات القليلات اللواتي اشتغلن على ابتكار مصطلحات جديدة في إطار التفكير المضاد لما أسميه بالنسوية المتطرفة وموضاتها التي لا تنتهي، على سبيل تركيز فكر عالم ثالثي مخالف للنسوية الغربية الخاضعة لبرامج

الهيمنة العالمية المندرجة في بعض أخطر مشروعات العولمة. وهي تفضل أن تطلق على العولمة تعبير "الكوننة". ومن بين المصطلحات التي نحتتها صفوت، وتبنته معها المفكرة البرتغالية مريام جوزف أومارا مصطلح "النسوقراط". وهو ما يهمني هنا، في الحديث عن خديجة صفوت كنموذج لطراز من النساء اللواتي لا يكتفين بالتعبير عن أنفسهن في أوراق ويوميات نساء من الشرق، فقد صرفت سنوات عديدة من حياتها تتجول في العالم، وهي مقيمة منذ اكثر من ثلاثين سنة في الغرب، ودأبها تقديم فكر يعيد النظر في تاريخ الأفكار، وتعمل في الوقت نفسه على ابتكار المصطلحات المناسبة، الأكثر تعبيراً عن الأفكار التي تقترحها.

III

وقبل أن نتوقف عند نموذج من المصطلحات التي ابتكرتها صفوت، أشير هنا إلى أنها شغلت على مدار سنوات طويلة العديد من المراكز الأكاديمية، فهي محاضر وأستاذة زائرة في العديد من الجامعات العالمية، وخبيرة لدى الأمم المتحدة، وعضو في مجالس أمناء مراكز بحوث المجتمعات التي أقامت فيها وعملت به من السودان، الى موزابيق، وزيمبابوي، والجزائر، واليمن، وفلسطين، والسنغال، وكندا، والاتحاد السوفياتي سابقاً، وروسيا الفيدرالية حالياً، وويلز في إنجلترا، وفي أيرلندا الشمالية وفرنسا، وغيرها.

وفضلاً عن ذلك، فهي الرئيسة الفخرية لـــ "لتنظيم السودانيين التقدميين" في المملكة المتحدة وأيرلندا، وحائزة على الزمالة الفخرية من جامعة ويلز، وعضوية اتحاد الطلاب البريطاني مدى الحياة، وعضوية اتحاد أساتذة الجامعات البريطانية، والمديرة التنفيذية لمركز أبحاث الشرق الأوسط وإفريقيا (ميرايك)، الذي أسسته في جامعة ويلز عام 1986، وعضو مجلس البحوث ومستشارة أكاديمية العلوم السوفياتية، ثم روسيا الفيدرالية، وعضو مؤسس وتنفيذي ومستشارة لدى جمعيات مهنية

وأكاديمية غربية، عربية وأفريقية، ومنظمات الأمم المتحدة، مثل برنامج الأمم المتحدة للتنمية، وبرنامج البيئة، وبرنامج السكان، ومنظمة العمل الدولية، وخبيرة متبرعة لدى برنامج غزة للصحة النفسية –الجامعة الإسلامية غزة، التابع لوزارة التربية الفلسطينية، وتنشط من خلاله في وضع مبادرات تأسيسية وتخطيطية حيث أسهمت صفوت في تأسيس بنك المرأة العربية، تحت رعاية منظمة العمل الدولية "تورينو – إيطاليا"، والجمعية العالمية للمرأة المسلمة (اتحاد البرلمانيات المسلمات – كوالا لامبور – ماليزيا)، واتحاد ثلثي نساء العالم، الذي انبثق من قمة المرأة الثالثة (تايبيه – تايوان). وقد مكنتها خبراتها عبر هذه المجالات من بناء تصوُّر بالغ النضج عن التداخل والتشابك المخيفين بين قضايا المرأة في العالم، ومجمل قضايا الكوكب.

IV

أعود إلى "النسوقراط" المصطلح، و"النسوقراط- تأنيث التاريخ وإفقار سوق العمل" الكتاب. لدى اطلاعي، منذ مطلع التسعينات، على مسوّدات الترجمة العربية لبعض أعمالها الفكرية خلال لقاءاتنا في لندن، كان أبرز ما لاحظته تلك الغزارة في اشتقاق وبناء المصطلحات، إلى جانب صياغات لغوية مركبة إلى درجة التعقيد. وهناك سببان معقولان لذلك، أولهما أن أعمالها كُتبت بلغات أخرى، وثانيهما أن نصوصها الأصلية كانت على درجة من التركيب، ليس فقط بسبب تشابك القضايا الفكرية التي تتعامل معها الكاتبة، وإنما أيضاً تعبيراً عن قلقها المستمر من المصطلحات المستقرة، وموقفها منها في آن. فهي مصطلحات ترى خديجة صفوت، أنها أُنتجت ضمن سياقات فكرية وتاريخية ولغوية غير محايدة ان لم تكن متحذبة. ولما كان عمل خديجة صفوت هو إعادة النظر في الحاضر على ضوء التاريخ، وفي الاقتصاد على ضوء الفكر والأيديولوجيا والدين، فإن استكشاف الحقائق لا يقوم

بالنسبة إليها، إلا على تفكيك الأفكار السائدة ومصطلحاتها التي أنتجتها، وهذا لا يمكن أن يتم إلا عن طريق توليد مصطلحات جديدة. وهو ما تفعله صفوت بامتياز. ومن هنا جاء مصطلح "النسوقراط"، الذي اشتقته لتعبر عن الجناح المتطرف، والمتوحش من الحركة النسوية الغربية، الذي يحاول أن يفرض مفاهيمه وبرامجه على النساء العربيات.

V

"النسوقراط"، إذن، هو النحت الاصطلاحي الذي ابتكرته المفكرة صفوت، لتدل به على نوع من النسوية الغربية المغالية، وقد سبق لها أن نحتت خلال عقد السبعينات مصطلح "الإسلام السياسي"، وراج هذا المصطلح بعد ذلك إلى درجة أن أحداً لم يعد يذكر متى دخل على لغة الخطاب السياسي العربي. وما يؤسف له أن هذا الحق غير منسوب لصاحبته، من جانب مؤرخي الأفكار والمصطلحات في ثقافتنا العربية.

وتعرف صفوت "النسوقراط" بأقلية نسوية غربية تهيمن على حركة المرأة في العالم، انطلاقاً من المركز الأميركي. والبارع في كتاب صفوت، المسمى "النسوقراط"، أنه يشخص عن قرب، وانطلاقاً من بحث معمق، صور وتجليات النسوية الغربية المغالية، ويكشف عن الأدوار الخطرة التي تلعبها فئة "النسوقراط" هذه، التي تؤثر في حياة مئات ملايين النساء في العالم بصورة تجعلهن خاضعات لأسس الهيمنة، بما في ذلك إخضاع الحركات العقلانية، التي أسستها نساء العالم، لتخدم أهداف فئة قليلة مسيطرة من النساء الغربيات، اللواتي ارتبطت مشروعاتهن بمشروعات العولمة بصورة لا فكاك منها.

تعقد صفوت مقارنات مبتكرة وغير متوقعة بين "النسوقراط" وفئة المحظيات الملكيات والأمازونيات في التاريخ، وترى أن النسوية المذكورة خلقت نوعاً من المصادرة الساحقة لخطابات تحرر المرأة في العالم، وصادرت برامج المساواة بين الجنسين ومفاهيم التحرر والمساواة، فضلاً

عن أن تلك المساواة لم تتحدد في المحصلة النهائية، إلا في الحقوق السياسية والاجتماعية والقانونية أحياناً، لأقليات النساء والرجال، وذلك في ظل غياب وتغييب للحقوق الاقتصادية للأغلبيات المنتجة، رجالاً ونساء في كل مكان، وهو ما جعل مشروع النسوية المغالية هذه، يتفوق في بناء خطاب مموَّه يتوارى وراءه قاموس الاستحواذ المادي والمعنوي، لتنويعه شرسة وفاجرة، على نحو غير مسبوق، من الرأسمالية المتوحشة.

كتاب خديجة صفوت، الذي ألفته مع مفكرة برتغالية، هي مريام جوزف أومارا، يفكك المفاهيم المختلفة التي تسند ظاهرة "النسوقراط"، بصفتها نموذجاً للهيمنة يندرج في لعبة العولمة، عبر أمثلة قديمة وحديثة من اقتصاد العبودية الأثينية، إلى ما تسميه صفوت "التنويعة الأميركية الرأسمالية ما بعد الصناعية لعلاقات العمل العبودي". فهي ترى أن النسوية الأنجلو أميركية المتطرفة، مشروع سياسي اقتصادي، يصدر عما تسميه "نمط اللاإنتاج الأميركي الشمالي، وقد تأسس على الاقتصاد العبودي لتجارة الرقيق، واسترخاص العمل الصناعي الأميركي الأبيض في الشمال، فالجنوب تباعاً". وهو في نظرها اقتصاد يملك ميزات خاصة، لكونه لم يمر بمرحلة الإقطاع الأوروبي، ولا بمرحلة الثورة الصناعية على الطريقة البريطانية مثلا مع مطلع القرن التاسع عشر. من هنا، فإن "علاقات العبودية التي دمغت الاقتصاد الأميركي، قبل حركة تحرير العبيد، لم تسمح بما هو أكثر من فكرة شفقة الأغنياء على المستعبدين، نساء ورجالاً، في ترك فضلات طعام المناسبات خارج البيوت ليلتهموها".

VI

تستعمل خديجة صفوت هذه الأمثولة عن اقتصاد الاستعباد، الذي يعيد إنتاج ذاته، عبر علاقات السيد والمسود، للتنبيه إلى أن "النسوقراط" هو تلك الأقلية النسوية التي نالت "صدقة" السيد، فجرى ترفيعها

وتكريسها كناطق باسم جميع نساء العالم، لتتسيد حركة المرأة وتفرض البرنامج المعولم للاقتصاد، وذلك عن طريق تمرير أفكارها إلى برامج المرأة ومؤتمراتها وقممها، من مؤتمرات السكان ومشروعات تحديد النسل، وغيرها من الأطر العالمية التي تحاول حركة العولمة فرض تصور للعالم وسلوك للبشرية، على شاكلة ما يريد اقتصاد أباطرة الشركات الكبرى، وتسميه صفوت اقتصاد الأسياد الذي يعيد إلى الذاكرة اقتصاد روما، القائم على نمط الإنتاج العبودي. والواقع أن من الظلم لأفكار خديجة صفوت اختصارها، وابتسارها في مقال موجز، فهي تملك نظرية اقتصادية اجتماعية متكاملة، ورؤى متماسكة حول ما يجري في الكوكب اليوم من تحولات اجتماعية واقتصادية، وحتى حضارية، أخذت شكل الاقتصاد المفتوح ومصطلح العولمة.

أخيراً، تؤكد صفوت في كتابها، الذي نتحدث من خلاله عن بعض أفكارها، أن أقليات النسوية الغربية المغالية الأنجلوساكسونية والأنجلوامريكية على وجه الخصوص، ألحقت نفسها بالشرائح العليا للمتنفذين في الإدارات الأميركية المتعاقبة و في مراكز القرار البريطاني، وقد حصلت على ما نسبته 15% من مواقع صناعة القرار، في وقت تدعي فيه تمثيل كافة النساء، ليس طبقياً، بل تشريحياً وبيولوجياً، ومن ثم أعطيت حق التكلم باسمهن. بالتالي، فإن "النسوقراط" هي فئات تحاول أحياناً تحقيق مساواة قانونية واجتماعية، مفرغة من الأساس المادي للمساواة الاقتصادية. وعليه، فهي لا تمس الوضع الراهن للبشر، أينما كانوا، بينما هي تكرس إعادة إنتاج الوضع الراهن في كل مكان.

ولا ينادي "النسوقراط" بأي تغيير حقيقي في المجتمعات، في وقت تعمل زعيماته بطريقة تؤدي إلى تشويه علاقات النساء والرجال والأطفال، في مجتمعات، طالما صدرت فيها هذه العلاقات عن نوع من الود والرحمة بين الجنسين، وبين الرجل المرأة والأطفال، وبسمات الكرامة، والإنصاف الإنساني في حده الأدنى.

ختاماً، لابد من الإشارة إلى أن صفوت تنبّه إلى أن الجنسين تواجها في ظل سيطرة "النسوقراط" على الخطاب العالمي للمرأة، في حرب ضروس لا تُبقي ولا تذر، وتنبه بقولها: "حذار، إذن، من هذا الخطاب". إنها بحق رحالة ومفكرة من طراز مختلف، لكنها في كل الأحوال، تعيد إلى الأذهان ذلك الطراز الرسالي من النساء المثقفات اللواتي اهتدت سيرهن، وإن بخصوصية شرقية، بسيرة كل من روزا لوكسمبورغ، ولاباشوناري الزعيمة الإسبانية الجمهورية.

نوري الجراح

لندن في أواسط يناير 2005

مقدمة الطبعة الثانية

أكلت بيضاً سلق مطموراً في الأرض 15 عاما وشربت نخب الصداقة السوفيتية الصينية فلا أهم بالتقاعس عن الاحتفال بالصداقة من كأس بحجم قمع الخياطة أو الكشتبان معدناً مصهوراً، صرت جرَّاءه نافورة صغيرة. فقد خرج النَّخْبُ من عينيَّ ومن فمي وأذني وخياشيمي، وحُملت إلى المستشفى، وحواءُ البصير عضو الوفد السوداني النسائي وإحدى أقدم وأهم القابلات في السودان تعدد واقفة إلى جوار سريري بالمستشفى قائلة: "يا يمة انحن الغربة ما لينا فيها تربة". وأنشج أنا بالبكاء. واقعة تعلمت بعدها ألا أنافق في ما لا تقبله نفسي وألا أسأل عما يصنع منه طبق صيني أو غير صيني، فآكل صامتة أو أتظاهر بالأكل. فقد شربت حساء الخراطين–وهي دود أحمر طويل يعيش في الأرض الرطبة ويستخدم عندنا طعماً في صيد السمك–و أكلت طحلب البحر ومخَّ قرد ولحم حمار، وكلها– لو تعلم(ين)– تكريم أيما تكريم لضيوف الصين في عيد انتصار الثورة. فما الذى يأخذ أناساً مثلي إلى آخر طريق الحرير، وربما إحدى بدايات الإبداعات الانسانية؟

سفر تكوين البداوة النفسية والترحال:

بَقِيَ البدو والأعراب يستهوونني، وما برحت أمعن النظر في التاريخ بفرضية أن الأعراب على الخصوص تعينوا منذ بدء التاريخ، وما برحت تنويعة محدثة عليهم تحتكر كتابة التاريخ خصماً على من عداها.

هل ذلك، ربما، لأن حياة العرب الرحَّل كتبت علينا، فبات نصيبي ألا يستقر بي حال إذعاناً، وفي خاطري البحث عن إجابة لما يحدث لنا وللعالم؟ أم لأن أجدادنا كانوا أعرابا؟ فقد جاب أجدادنا الآفاق ينشرون الإسلام منذ سقوط غرناطة ويقيمون طرقاً صوفية أينما حلّوا، ويتاجرون مع المستقرين حتى استقروا على مشارف الصحراء وعلى شطوط الأنهر مرة واحد وإلى الأبد، أو هكذا خيِّل لهم، حتى غدونا نحن بدواً أحفادَ بدو، تحط بنا بلادٌ وتحملنا بلادٌ، كالشاطر حسن وغيره من شخصيات الأساطير السحرية. وكانت لنا أوطان تسع الدنيا تناسلت من الوطن الاستعماري "الأم" إكراها. فقد فرض علينا أطفال أعضاء في الكشافة المحلية في مدينة جوبا أن نقسم بالولاء لـــ"الملك والوطن وأن نساعد الغير" وكانت المقررات المدرسية تتحدث عن إنجلترا وكل ما يخصها ويحيط بها ويعود إليها بما في ذلك تاريخها وجغرافيتها وأكلاتها المفضلة وميادينها ومدنها، وفوق كل شيء قراءات في عقيدتها ومسيحيتها إلخ... ولا شيء عن السودان ولا عن الإسلام، إلا بقدر ما يوصف الأخير بأنه عقيدة العنف والسيف. فقد كنا مجعولين- وقد جُبلنا من المادة التي يُجْبَلُ منها العملاء- لأن نغدو عملاء.

إلا أن أوطاناً فسيحة تمتد من جنوب السودان إلى داخل إفريقيا حيث أُرسلنا أطفالا للتعليم مرةً في نيجيريا وأخرى في الدلتا، لكن القاهرة عصمتنا من الانكسار. فقد كنا نلوذ بمصر كلما تخاصم أبي وأمي وذهبت إلى أهلها في رحلة شتاء وصيف آلفت، أحياناً، بين قلوب قريش وباعدت مرات بينها، حتى تفارقا دفعة واحدة وإلى الأبد.

و بدلا من أن تترع روحي إلى الاستقرار بقيت تهفو وما برحت إلى الحياة العائلية المستقرة وحب السفر معا. ولا أذكر متى انتابني ومن أين جاءني حب السفر باكراً. لكني أذكر كيف كرهت خزانات الملابس، فأقول لأمي إنني لن أقتني خزانة ملابس أبداً لأنها تتوعدني بالاستقرار البليد. وكانت أمي تكتفي بإرسال نظرة إشفاق صامتة

نحوي، وأنا أحلم أن أجوب آفاق المسافات والأدغال وفوق ظهري كل ما أملك في حقيبة "جوجو" أو ما يسمى اليوم بـــ"الروك ساك" Rock sack. وبقيت أحلم بالالتحاق بمسيرة ثورات كبرى باكراً وقبل الثورة الكوبية وإطلالة وجه جيفارا النبيل الجميل مضيئاً سماء التروع إلى عالم أفضل. كانت ثورة البرازيل يقودها جورج أمادو قد ملأت جوانحنا بالأمل في عالم خال من اللئام، رحت أُمنِّي النفس- وكنت في الثالثة عشر- بالانخراط في حرب تحرير. فركضت وراء الثورات وزرت مناطق إفريقيا البرتغالية المحرَّرة وانَخرطتً ببعضها غب أزمنة الثورة من موزامبيق والجزائر وزيمبابوى إلى فلسطين والجزائر ونيكاراجوا نشدانا لحلم بناء الأساس المادي لحياة أفضل في أي مكان. وقد عشت وعملت في السنغال وكندا والاتحاد السوفيتي سابقا وروسيا الفيدرالية حاليا- وويلز وإنجلترا وإيرلندا وفرنسا ومصر وغيرها، ربما بحثا عن عالم أقل قساوة.

كانت أقاليم السودان جنوبا وشمالا مراتع طفولتنا، وقد أفعمت المسافاتُ والأدغالُ أرواحنا نزوعا إلى الترحال. كان أبي يصطحبنا كلما توفرت مدارس للبنات في المديريات التي ينقل إليها حتى سن الدراسة الثانوية، فبقيت أقاليم السودان مرتع طفولتنا- صديقي وشقيقي روحي عبد العزيز صفوت وأنا- حيث تنقل أبي منفياً في كل مرة عقاباً له على معارضة سادة الكون والبشر، على حد قول صديقي وأستاذي كبير مؤرخي الإمبراطورية التي لم تغب عنها الشمس فيكتور كيبرنان، واسمه المفضل حافظ خدة. كنا نسافر وحدنا أحياناً من جوبا عاصمة الاستوائية أو من ملكال عاصمة أعالي النيل على متن طائرة- بلا ركاب سوى طاقمها- في طريقها من نيمولي أو يابي أو بحر الغزال أو نيروبي، كلما مرت إحدى الطائرات التي تخص ما سمي وقتها بالطيران المدني بجوبا أو ملكال إلى الخرطوم.

❖ ❖ ❖

كنا نزور والدي في الخارج متنقلا، وكان ترك السودان بعد الاستقلال، وقد اختلف مع قادته. فلم يكن الاستقلال أكثر ولا أقلّ من تنويعة باكرة على دمقرطة الشرق الأوسط الكبير. ولعل معاصرتي طفلة لترحال أبي الدائم – رحمه الله– متنقلا بين ربوع سودان المليون ميل مربع بقيت تبعث في نفسي التوق إلى فضاءات تخلو فيها الحياة من ألم الفراق وعدم الإنصاف. كان أبي يُرْسَل إلى أقصى مديريات السودان عقاباً له على مقاومة الإنجليز، فقد بقي يرتكب خطيئة التماهي مع الناس العاديين في كل مرة، وهو الذي كان مفترضا به أن يمثل القانون الاستعماري فيطبقه ثمناً لوظيفة وسيطة في الهرم الإداري كغيره من موظفي الخدمة المدنية. فقد كان أبي نائب مأمور وقاضياً وضابط مطار وغيرها من المهن، وقد سلم بأنه يعين في رتب تتدرج تنازلياً في كل مرة، في حين كان معظم أقرانه يُرَقَّى درجات أعلى فأعلى جزاءً لهم على ولائهم لـــ"حكومة السودان الإنجليزية" وقد غَرُبَ المصريون فتم إقصاؤهم، ثم طردوا خارج السودان. وقد غدوت وبي ذُعر من جميع المهن، وما تنفكُّ روحي تهفو إلى عالم لا تأخذ فيه الحياةُ بتلابيب الناس قسوة وإحباطا.

وكانت أمي رحمها الله تقيم لنا ولأصدقائنا من أطفال جيراننا– عندما لا تكون هناك مدارس بنات– مدرسة غير رسمية مجانية في بيتنا. وكانت المدرسة مع ذلك "نظامية" بكل شيء بما في ذلك ناقوس ما بين الحصص وفسحة الإفطار. وبينما أخذنا عن أبينا حب الكتب والقراءة صغاراً، فقد أخذنا عن أمنا حب التعلم. وكنا نبحر مع حسن البصري، ونسافر مع أسطر الكتب. كان بيتنا، من غرفة المعيشة إلى الحمام، يفيض بالكتب والمجلدات من عصر المأمون إلى عبقرية محمد. فقد كان أبي أديبا وقارئا عظيماً، محبا للثقافة الإسلامية وللغتين العربية والإنجليزية وللثقافة الليبرالية. كنا ننتظر باخرة الخرطوم النيلية مرهفين السمع إلى صفارتها، لم تكن لتتأخر عن مواعيدها أبداً، فنسمع صفارتها من على مبعدة أميال معلنة الوصول من تركاكا التجارية، تحمل لنا كل أسبوعين مكتبتها التي

يباح استعارة الكتب منها، على أن تعاد بعد أسبوعين، فكانت مجلة "الصبيان" وسلسلة كتب الهلال من بعد. كان أنيس عبيد يحرر تلك السلسلة، وله علينا أفضال كبيرة.

وكلما نقل أبي منفيا إلى مديرية ليس بها مدارس، كنا نترك بالخرطوم في بيت جدتنا لأبينا. كان بيت جدتنا عند مدخل أم درمان ومشارف مقرن النيلين، على مبعدة من قرية الخرطوم القديمة، يقوم فوق ربوة تنحدر حتى خط الترامواي. وكان النيل يلعق أقدام تلك الربوة عند تخوم الحوش كلما ارتفع منسوب الفيضان. الخَضَارُ كان يشتعل بألف ضوء، وتتفَجَّر الألوان حقلاً من الأزهار والنبات والأعشاب المداوية كلما انحسر الماء.

كان بيت جدنا لأمنا في شارع يتفرع من شارع الملك. من هنا ينطلق كل عام محمل الكعبة فوق الجمال في موكب جليل بطئ، ويهرع الناس من كل مكان لمشاهدته، فيخرجون إلى شارع الملك من عند قصر حدائق القبة حتى غمرة وباب الحديد، ويتدلى سكان الشارع من فوق الشرفات ملوحين يتبركون بالمحمل ويقرؤون الفاتحة. كان الموكب يلهبُ خيالنا الطفولي ببلاد بعيدة مقدسة ذات رمال عطرة وغامضة. عشقت الصحراء في عتامير السودان من الخرطوم إلى أسوان وغرداية، وأحتفظ من الأخيرة بتذكار صور كثبان مسحورة، وبزهرة رمال ثابرت على صحبتي من دون غيرها مستعصية- لسر لا أعرفه- على التصدع أمام الأسفار والتنقل وتغيير السكنى.

كانت لنا مع القطارات والمحطات والبواخر والثغور النيلية والمطارات مواعيد، إلا أن الصفارات والمحطات والمطارات وروائح الرحيل بقيت تخطف قلبي. وبقي وداع أبي ماثلا لوقت طويل، رغم زياراتنا له في المديريات التي كان ينقل إليها إبان العطلات، وربما بسبب ذلك بقيت رائحة الرحيل تجثم فوق صدري، وما برحت أرصفة

البواخر، ومرور القطارات يخطفان قلبي، والفراق الذي لا وعد بلقاء بعده يغور عميقاً في خاطري.

كرهت روحي الوداع مهما يكن قصيراً، وبقيت أقسى الكلمات عليَّ وقعاً "مع السلامة". سأموت وبي شيء من "مع السلامة" وتكاد تزهق روحي في كل مرة أقول فيها لأحد وداعاً، على ما تقول أغنية إلا فيتزجيرالد Ella Fitzgerald.

ولم تنفك "مع السلامة" تلك أن باتت ترفاً، وقد كتب علينا العيش في بلاد لا يُستَقبَل فيها مسافرٌ قادمٌ، ولا يودَّعُ مسافرٌ، ولا تدمعُ عينٌ لفراق، ولا يخفق قلبٌ للقاء ولا تعني "مع السلامة" شيئاً، الوجوه تتطايرُ في الاتجاه المعاكس فوق الرصيف من خلف زجاج نافذة. ولم نعهد تلك البلاد ولا عهدتنا رغم الشتات، وربما جراء هذا الشتات، فما لبث فراق الشتات والمنافى أن بات قدراً معلقاً في رقابنا، اختياراً وإكراها فإذعانا، وقد بات اللقاء مستبعدا مع مرور العمر.

أبقت أسفارنا والفراق على السودان في خاطري وخاطر شقيقي عبد العزيز صفوت رحمه الله فضاءً يخصنا ولنا فيه صداقات مع الأشياء ومع المنحنيات والفصول والفيضانات والمطر والدعاش– رائحة الأرض غب المطر– ومع الدَّرَت (الجو الحار) الذى يُنضج العيش– الذرة– عندما يحتقن الهواء بالرطوبة، وقد تُرْعدُ السحبُ دون أن تمطر. وكنا عقدنا علاقات متسارَّة مع الشجر والحَجر ومع صوت المَرْفَعين– الهايينا– وهي حيوان خُنثى مُشَكَّلْ، أي يجمع بين الأنثى والذكر، وهو إلى ذلك خليط بين الذئب والثعلب– ويغلب النمر إذ يفاجئه. ولكم خبَّأنا غاب الجداول والترع النيلية، وتكتمت أدغال الجنوب على شقاوتنا صغاراً، وقد جَعَلَتْ طفولتُنا لكل شيء لوناً، وجعلنا لكل شيء ومكان رائحة جنوبية استوائية أو شمالية مصرية–ريفية. فالمصريون لدى السودانيين "أولاد ريف"، أي ريفيون، ربما قياسا على أن السودانيين بدوٌ وأعرابٌ حكموا ممالك وادي النيل الوسيطة ثم الأخيرة على الخصوص بقدراتهم القتالية.

أيامنا الحلوة في ميدان الزمن:

تمثَّل الزمانُ الجميل شبابَنا وشباب العالم وقد اتسعت الأوطان العربية كافة للحلم وكانت الثورة الجزائرية تلهب أفئدتنا حماسة، وكانت الاشتراكية خياراً وأسلوب حياة. فأن تعمل على تغيير العالم إلى الأفضل، وتناضل ضد الظلم وتسعى للإنصاف، وتساعد الآخرين أقرباء كانوا أو أصدقاء أو معارف أو غرباء بلا وجوه، وتقف إلى جانب المظاليم وتدافع عن "الشعوب".. هذه كلها ليست إلا طرائق من العبادة تشارف الإيمان بالله تعالى. كان العقاب على المبدأ وعلى الكرامة قد أُلف، وبات الظلم غير المفسر يخالط الشعور به كيمياء خاطري باكراً، صرتُ أفزع من الظلم، ولا أذكر متى نذرت نفسي للنضال من أجلِ المظاليم، وقد نفرت روحي من عدم الإنصاف، بينما بقيتُ موضوعاً لعدم إنصاف أراذل بني تميم على أنواعهم. كنا اشتراكيين بفطرة سودان فسيح، ومن فضل بيوت تسع فتُؤوي غرباء حتى يغدوا أهلاً وأقارب، متحدرين من أسلاف مغامرين يحدوهم كرم الروح إلى ارتياد فضاءات جديدة. وكنا أتقياء نستدعى صوفية أجداد غير معروفة أصولهم إلا بقدر ميثولوجيا السودان والأسر القديمة، وبشجرة تمتد فروعها إلى ملوك الفونج في القرن السادس عشر. وكلّ أسرة سودانية قديمة تحتفظ بشجرة عائلة تمتد إلى العباس، وكل سوادنيي الشمال والوسط أشراف ينتمون إلى آل البيت والله أعلم. وكنا نملك استدعاء ذكرى فضاءات وسعت وادي النيل بكامله من أهل أمي المصريين من بليس واو بلقاس جوار المنصورة، وأهل جدة أبي آمنة بنت يوسف عمارة تاجر الرقيق والذرة و"سر تجار"-

رئيس الغرفة التجارية- لمدينة واد مدني عاصمة السودان حتى خروج "التركية الأولى"، أي الفتح المصري في 1821 إلى 1885. وقد أقام محمد أحمد المهدى عاصمته في البقعة المباركة، أي أم درمان حتى حلول الفتح الثاني أو "التركية الثانية"، ليجعل قرية الخرطوم الصغيرة على مشارف أم درمان عاصمة الحكم الثنائي، وقد خططها على هيئة العلم البريطاني المتقاطع برموز كافة القديسين البريطانيين الملفَّقين.

كنا نقضى نصف طفولتنا في القاهرة في بيت جدينا لأمنا، وما يشارف النصف الآخر ما بين زيارة أبينا في المديريات، وفي صحبته عند جدتنا لأبينا السودانية ذات الأسلاف الفونجية. وما برح أحفادها يعمرون حي المدنيين بواد مدني بحذاء النيل، وكأنهم حي ربط البيازين في قرطبة. وأم جدتي لأبي جاءت من القرن الإفريقي، من حيث جاء مينا موحد القطبين البحري والقبلي. وكان جدي لأمي محمود فهمي سمارة بُعث إلى السودان بين ممثلي الحكومة المصرية مع حملة الفتح التركي الثاني، أو الحكم الثنائي منفياً، بدروه، بمغبة اشتراكه في حركة عرابي حتى إبعاده مرة أخرى وأسرته عقابا- مرة أخرى- بجريرة مقتل السردار البريطاني في القاهرة غب ثورة 1924م على الإنجليز في السودان. فقد اتهم المصريون بتحريض السودانيين على الانتفاض على الإنجليز وحملوهم مسؤولية اغتيال السردار في القاهرة في 1925م.

وقد بقيت مصر لنا فضاء عائليا ووطنا رحبا نلوذ به وأقرب أرض من السودان كلما عز السودان بفعل الانقلابات والحكومات العسكرية. كان أبي يتنقل دبلوماسيا من الجزائر إلى الهند، وقضى آخر أيام حياته ما بين القاهرة - في عمارة الإيموبيليا حتى باتت أطلالاً- وقرية المجفف بالقرب من الزقازيق، وبنى له زاوية فرشها بالسجاجيد وأضاءها بالشمعدان حتى توفاه الله ودُفن بجوار الزاوية. كان صوفيا عَرَكياً من طرق جزيرة النيل الأزرق الصوفية. والعَرَكيون أنفسهم رُحَّل لعلهم جاؤوا من العراق أو من المغرب غب سقوط غرناطة مع فلول الموحدين

والمرابطين، وقد هبطوا السودان بداية القرن السادس عشر ليتاجروا وينشروا الإسلام بين سلاطين وملوك وكبارٍ تجار سنار الفونجية ويهزموا الأخيرين- كعهد البدو والأعراب خصوصاً مع المستقرين بفعل الزواج والصوفية والتجارة. وبقي أهلنا وعشيرتنا في السودان بينهم، وبهم عزتنا، وظلّت مصر ضميرَنا.

خديجة صفوت

أكسفورد 2005

نص الرحلة

كانت فكرة خروج أول وفد نسائي سوداني إلى الصين أمراً حاطه الكثير من عدم الرضى والتخوُّف إن لم يكن الاستنكار، إلا أنه حدث فك عقال عشر فتيات سودانيات في وفد نسائي إلى الصين الشعبية، وكوني إحدى عضوات الوفد كان حظاً كبيراً بل فرصة العمر. إنني لأحاول هنا أن أسدي في تواضع إن لم يكن في تفاؤل شديد إلى هذا الشعب العظيم، ذرة من فضائله، أو قطرة من محيط زاخر بالعطف والأمل، والتفاؤل والجمال، واليقظة والثقة في مستقبل الإنسانية، ورفاهية العالم الذي تساهم الصين ولا شك في توطيد دعائمه بأوفر نصيب، وكل المشاعر النبيلة التي ملأتنا بها زياراتنا واتصالنا بهذا الشعب، ولأبدأ من.

1

تأخرت الطائرة عن مواعيدها نحو الساعتين وكان علي أن أعاني انفعالات قاتمة مبهمة طوال لحظات ما قبل الوداع المزعجة. والفراق مؤلم. ومجرد الشعور بأنه واقع لا محالة مرهق للنفس وأشد منه إرهاقاً انتظار الحدث.

قمنا الساعة الثامنة صباحاً، وحاولت ألا أبدو مكتئبة، أو أسمح لدمعتين عصيتين بمفارقة جفني، وكان تفكير مضطرب يحوي صوراً شتى لكل الذكريات التي لم تُولد بعد.

وكان أول ما فعلت هو تصفّح وجوه زملاء الرحلة من "الأجانب"، كان معظمهم من اللبنانيين والسوريين، يتحدثون في كلمات ممطوطة منغمة. وجارتي نحيفة.. أغلب الظن أنها عانس، كانت مثقلة بالحلي والجواهر، ولا تفتأ تحدثني عن الجو والأسعار. وفجأة انبعث صوت جهوري يترنم بالأغنية المشهورة "ألم على أبيات ليلى بي الهوى" ويبدو أنه تنبَّه لنفسه حين توقف عن الاستمرار. وبعدها لم أعد أحاول مراقبة شيء واستسلمت لانفعال مخدر، ولكن دوار الهواء سرعان ما بدد كل الأفكار. وبقي طنين يئز في إصرار مخيف رأسي، حتى بدأت الطائرة ترتفع إلى 9 آلاف قدم، وصادفنا خلال ذلك عدة جيوب هوائية زادت الطين بلة وزادت من حدة الغثيان الذي أصبح ينتاب جميع أعضاء الوفد أو أغلبهم. وأخذت المضيفة الجميلة تتناوب مع زميلاتها وضع الكمادات المثلجة، وإحضار العقاقير المنعشة. وتراخيت قليلاً، ولم أعد أفكر في شيء معين. وفي حوالي الساعة الواحدة ظهراً كنا نحلق فوق البحر الأبيض المتوسط، بدا أزرق يميل إلى الخضرة تتخلله نقط بيضاء مثل أوراق مزقتها طفلة ثم ذرتها الرياح فاستقرت فوق الماء العميق الزرقة، ولا أدري لماذا تذكرت كلمات البياتي:

سأهيم وحدي في البحار النائيات!

مغنى النساء الساحرات..

والخمر.. والدم.. والدموع!

ودليل مركبي الطروب

عينان خضراوان..

وبعد حوالي نصف ساعة كنا في بيروت. كانت أيدي كثيرة تلوح عبر "التراس"، وشعور فياض يتجاوب صداه بين القادمين والمستقبلين، في حركات انفعالية جميلة تبدو أكثر وضوحاً في حركات الأذرع والعيون اللهفى إلى اللقاء. كنا سعداء بهذا الشعور وإن لم نكن طرفاً في تبادله. ولأول مرة شعرت بالغربة واللاحول على مواجهة خطر مجهول قد يُبرز للجماعة الوادعة المسالمة التي نكونها! وانتهت عملية الجمارك والتأشيرات في لحظات، فاللبنانيون كرماء لم يلحوا على فتح حقائبنا كما تساهلوا في الشكليات الأخرى. وخرجنا إلى المدينة الواسعة يغمرنا شعور جميل بالعودة إلى الأرض الصلبة الرحبة من جديد، وإن ظلت الآذان تطن بوخز مؤلم، ونسيت آلام الرحلة المضنية، وأنا أتابع الطريق الذي بدا غريباً ونحن نخترق غابات الصنوبر المنسقة وكأنها مزروعة – أغلب الظن أنها كذلك– والطريق من المطار طويل، ولكن ما إن بدت أولى دلائل العمران حتى خلت أنني رأيت المكان من قبل، فالوجوه ليست غريبة وكأنها لأشخاص وأحباب أعرفهم. نفس الأماكن والإعلانات، ودور السينما، وبائعي العرقسوس والفاكهة والفطائر وازدحام المرور، وضجة المارة. كل ذلك ذكرني بالقاهرة الحبيبة، وإن شذّت بعض المناظر ونداءات الباعة واللهجات المتعددة التي يختص المواطنون كلماتها بنغم أحسن، وأزياء تتميز منها أزياء الفلسطينيات ذات الوجوه المستديرة في اتساق كالكعكة الخمرانة وفي بياضها –وزيهن

الصارخ الألوان الذي يُذَكِّر المرء بأزياء فلاحات هولندا المسنات. والحجاب في لبنان ما زال حياً تضيق به معظم شوارع المدينة الضخمة، فبين كل عشرة نساء اثنتان محجبتان على الأقل، وإن لم يكن الحجاب على الرأس والوجه -كما بالنسبة للمسنات- فعلى الشعر فقط بالنسبة للصبيات! ويبدو أن اللون الأسود يتماشى مع المحجبات كثيراً فهن يفضلنه في شغف مزعج.

2

ولعل لبنان أجمل بلاد الأرض قاطبة فهو على صغر مساحته ينحصر بين الجبال الغنية بالجمال، والزرع والماء. وجبل لبنان يربط طريق معبد ضيق على حافة الجبل حلزوني المنحنيات حتى لتخال وأنت على الطريق إلى الوادي الذي تغلفه غمامات الهاوية بلون بنفسجي باهت، تخال أن المشهد لوحة لا ينقصها خيال خصيب يودع السحر فيها، والخضار ألوان شتى. وأحراش الصنوبر ترسل عبيراً ندياً يريح الأعصاب. وموسيقى أزيز "الصيفي" -الصرار- تنبعث من بعيد عبر غابات السنديان مختلطة بخرير العيون العذبة وأجراس الثيران ترعى في بطن الوادي مع مزمار راع قد يكون جالساً يحلم بحسنائه النضرة الموردة الخدود ذات القدمين الصغيرتين الحافيتين. أو صوت فلاحة تغني في نغم رخيم ووتيرة ساحرة يحمل النسيم أمواج صوتها من بعيد تهدهد اللوحة الحانية أو تمازح حبيبها المولّه:

ليش بس تشوف عيني بيرتعش قلبك

قلت لك بحبك مثل خيي

غير هيك ما بحبك يا خي

والطبيعة في لبنان سخية، أشجار الكروم تنمو على حافة الطريق برية مهملة، والتفاح والكمثرى والسفرجل وحتى "النقل" ينمو مع الأعشاب البرية كجزء منها في بعض الأماكن كما ينمو "الحسكنيت" الشيطاني عندنا والعشب!

وبلد هذه طبيعته وذاك سخاء الحياة فيه ليس بغريب أن ينجب أمثال جبران خليل جبران وبشارة الخوري، وإيليا أبو ماضي، ونعيمة.

وكما أن الطبيعة ساحرة، كذلك بنات حواء اللبنانيات فلهن أجمل عيون يمكن أن يحملها وجه نضر مستدير تتوثب الدماء من وجنتيه والصحة. وكذلك الأهداب والشعر العسلي اللون، الغزير.

ولبنان في المساء منظر فريد، فمن أعلى الجبل، وقرب صوفر و"عاليه" المدينة المترفة المكتظة بالملاهي الليلية، والمواطنون والسياح والأغنياء وأمراء العرب ذوي الشهرة "الدونجوانية"، من عاليه يستطيع المرء أن يرى كل لبنان. الجبال المجاورة، والوادي عند أقدام الجبل، وبيروت على ساحل البحر يحتضنها في وله، ونبع الصفاء والباروك، وكل القُرى البعيدة تبدو متلألئة كعقد من الماس القرط على وسادة من مخمل غني، وتبدو المصابيح الملونة وإعلانات "النيون" المتقافزة وكأنها زينات عرس. كل جزء يتوثب حياة ومرحاً بالليل، كما تتوثب الأرض روحاً ونُضرة ومشاعر بالنهار.

ولعلي لست بحاجة لأن أصف مدى تعلق اللبنانيين "بالغربية". فشوارع المدن وإعلانات الدعاية، وأردية العمال، وعربات التاكسي الفارهة وأزياء النساء وطراز البنايات كلها تبتعد بك عن القمصان المشجرة الصارخة الألوان والنساء تبدو أطراف أثوابهن متسعة كأنها مظلات الشاطئ. والكاديلاك تزحم الشوارع حتى لكان العربات

والتاكسي أكثر من الراجلين، وروح "التامرك" المتفشية تنقل بوضوح علة موقف لبنان المهزوز من القضايا العربية(1).

ولعل من الطريف أو الغريب أن أذكر أن اللغة الفرنسية تقوم مقام لغة ثانية، إن لم تكن أساسية لشعب لبنان. فسائق التاكسي والبائع، وعامل المصعد، والفرّاشة، والجارسون، كلهم يعبرون عما في أنفسهم بشكل أوضح باللغة الفرنسية. وقد يصح أن نذكر فترة الاحتلال الفرنسي للبنان الواقعة بين 1924م إلى 1943م، ولكن الريف اللبناني يحتفظ بطابعه بعض الشيء وإن ضعف هذا الحفاظ في الجيل الجديد.

فالفلاحات المسنات يلبسن الحجاب والأردية الطويلة السوداء، أما طرق المعيشة فسهلة، وحالة الفلاح العامة معقولة.

ولعل من المؤلم أن يرى الإنسان أن لا مفر من تقرير أن الفلاح السوداني أفقر فلاح بإمكانيته، وواقعه، وأرضه ووسائله المعيشية الوضيعة. والأماكن التاريخية في ضواحي بيروت تحكي قصة التطور السريع الذي لازَمَ تاريخ لبنان الشقيقة العربية.

قرية دامور

إحدى القرى النموذجية في ريف لبنان وتزرع القصب والموز، والموالح، والزيتون، والنقل والتفاح والسفرجل، والكروم، وبتنظيم طريقة بيع المحاصيل بين الفلاحين. يمتلك الفلاح أدوات الإنتاج وكذلك الأرض أو جزءاً منها، ونظام سوق القرية في فترات أسبوعية تعرض فيها المحاصيل. وأعظم ما في القرية انتظام الفاكهة في أشكال هندسية مغرية

---

(1) كُتب قبل الثورة.

على واجهات المحال المتناثرة هنا وهناك وعلى طول الطريق عبر الجبل. والمنازل حجرية صغيرة وإن بدت وكأنها جزء من الأرض نبتت عليها!

وحول البيوت حدائق صغيرة فردية يجعلها المزارع لتربية الدواجن، ويجلس بها في العصاري مع عائلته يشوي "أبو فروة" أو يتسلى بالتنقل فيها بينما المواشي ترعى على السفوح المجاورة –والغروب في لبنان وقت استرخاء حيث يعود الرعاة من الأحراش يسوقون الخراف المكوّرة شحماً، يختلط جؤارها بصليل الأجراس المعلقة في أعناقها، وعودة الفلاحين مثقلين بالثمار من غابات الفاكهة المنتشرة إلى المدى. وتلي قرية دامور ضيعة دير القمر، وهي قرية صغيرة على الطريق إلى قصر "بيت الدين" –ودير القمر مسقط رأس "كميل شمعون". ثم قرية "بيت الدين" التي اتخذ القصر اسمه منها وقد بناه الأمير "الشهابي" في القرن التاسع عشر.

بيت الدين

وللقصر تاريخ طويل شهد خلاله أحداثاً جمة فقد احتمى به حمزة التتري الذي انشق عن الدين الإسلامي، وكذلك شهد القصر مذابح الدروز والصراع الرهيب الذي دارت رحاه في أبهاء القصر بين الشيعة والمذاهب الدينية في سنة 1860م.

والقصر حصن على طراز قلاع العصور الوسطى تتوسطه حديقة تضم أندر الزهور، والأشجار والنافورات ذات المياه الملوَّنة الآتية من نبع الصفاء مباشرة. وتأتي المياه إلى القصر بنفس الطريقة التي كانت في أيام الأمير.

وأكبر قاعات القصر مجلس الشيوخ الذي صنعت جدرانه من خشب الأرز ونقشت بالأزاميل نقوش دقيقة كلها –من الفن اللبناني

العربي وبأيد لبنانية- ثم ديوان الأمير أو مجلس الوزراء وتجاوره الغرفة السرية للمذاكرة وتضاء تلك الغرفة بطريقة غامضة حيث يشع الضوء من لا مكان ويستحيل ظلام الغرفة الدامس إلى ضوء النهار بمجرد فتحها- وتفتح طبعاً بطريقة سرية لا يعرفها إلا القلائل- وتنسكب المياه العذبة زُلالاً على الحائط باستمرار، موجهة من نبع الصفاء الذي يبعد عن القصر بأكثر من كيلو متر وبطريقة ما زالت لغزاً ولم يتوقف جريان الماء لحظة واحدة عن القصر منذ أن بُني القصر!

ثم الحرملك وهو جناح ضخم في القصر يضم عدة حجرات فسيحة وحمامات تركية وأحواضاً داخل الحمامات تمتلئ بالماء الساخن وتفرغ -أوتوماتيكياً إذا صح التعبير- ثم نافورات تصل روعة تصميمها إلى حد الإعجاز ترسل ماء معطراً للحمام أيضاً ومباخر ضخمة ترسل البخور على الدوام ثم تراس كبير يطل على الجانب الخاص بالحريم من الحديقة وقد نسق ذلك الجناح بطريقة مدهشة وزُوِّد بحوض للسباحة ذي ماء ملون وجدران من المرايا الصافية. وأبواب الحرملك تشبه تقسيماتها أبواب السجون وقد تصدع جانب منه من جراء الزلزال الأخير ولكنهم بسبيل ترميمه.

وللأمير عدة زوجات، وإن حرص على بناء قبر زوجته الأميرة شمس إلى جانب قبره الباقي على الطرف الشمالي للقصر وقد نقلت رفات الباقيات من نسائه إلى قبر الأميرة شمس.

وبجوار القصر متحف صغير يمثل فيه تطور الأدوات والأسلحة الحربية والأزياء وكذلك سير العظماء من أبناء لبنان.

وقصة التطور ومراحله تحكي في وضوح السرعة الغريبة في انتقال لبنان من طور إلى آخر وتعلقه بركاب المدنية الغربية في جنون حتى إن المرء يعجز عن استخلاص الخطوة التالية.

ولعل ذلك ما يؤكد الفكرة القائلة بأن لبنان يحمل من الغربية أكثر مما يحمل من روح الشرق.. قد يكون القول خطأ ولكن سياسة لبنان في نطاق العروبة، لشهور قريبة مضت يحمل شكاً كثيراً في مدى خطأ هذا الزعم.

3

اقترنت ذكريات لبنان بحادثة مؤلمة في أذهاننا تعلمنا على إثرها ألا نفرط في الثقة بالآخرين كثيراً. ومن يومها أخذت علاقتنا بالناس "أصحاب المصالح" شكلاً غاية في التحفظ -وإن ضمنت زيارتنا للصين- فيما بعد هذه الفكرة.

المهم غادرنا بيروت في اليوم الرابع من وصولنا وكان الوقت الذي تستغرقه الرحلة التالية يدعو إلى القلق والإشفاق -فمن بيروت إلى هونج كونج رحلة ما يقرب من اليومين على متن الطائرة.

وصلنا كراتشي في 8 ساعات وكانت الرحلة -على عكس ما توقعنا مريحة ويبدو أن لكبر حجم الطائرة فضلاً في ذلك. وفارق التوقيت 3 ساعات.

وكراتشي بلد ناشئ ليس في مبانيه عراقة من أي نوع اللهم إلا بعض مظاهر من قطع الفن الهندي ممثل في زخرف الجدران أو المباني وإن طغى "الجو الإنجليزي" على استراحة شركة الطيران ومعظمها على كل ما عداه من صور الملكة المعلّقة على الحائط إلى طريقة تقديم الأطعمة وأعلام الجزر البريطانية،.. إلخ.

والباكستانيون يشبهون -إلى حد بعيد أهالي شمال السودان في اللون والملامح، حتى الشعر الناعم الذي يشتد سواده عند الباكستانيين- وتبدو حداثة العهد بالتخطيط في التصميم والشكل العام، ولعلي أظلم هذا البلد إذ أسترسل في وصف سطحي كهذا، فلن نقضي به الوقت الكافي للحكم عليه وإنما هو انطباع عارض -لا يخلو من هوى!

ومن كراتشي كان خط السير يمر بدلهي ثغر الهند الحيوي، وفارق التوقيت بينهما نصف ساعة ما يوضِّح الفارق في المناخ. ثم إلى كلكتا ثم رانجون، وكل هذه البلاد ذات طقس رطب لدرجة أن المرء يشعر بلزوجة وطبقة من الزيت تغطي الأجزاء الظاهرة من الجسم كما أن البرودة تشتد كلما توغلنا شرقاً. وفي رانجون لاحظنا لأول مرة المباني الخشبية، والوجوه المستديرة ذات العيون الضيقة المشروطة والبشرة الصفراء وكذلك الساحر -التقليدي- الذي تكرر وجوده في كل المطارات من كراتشي، يجلس القرفصاء على الطريقة المعروفة لفقراء الهند يفحص عينيه ويقوم في غموض ليخرج بيضة من كفه التي أطبقها خالية، ويتنبأ بما في خاطرك أو،.. إلخ.

ثم إلى..

هونج كونج

"شبه جزيرة كارلون" Carloon Peninsula تكون المستعمرة الغنية الكبيرة المزدحمة، والمدينة تزخر بمظاهر الذوق الإنجليزي ولولا عراقة الفن الصيني لطغى على ما عداه. والناس بالمدينة موسرون ينعمون بكل وسائل المدنية الحديثة التي صنعتها "الأيدي" البريطانية من أجل الاستمتاع خاصة. فالشعب في هونج كونج طبقتان، طبقة تعاني الفقر المدقع وتكدح ليل نهار من أجل لقمة العيش البائس، وهؤلاء الأغلبية. وطبقة التجار وأصحاب الحانات. إن المهن الرائجة والمشروعة هي

التسول والدعارة والاحتيال ومستوى الأخلاقيات واطئ إن لم يكن منحطاً.. فالفتيات لكي يجارين الوضع ينجرفن عن الطريق القويم كوسيلة سهلة إلى الترف والحياة الرغدة.

والمدينة ازدحام وسلع مغرية وفتيات متأنقات في تذبل جميلات في صناعة -غالباً ما تُفسد الأصل- وتقاليد وظاهر أبعد ما تكون عن جو الشرق وشهرة الصين الواسعة في التحفظ والمثل والسمو. ومن المناظر المألوفة تأبط جندي بريطاني لفتاة مخمورة معطرة وتأرجحهما في عناق على قارعة الطريق. ومظاهر الهوى المباح بالثمن "متفشية"، وواضح أن هذا الانحلال من "صنع إنجلترا" إذ أن المستعمر يستتب له الأمر كلما كان المسرح محتكراً مصادر الجهود والقيم، كما يتسنى له إخراج مسرحياته البشعة.

ومباني هونج كونج فخمة في فخامة وتكاثف وكذلك الحوانيت وذلك راجع إلى سمعة المدينة السياحية وشهرة بضائعها وتحفها، فهي مركز هام للتجارة كما أنها ثغر لا تقيده القوانين الجمركية Free Port.

وبقدر ما في المدينة من ترف وبقدر ما تنال نساؤها من وسائل عدة لكسب العيش تشح الفرص وتصعب الحياة بالنسبة للمزارعين وسكان الأرياف.

والفلاح في هونج كونج فقير وفقره يبدو واضحاً على كوخه ومزرعته الضيّقة التي ترويها مياه الأمطار المتساقطة طوال العام، المنحدرة من أعالي الجبال المحيطة بالأودية المزروعة.

وكل الزراعات تقوم على المجهودات الفردية بإمكانيات محدودة، ما يزيد من انقضاض الحاجة على كاهل المزارع. هذا إلى جانب الاستغلال الفاحش الذي يعانيه الشعب عامة والفلاح خاصة، مما يؤكد أن هذا لا يمكن أن يستقر، والشعب وإن بدا راضخاً في استكانة إلا أن الثورة تبدأ دائماً بفترة التحفز وهدوء ما قبل العاصفة، ولا بُدّ أن يُثار

الكوخ الحقير الذي يلتصق في تداع بالجبل يتحامى في شموخه، لا بُدّ أن يثار مثل هذا الكوخ من القصر الرابض في قحة وتحدٍّ.

وقد ظهرت بوادر تلك الثورة وأُريقت أولى قطرات الدم النجس منذ بضعة أسابيع في هونج كونج تغسل بعضاً من العار والثأر.

والفلاح في هونج كونج يزرع الخضروات والفاكهة ومحاصيل المناطق الحارة ويربي حول كوخه الدواجن والخنازير. وبَدَهي أن كل نتاج تلك المزارع يذهب إلى القصر الأبيض الذي يقع على الربوة المطلة على الوادي، ومثل هذه الفيلات متناثرة في الريف تحكي في وضوح قصة الفوارق الطبقية والاستبداد والاغتصاب السافر لحقوق الإنسان المشروعة.

4

في "يوو" دخلنا الحدود الصينية لجمهورية الصين الشعبية، وكان في استقبالنا أعضاء وعضوات الاتحاد الديمقراطي لجمهورية الصين. ولست أدري ما الذي دفع إلى النفس الشعور بالاطمئنان والراحة وكأني دخلت أرضاً أعرفها من قبل. لعلها الابتسامة التي تعلو الوجوه في وُدٍّ يحمله متقبلونا بين أعينهم، أو لعله شعور المُجْهَد "الذي وصل أخيراً".

وعلى طول الطريق عبر رصيف المحطة إلى الاستراحة كانت هناك صور تحلي الجدران، رائعة ملونة في دسامة وغنى ألوان الحياة التي أمامنا. نراها متضافرة مع مجد الصين السالف العظيم. وكل الصور تمجد الأمومة والطفولة، والحصاد والسلام، فأي مجد، وأي روعة!

وفي الاستراحة كان طعام الإفطار في انتظارنا، وكان علينا أن نتناول -لأول مرة- طعاماً صينياً، المائدة حافلة بألوان شتى وبما لا يقل عن عشرين صنفاً كلها غريبة على ذوقنا السوداني.

وبدأنا نجامل وإن لم نستطع استعمال الشوكتين التقليديتين في تناول الأرز وخلافه. والصينيون يحبون الملح كثيراً فكل الأطعمة تكاد تكون مالحة ولا يخفف من حدة طعمها سوى الزيت الذي تُطهى به. فأكلنا وحاولنا أن يكون ذلك في تلذذ، وبعد الطعام.. بعد أن انتظرنا المضيفة للانتهاء من طعامها "فهم يأكلون كميات كبيرة من الطعام بعكس ما نفعل" أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، وكان طبيعي أن نسأل عن نوع الطعام الذي أمامنا، وسرعان ما وقفنا أمام مفاجأة. كانت الأطعمة كلها من نبات وحيوان البحر "المحار" -عقرب البحر- أبو جلنبو ثم نبات "المشروم" الذي ينمو في جنوب السودان بكثرة، والأطعمة المصنوعة منه تعد من ألذ الأطباق عند الصينيين- ولم أحاول الاستفسار عن باقي الأطباق فقد تنهار البقية الباقية من مقاومتي على الاحتفاظ بالطعام في أمعائي "المقلوبة".

وبدأت الرحلة من الحدود إلى بكين عاصمة الجمهورية الصينية وتستغرق أربعة أيام بالقطار شمالاً، نمر خلالها على أهم مدن الجنوب.

ومن هنا تبدأ المزارع التعاونية مباشرة عبر حدود الصين الشعبية.

ومن أمتع المناظر منظر الريف الصيني الغني بكل ألوان النباتات والزرع. فالجنوب ينتج الأخشاب من غابات الجبال، والقمح والأرز على السفوح وفي الوديان الخصبة ذات الري الطبيعي غالباً، فالماء ينحدر من عيون عذبة على الجبال حتى بطون الوديان. ونهر "اليانجس" الرهيب يمر بأجزاء واسعة من أراضي الجنوب.

وجنوب الصين من مناطق التعدين وأخصب أقاليم الزراعة كما يمتاز بالغابات الجبلية التي سن من أجلها قانون الأشجار عام 1950م ونظم بموجبه تقطيع الأشجار والإفادة منها وتحرم إتلافها أو قطعها بغرض إتلافها أو حرقها.

وكان ذلك عقب الانسحاب الأخير بجيش تشاين كاي تشيك أمام الجيش الأحمر وعندما صبت قواته الجوية قنابل حارقة فوق غابات جزيرة هينان جنوب كانتون.

وقد صاحبنا مزارع الأرز "الياري" الشاسعة على مسافة رحلة بالقطار لمدة أربعة أيام.

ويمر بأراضي الجنوب نهر اليانجس الجبار ذي الأذرع العديدة الرعناء. وقد كان الجنوب مهد انتصارات قوات الشعب. وأولى بوادر التطورات الإصلاحية تبرعمت في ولايات الجنوب.

فقد اتخذ منها الدكتور صن يات صن قاعدة لتحركاته الثورية إبَّان عمله كطبيب ثم كمصلح ثم كثائر عقب عودته من هونج كونج.

وكان يمارس مهنة الطب في كانتون مستغلاً اتصاله بالفلاحين. والفقراء وصداقته لهم في نشر تعاليمه الثورية.

وقد حكت ولايات الجنوب عن صن قصصاً خيالية تقارب الأساطير حول "ألوان يو لو" وعن صلابته العظيمة وثقته بالشعب.

وكان طبيعياً أن تتمركز نشاطات رابطة الثوريين الصينية التي أعلنت باسم وبزعامة دكتور صن أول جمهورية شعبية بعد جمهورية الستيج في 10 أكتوبر 1911م في كانتون وهونان ونانكين.

وقد تألفت الرابطة من الرأسماليين الوطنيين الذين نموا كطبقة مع بداية القرن العشرين وخلال الحرب العالمية الأولى وانصراف قوى الغرب وكانوا مناهضين لحكومة المانشو ومن البورجوازية الراديكالية الصغيرة ومن البورجوازيين والبورجوازية الوطنية بالإضافة إلى أعيان الهان، خصم أسرة تشنج الحاكمة. تكونت هذه الرابطة في عام 1905م وعند إعلان الجمهورية بويع صن يات صن رئيساً مؤقتاً لها.

فعلى إثر قيام حكومة المانشو بإصدار قرار تأميم حق بناء خطوط السكة الحديدية الخاصة في البلاد تمهيداً لرهنها للقوات الأجنبية أضرمت مظاهرات نظمها الطلبة والعمال في هونان وكوانتج الثورة في جميع أنحاء البلاد وكان التمرد لفترة كافية لإعلان مقاطعة بعد أخرى استقلالها عن حكم المانشو.

وفي 1912م تنازل آخر أباطرة الصين عن الحكم وكان الجنوب قد أعلن دستوراً مؤقتاً للجمهورية الجنوبية.

إلا أن الرابطة كانت تضم متناقضات متنافرة مما أوجد صداماً وتضامناً عنيفاً بين الجيش واليسار انتهى باستقالة دكتور صن يات صن في فبراير 1912م رغبة منه في الحفاظ على وحدة الجبهة الوطنية.

ولم تؤد هذه الانقسامات التي كانت سبباً في "مجرد فشلنا الثالث عشر" إلا أن مضاعفة صلابة الصخرة العتيدة.

واستمرت الثورة.

محاولة إثر الأخرى لبناء جمهورية ثورية صينية متخذة من هانكاو تارة ومن كانتون أخرى قاعدة ومركز انطلاق، تبلورت حول أهدافها جماهير الشعب مؤلفين حزب الكومتنانج أقوى الأحزاب الوطنية. وقد تحدد اتجاه الوطنيين بشكل قاطع: مناهضة الاستعمار والإقطاع والرأسماليين الخونة.

لقد أخذ الكومتنانج على عاتقه مهمة حمل صليب الشعب الذي لم يدع يوماً لا مبالاة مشؤومة تسيطر عليه وتصرفه عن أعدائه الحقيقيين من بعد كما كان من قبل.

5

كانتون عاصمة الجنوب

تقع كانتون في الجنوب الشرقي للصين وعلى الضفة الشمالية لنهر اللؤلؤ ولعل موقعها على مصب النهر نحو المحيط ما أكسبها أهمية استراتيجية وتاريخية بالغة.

وتمتاز كانتون بكونها عاصمة الجنوب وتهتم بصناعة السكر والحديد وبإنتاج الفاكهة والأرز والشاي والتبغ أيضاً.

أما أهميتها التاريخية فترجع إلى القرن الثامن عشر، بداية تجارة بريطانيا. وقد كانت كانتون من أكثر مدن الصين تعرضاً لهجمات القراصنة الأوروبيين والمقامرين والأفاقين. وعن طريق هؤلاء القراصنة تسربت آفة من أخطر الآفات التي رزئت بها بلاد الصين وهي تجارة الأفيون التي جرت على الصين حرباً كانت نتيجتها وقوع البلاد تحت سيطرة الاستعمار الطويل ولأول مرة في تاريخها العريق.

حرب الأفيون (1840 – 1842م)

كانت التجارة الخارجية محصورة موقوفة على ثغر بكين منذ حكم المانشو في عهد أسرة تشنج في القرن الثامن عشر. وقد استمرَّت تجارة الصين مع الغرب وأساساً: بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة حتى عام 1840م. وكانت بريطانيا تحتل الصدارة من تجارة الغرب مع الشرق الأقصى في القرن الثامن عشر. وقد غزت البضائع البريطانية أسواق الصين على نحو مطرد وخاصة المنسوجات. وكانت الصين تؤلف سوقاً واسعة لصناعة الغزل والنسيج البريطانيين الناميين.

ومن هنا خرجت بريطانيا العظمى لفتح الصين عن طريق شركة الهند الشرقية.

كانت بريطانيا تحتاج شاي الصين وسكرها في مقابل ذلك.

وكان الميزان التجاري لصالح الصين. فقد أصبح لزاماً على السفن التجارية تفريغ حمولتها مقابل مشترياتها من الصين.

وجاء الأفيون. ليحد ويجتث وبالنهاية -وفي القرن التاسع عشر- ليحول اتجاه الميزان. كان ذلك في عام 1781م وفي خمسين عاماً أخرى ارتفعت نسبة تجارة الأفيون مع الصين إلى 40 ألف صندوق.

وكان لا بُدّ للربح الفاحش من تلمس طريقه لتجارة أوسع من جانب التجار الأوروبيين، فتصدع الدخل القومي وتدهورت الأحوال الاقتصادية.

وكان أسوأ ما في الأمر تضخم رؤوس الأموال لدى تجار كانتون وموظفي الجنوب ما دعا حكومة المانشو إلى تحريم تعاطي الأفيون ومنع تجارته. وفي سنة 1839م أُرسل لين تسي هشو لمراقبة عملية المنع حيث صادر عشرين ألف صندوق من الأفيون أحرقها في كانتون، الأمر الذي جر على الصين أخطر حادث في تاريخها. فقد أعلنت بريطانيا الحرب إذ لم تحتمل الخسارة الفادحة.

وانتهت حرب الأفيون الأولى بانهزام قوات كانتون بأسلحتها القديمة أمام هجمات جيش بريطانيا الحديث الأسلحة والمعدات، ثم فرضت معاهدة نانكين 1842م أولى المعاهدات المجحفة التي وقعتها الصين مع دول أجنبية وبموجبها كان على الصين:

1- أن تعوض بريطانيا بواحد وعشرين مليون جنيه.

2- أن تسلم هونج كونج لبريطانيا.

3- أن تفتح موانئ كانتون، أموي، فوتشوتتيجيو، شانغهاي لتجارة الغرب.

4- اعتبار الرعايا الإنجليز فوق القانون الصيني.

5- سلب الصين حقها في تقدير ضرائب الاستيراد وتخفيضها إلى 5% الأمر الذي أضر باقتصاد الصين وصَدَّع صناعتها الوطنية.

وبالرغم من أن أمريكا لم تشترك في حرب الأفيون إلا أنها أرغمت حكومة مانشو Manchu في عام 1844م على إبرام معاهدة وانتيا التزمت بموجبها الصين بمزيد من الاعتبارات والامتيازات للرعايا الأمريكان وضرائب الاستيراد.

وفي نفس العام أيضاً أجبرت فرنسا مجلس مانشو على إبرام معاهدة مماثلة في وامبوا.

وبعد 15 عاماً من حرب الأفيون الأولى أعلنت بريطانيا الحرب بسبب استيلاء حكومة مانشو على سفينة صينية تحمل علماً بريطانياً. وقد انضمت فرنسا إلى جانب إنجلترا في حرب الأفيون الثانية (1856 – 1860م).

خرجت الصين من هذه الحروب بسلسلة معاهدات مهينة عرفت بمعاهدات تين نسن Tienisin 1- دفعت فيها الصين تعويضات باهظة 2- بالإضافة إلى إعطاء الأجانب حق استيطان بكين 3- امتيازات أجنبية من إعفائهم من الضرائب 4- قبول نشاط المبشرين 5- فتح مزيد من الموانئ. وعندما ماطلت حكومة مانشو في توقيع هذه المعاهدات اقتحمت القوات الفرنسية والبريطانية مدخل نهر اللؤلؤ وشقت البلاد حتى بكين حين دمرت يوان مينج يوان Yuan Ming Yuan قصر الصيف بعد أن نهبت كنوزه وسلبت نفائسه وأثرياته ثم أحرقت مبانيه. والذي يعرف مدى روعة الأبنية التي تتجلى فيها عبقرية وأصالة الفن والدقة الصينية عدا الكنوز التي لا تقدر بمال والتي كانت تنعكس حتى

على زخارف وتصميم القصر، يعلم مدى وحشية ودناءة هؤلاء القوم الذين كان على الصين الاكتواء بهم قرناً طويلاً.

وقد رأت كانتون التي شهدت ميادينها معارك الثوار وشهدت رؤوسهم تقطع وتعلق على الأعواد والتي شهدت صن يات صن متجولاً ومتخفياً ومطارداً رأت الجمهورية تعلن وصن يات صن يُنتخب رئيساً لها.

وشهدت كانتون تحول هذا النجاح الأغر إلى "مجرد فشلنا الثالث عشر".

وفي كانتون القاعدة التاريخية أيضاً قامت المحاولة الرابعة عشرة. وأطلق صن يات صن شعار الثورة الخالد. فلتقف الكتل والجماهير على قدميها ولتستيقظ لتقود الكفاح.

وأعلن أنه "فلاح ابن فلاح. ولقد ولدت وعشت بين الفلاحين والفقراء وما زلت فقيراً وسأظل كما أنا وكل عواطفي مع الجماهير الكادحة".

كان صن يعلم أن ذخيرة الصين الثورية بكاملها كامنة في ريفها وبين فلاحيها.

و"إذا كانت الثورة تحتاج إلى فلسفة فلابد من اكتشاف عقل الفلاح الباطن والظاهر".

وكانت فلسفة صاحب "ألوان لي تو" وأندر صلابة هي "لسان مين شوان" وأن "السين تشنج" لا مجدية بغير الفلاحين الفقراء الذين يؤلفون 80% من القاعدة الثورية.

وتحمل كُلٌّ من كانتون وبكين آثار هذا العدوان البربري. وقد كانت نافذة فندقنا في كانتون على ضفة النهر الهادي العريض التي تحمل ذكريات قاتمة بدخان الحرائق وعمليات التدمير العسكرية وما زالت

حيطان كلسية تقف بوجه مداخن وقمم مهدَّمة من حين قامت أكواخ الصيادين الصغيرة المتلاصقة في زحمة عن أقدام الأطلال وعلى النهر تزدحم القوارب الصغيرة مطوية الأشرعة بانتظار الرياح التي تشتهى. كان منظراً ذَكَّرنا بضفاف النهر عندما تجتمع فوقه القوارب المحمَّلة بالطوب والتبن والسلع بانتظار الرحيل عند ملتقى النيلين.

وما زال أهل كانتون يمتهنون حرفهم القديمة، مع إضافة فرحة العمل المستجدة مع ازدهار الصناعة والزراعة وانتشار التعليم والوعي وجميعها من ثمار الثورة التي قضت على آخر أسباب هوان الشعب وضياعه.

وفي كانتون أيضاً بدأت أولى تجاربنا مع الفنادق الصينية والكرم الصيني.

وقد اخترنا منذ البداية التزامل في الفرق وكنا رغم ذلك نتجمع في غرفة واحدة نتحدث ونتناقش ويصل بنا الأمر في النهاية إلى التنبه إلى أصواتنا وضجيجنا وقد جرح السكون المهذَّب الذي يحتوي الفندق.

وبدأت أيضاً صداقاتنا مع المرافقات الصينيات الرقيقات. كانت معنا طالبة جامعية وسكرتيرة الاتحاد النسائي الصيني في كانتون ومندوبة من مركزية الاتحاد مس تاي بي فونج التي كانت أول من عرفنا عبر حدود الصين الوطنية وأول وجه بعث الطمأنينة إلى قلوبنا المضطربة بابتسامتها الحنون الوادعة. وتاي بي فونج متخرجة من كلية الآداب بجامعة بكين فرع تاريخ، في الحلقة الثالثة، تملك معلومات فائقة عن الحزب والثورة والأماكن التاريخية والعادات والتقاليد الصينية ومجموعة لا تنفد من الأساطير الصينية. ومعلومات موسيقية وأدبية واسعة وكثيراً ما كنا نتناقش في ذلك ونحن في القطار إلى الشمال، من كانتون إلى بكين والذي قضينا به 4 أيام قصيرة مثيرة مليئة بما تملأ مجلدات من المشاهدات والانفعالات والانطباعات الحميمة التي لا تنسى.

المؤلفة: الأولى من اليسار جلوساً في كانتون

6

من الإقطاعيات إلى الكميونات

عندما تسلمت الثورة مقاليد الحكم في الصين الشعبية كانت أولى مشاكل الصين هي مشكلة الفلاح الصيني الوارث لأثقل تركة من الغبن والظلم والاستغلال اللاإنساني.

والفلاح الصيني من أعرف فلاحي العالم وقد تميز منذ آلاف السنين بإخلاصه الشديد للأرض وحبه لكل ذرة من تربتها وكل نبتة من

أعشابها، يعرف أسرارها ويملك الصبر على التحايل على استغلالها وحَلْب كل ما تملك من خصب.

ويقدر حبه وتفانيه لها بعد غدرها به وتجبُّرها عليه. وقد لقي في سبيل هذا الحب ومقابل هذا الإخلاص أعتى النكبات والكوارث مترادفة على ممر ألفين وخمسمائة عام. وقد استطاعت الثورة اختصار عذابات الفلاح الصيني ورد اعتباره الإنساني له في مدة زمنية لا تتعدى العامين ونصف العام. ومع التغلب على كوارث الريف استطاع الفلاح الصيني وقد امتلأت معدته، واكتشف وظيفة أخرى لرأسه غير الانحناء والمذلة وحَمْل هموم لا نهاية لها، استطاع مجاراة الوعي الدفاق والتجاوب مع التطور. بدا وعي اشتراكي طافح ومعه تقبل تلقائي متحمس للتعاون الزراعي الذي اتخذ شكلاً بسيطاً أولاً ممثلاً في فرق المساعدة المشتركة الموسمية مما أشبع البيادر الصينية على نحو طال العهد به، ومن ثم أخذت هذه الفرق في مواصلة العمل في غير المواسم ومنها بدأت أشكال أخرى من التعاون، منها التعاونيات الزراعية الشبه اشتراكية ثم التعاونيات الكاملة الاشتراكية "المزارع الجماعية".

وفي 1956م برغم إفساد الفيضانات لما يقارب 30 مليون فدان من الأراضي الزراعية وحدها، كان الحصاد أعظم ما عرفته مخازن المحاصيل الصينية من قبل. وكذلك كان دخل الفلاحين، لقد شمل الإصلاح الزراعي مناطق ريفية يبلغ عدد سكانها 350 مليون نسمة، وإحصائية ملكية الأراضي الزراعية توضح وضع الفلاحين الصينيين في حين ما قبل الثورة.

1- الإقطاعيون

"ملاك الأراضي" وتعدادهم 5% من سكان الريف، ويعيشون كطفيليات على عزم وكد الفلاحين، ويملكون 60% من الأراضي المزروعة إلى جانب وسائل استتراف أخرى كالضرائب.

2- ملاك أغنياء

"الفلاحون الأغنياء" يملكون أراض كافية بكامل آلاتها وحيواناتها، ويستأجرون مزارعين لفلاحتها، وهم أيضاً يتاجرون بعملية إقراض النقود للفلاحين الأُجراء بربى فاحش، يملكون 10% من الأراضي المزروعة ويؤلفون 5% من سكان الريف.

3- الفلاحون المتوسطون

يملكون قطعاً صغيرة يفلحونها ويستطيعون بجهد ملاءمة الأحوال وتجنب بيع أيديهم بالعمل في الإقطاعيات الأخرى وهؤلاء فئة تتضاءل باضطراد.

4- الفلاحون الفقراء

أكبر الفئات وأكثرها نمواً "يملكون شرائح من الأرض تكاد لا تذكر في بعض الأحيان" لا يملكون أدوات زراعية، يعرضون عملهم بالأجر في الإقطاعيات: في الحصاد أو الزراعة ويحصلون على أبأس الضروريات الحياتية ويعانون شظف سوء المعاملة والإهمال ويتضخم عدد هؤلاء من عام لآخر وهم غالباً يمثلون أكثر من 60% من سكانها ولهم

"الحق" في حيازة 18% من أراضيه وحسبا". ويسكننون غالباً في قوارب بائسة.

5- الأُجراء

وهؤلاء لا يملكون إلا مجهودهم وهم يعملون عاماً بعد عام لصالح ملاك الأراضي دون أمل في حياة أفضل. وهم فئة تتضخم من عام لعام أيضاً، ويتعرَّضون لاستغلال لا يُتصور، وفي أوضاع مهينة غالباً بغير أمل في عناية أو رحمة. وكان عمل عام كامل شاق ومرير وفي أسوأ الظروف يتمخض -بمهارة فائقة من جانب الملاك- عن لا شيء. ويتبخر الأجر بواسطة وسائل غاية في المكر واللصوصية، في غرامات واقتطاعات وجزاءات فادحة.

وهذه الأوضاع خلقت ذخيرة ثورية متفجرة في أي لحظة تلوح شرارة تلهب الوقود. وكان أن عنيت الثورة فيما بعد بتخفيف حدة اللهب والحرارة الباقيين "بمحاكم الشعب" التي كانت تعقد في العراء من الفلاحين أنفسهم، وتصدر فيها الأحكام ضد الملاك والإقطاعيين والمرابين. كان لا بد أن ينفس عن حقد آلاف السنين من القهر والاستبداد بمظهر -عادل- من التشفي والانتقام. وقد ساعدت محاكم الشعب هذه على حل مشاكل الإقطاعيين أنفسهم الذين، أما حوكموا وأعدموا جزاء عادلاً واعتبروا واعترفوا بوضعهم الجديد.

وكان هذا الإجراء أساساً ونقطة بدء لازمته ضمانات الأمن والحماية من جانب الدولة للفلاحين.

وبعدها تكونت جمعيات للفلاحين ونمت باطراد منظمة شؤونهم، من تخفيض الأجر واسترداد الحقوق المغتصبة. وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو الإدارة القروية، الخطوة التي أكسبت الطبقة المضغوطة من الفلاحين ثقة بمساوئهم -مع السادة القدامى وأحياناً بتميزهم عليهم.

جند آلاف الفلاحين من أطراف المدن ومن الريف لاستيعاب الخبرات العلمية في التعاون مع جمعيات الفلاحين في الإصلاح على نطاق كامل. وقد كان الإصلاح نفسه على أربع درجات.

أولاً: دراسة شاملة وعميقة في هسيانج "الهسيانج وحدة إدارية من عدة قرى" أو في قرية نموذجية داخل الهسيانج وذلك بالعمل المشترك بين الفلاحين، "وكادر" من الخارج لشرح سياسة الدولة وتحليل الوضع البائد، وكيفية إثراء الملاك على حسابهم، ومن هنا يستوعب الفلاحون مسألة الأحقية الأولى لامتلاك الأراضي بالمثل ما دام ثراء الملاك يعني فعلاً اغتصاب هذه الأرض عن طريق القوة أو اللصوصية من الفلاحين أنفسهم.

كذلك يعمل على توعية الفلاحين بكونهم يملكون تعضيد الدولة لهم في حين يفقد الملاك والسادة الإقطاعيون كل سند لهم. وكشف جميع أساليب الوكلاء والخونة الذين يفقدون بعض حيلهم في التسلل إلى أنظمة الفلاحين ومن ثم إقامة محاكمات للشعب Peoples Tribunals التي فيها القضاء على كل هيبة. ورهبة متعلقة بوجودهم وإعادة الثقة إلى قلوب الفلاحين.

ثانياً: تحليل الفئات.

ويحدد قانون الإصلاح الزراعي الفلاحين بخمس فئات:

1- ملاك الأراضي: وهم كل من يملك قطعة أرض يستغل في فلاحتها إجراءه (2) كل من أفلس من الملاك القدامى ما زال يحتفظ بمستوى معيشة أعلى من مستوى الطبقة المتوسطة من الفلاحين. (3) البيروقراطيون ووكلاء الملاك وعملاؤهم وهم المندوبون القدامى لدى الملاك بين الفلاحين، "هؤلاء لهم تاريخ مروع بين الأجراء".

2- الفلاحون الموسرون: وهؤلاء ينقسمون إلى ملاك لأراض تكفيهم، وآخرون لهم قطع صغيرة يستأجرون عليها قطعة أخرى. ويستغلون الأُجراء في فلاحتها.

3- طبقة الفلاحين الوسطى: وهؤلاء يملكون أراض يزرعونها، أو يستأجرون أراض يزرعونها أنفسهم أيضاً.

4- الفلاحون الفقراء: وهؤلاء يملكون أدوات للزراعة "وقطع صغيرة أحياناً" وهم يستأجرون أراض يزرعونها أحياناً ويؤجرون جهودهم في فترات موسمية.

5- الشغيلة: وهؤلاء لا يملكون سوى عملهم وهم يؤجرونه طوال العام. وينالون أجراً موسمياً من الغلة.

وبين هذه الطبقات بدأت الدعوة الأولى لتطبيق النظم الاشتراكية في الزراعة. وكما قلت بدء بفرق المساعدة المشتركة ثم تدرج ما بين عامي 55-56 "بعد خطاب ماوتسي في يونيو 55" إلى التعاونيات الشبه اشتراكية وهي المعتمدة على دمج الأدوات الزراعية بين مجموعة من المزارع وتنظيم العمل في ما بين أصحابها مع الاحتفاظ لكل منهم بمحصول أرضه. وفي الخريف من نفس العام تم انضمام 590 ألف مزرعة إلى التعاونيات مؤلفين مليون وربع تعاونية كانوا في الصيف 650 ألف هذا يعني انضمام 17 ألف أسرة من أسر الفلاحين "من بينها 97% من مجموع عدد النساء في الريف. وبالتطور المضطرد توافدت أعداد هائلة أخرى من النساء مما ضاعف الإنتاج وساعد على تطوير أوضاع النساء وكانت فرق لكادر لنساء الحزب الشيوعي يجندن منهن أعداداً كبيرة للمساهمة في الدعوة لنشر فكرة الزراعة التعاونية إلى جانب المساواة وتكافؤ الفرص والأجر المتساوي. وقد كانت هؤلاء "المجندات" يعادلن 89,5% من فرق "الجنود الزراعيين" هؤلاء.

ثم الجماعيات، وهي المزارع الاشتراكية تماماً وتدمج فيها أدوات الزراعة والحيوانات والأراضي وتقسم على نحو جديد يراه مجلس إدارة المزرعة، وهو منتخب من كل مزرعة وهذا المجلس يشرف على تقسيم الأراضي المزروعة ونوع وكمية المحاصيل طبقاً لسياسة الدولة العامة للإنتاج الزراعي كما يشرف مجلس الإدارة على بيع المحاصيل إلى بنوك مشترى وبيع المحاصيل. وهذه البنوك أو المخازن هي المندوب المسؤول من قبل الحكومة المركزية عن مشترى محاصيل الريف ولهذه المخازن فروع في كلٍ قرية لتسهيل عملية تصريف المحاصيل. ويتولى مجلس إدارة الزراعة أيضاً تحسين وسائل الزراعة باقتطاع نسب معينة من المحصول وشراء الأدوات الحديثة ما يقلل الجهود المطلوبة ويضاعف الإنتاج ويوزع الربح على أساس العمل وليس على مساحة الأرض. وهذه المجالس تشرف على الشؤون الترفيهية والأحوال الاجتماعية للمزارعين المجموعين. من ذلك دراسة أنواع السماد والبذور والعمل على تحسين الإنتاج وتطوير وسائله. وهي بذلك تشترك بشكل فعالية في تصنيع الزراعة بالصين.

والمزارع الجماعية لا تعني دمج جميع ما يملك الفلاحون من أرض. فلكل فلاح الحق في الاحتفاظ بقطعة خاصة من الأرض، له أن يزرعها ما يشاء ويربي عليها من الحيوانات والدواجن، وله الحق أن يبيع هذه المحاصيل من الخضروات والفاكهة والمنتجات في السوق وبالسعر الذي يستطيعه. فالدولة تحدد أسعار السلع في السوق وتترك للفلاحين تسويق بضائعهم بما يرون. وعلى ذلك فهنالك سعران أو ربما أكثر. ذلك أن وكلاء تجميع المحاصيل يحصلون على نسب مئوية من تلك المحاصيل. ومن هنا كان هناك ثلاثة أسعار، سعر المزرعة لمخازن مشتري الغلال، والسعر الذي يبيع به الفلاح منتجاته الخاصة.

ومعنى ذلك أن المستهلك يجد أمامه سعرين إلا أن ذلك لا يؤثر كثيراً إذ أن البضائع المعروضة لا تسد جميع حاجات المستهلك فيشتري بعد نفاذ الأولى ما يعرضه الفلاح.

وبعد ذلك تأتي درجة أكثر تقدماً نحو الاشتراكية وهي من النظم التي بادرت بتطبيقها الصين الشعبية وهي نظام كوميونات الشعب Communes People وإن كانت المزارع الجماعية تعادل الكلوخوز في الاتحاد السوفيتي وهي النظام الأكثر تقدماً في الزراعة فإن الكوميون تختلف عن أي نظام آخر في مكان آخر في العالم.

7

يقع البيت الكبير كما يسمى مكتب المزرعة في مواجهة القرية. وهو بناء مستطيل مبنيٌّ بالطوب المحروق ويقابلك مدير المزرعة ويُسمَّى بالمشرف وعلى مائدة مستطيلة كبيرة، بسيطة ونظيفة، يقدم لك الشاي الساخن بلا سكر على الطريقة الصينية، والفول السوداني الأخضر المسلوق ساخناً أيضاً، وحول المائدة يتحدث المدير عن تاريخ المزرعة. وهو نفس التطور التقليدي الذي مر به الريف الصيني. واسم المزرعة وان فوهاي.

وان فوهاي مزرعة تعاونية مساحتها 004، 7 ماو "الماو = فدان" تأسست عام 1953م عن فرق المساعدة المشتركة، أول أطوار الأسلوب المتطور في الزراعة. وقد انضمت إليها 128 أسرة من مجموع عدد أسر القرية البالغ عددهم 889 أسرة.

وفي سنة 1955م ارتفعت أنصبة الأعضاء نتيجة لازدياد محصول عام 1953م وانضمت إلى المزرعة 380 أسرة وفي 1956م انضمت جميع الأسر ما عدا ثلاثاً وكان مجموع الأراضي المستغلة 20 ماو مخصصة جميعها للخضروات، وأساساً لسد حاجة سوق بكين فيها، إلا أن

المساحة المزروعة من الأرض اتسعت مع تنسيق أعمال الفلاحين عن طريق الإدارة التعاونية وأصبح هناك 1000 ماو لزراعة الخضروات فحسب، بالإضافة إلى 3000 ماو لزراعة الأرز ولم تكن صالحة للزراعة من قبل. وقد نظَّمت الحكومة المركزية قروضاً كمساعدة لتنمية إمكانيات المزرعة. وقد طُوِّرت وسائل الزراعة البدائية الأولى والتي كانت تستترف قوى الفلاح وتطلب المزيد دائماً. ولم تكن حيوانات المزرعة كافية لمواجهة ازدياد الأرض الصالحة للزرع فكان لزاماً تطوير هذه الآلات فأنشئت طلمبات و20 بيتاً دافئاً لزراعة النباتات التي تحتاج لأجواء حارة و7 محاريث من ذات الحدين وعربتان "لوري" للمواصلات والنقل كما زيد عدد الحيوانات.

وهذه الأدوات ملكية عامة بين أعضاء التعاونية تستقطع أثمانها وتكاليف صيانتها من المحصول العام قبل توزيعه على الأعضاء لكل حسب أرضه.

ولوان فوهاي مشروع 7 سنوات كما لجميع التعاونيات الأخرى. وأهمية وان فوهاي تتأتّى عن ازدياد حاجة سوق بكين باضطراد للخضروات والفاكهة. وتقدم المزرعة في الوقت الحاضر القرع والطماطم والخضروات الأخرى، وعملية تطوير الزراعة وأساليبها في وان فوهاي لا تشمل الكم فقط وإنما الكيف أيضاً، فقد أصبح في الإمكان زراعة نوع من القرع طول الواحدة حوالي متر ونصف المتر، ويُسمى بالقرع العملاق. وقد رأينا أطفال الفلاحين يجلسون عليه وكأنه صخور ذهبية. كذلك أمكن استنبات نوع من الباذنجان المطعَّم بالطماطم والذي لا يحتاج إلى صلصة لطهوه. كما تزرع أنواع من الفاصوليا يبلغ طول القرن منها مترين.

ويشمل برنامج السنوات السبع للمزرعة تخصيص 800 ماو لبساتين الفواكه وسيتم هذا المشروع قبل عام 1962م إذ أمكن إنجاز زراعة 259 من هذه البساتين حتى الان من المشمش النقل. وقد

استعملت الآلات الميكانيكية منذ 1954م وهذه استخدمت في عام 1956م في حرث 1800 ماو.

وللتعاونية مجلس إدارة مكوَّن من مندوب عن المزارع المنضمة وأعضاء آخرين، ويشرف مجلس إدارة المزرعة على الخطة العامة ويضعها موضع التنفيذ. ومدير الإدارة بالتعاون مع مجلسه يقدم تقريراً عن أعمال وتقدم مشاريع المزرعة في اجتماعات للفلاحين تتراوح ما بين 3 و4 اجتماعات وأحياناً تزيد إذا رؤي، نسبة لأحوال طارئة، مناقشة وضع أو إجراء مطلوب. ويحدث هذا عادة في مواسم قلة الأمطار أو زيادتها أو فيضان ما قد يتطلب أعمالاً طارئة. ومن حق الفلاحين عزل أي عضو من المجلس ابتداء من المدير.

وتضع الإدارة برنامج المزرعة وتقسيم الأرض وفرق العمل وتحدد نوع المحاصيل المراد زراعتها بعد الرجوع إلى الخطة العامة للحكومة المركزية.

ومزرعة وان فوهاي تحدد محاصيلها تبعاً لهذه الخطة العامة. ويفيد الفلاحين من وجود المزرعة قرب بكين لزراعة الخضروات التي يحتاجها السوق في بساتينهم الخاصة أيضاً وهذه قطعة أرض صغيرة يمارس فيها الفلاح جميع حقوق الملكية الفردية من ميراث وبيع وخلافة ويربي عليها من الدواجن ما يريد ويزرع فيها الخضروات والفاكهة وله الحق في تسويق هذه المحاصيل بالسعر الذي يستطيعه. ويقسم العمل في المزرعة بين فرق لكل نوع -تربية الدواجن -وغرس أشجار الفاكهة -وزراعة الخضروات -وفرق لأعمال البناء وأخرى مسؤولة عن إدارة الأدوات الميكانيكية والإشراف عليها والطرق والقنوات.

وأخيراً فالإدارة مسؤولة عن تسويق المحاصيل ببيع الجزء المحدد للدولة بالسعر المحدد وتبيع الباقي في السوق الحرة، ومن هنا جاءت إمكانية وجود ثلاثة أسعار للسلعة الواحدة. وتوزع أجور الفلاحين لكل حسب عمله في التعاونيات المتقدمة والأجر يدفع في وحدات عمل هي

عبارة عن كمية الجهد لإنجاز عمل ما، وقد تُساوى في ذلك يوم المرأة مع يوم الرجل فقد كان كل يوم كامل من العمل الذي تقوم به المرأة في الحقل يساوي نصف يوم عمل للرجل، معنى ذلك أن اشتراك أي عضو في أسرة قروية في المزرعة بعمله يعني زيادة دخل الأسرة على خط متساو مع جميع الأفراد الآخرين بالإضافة إلى زيادة إنتاج المزرعة. وقد كان ذلك سبباً في إقبال النساء جميعاً على العمل في التعاونيات واكتساب المساواة بالممارسة.

وإذا نظرنا إلى الحال التي كان عليها الفلاح قبل التحرير رأينا الفارق بين أن يملك تناول وجبة من أرز على الأقل يومياً في حين لم يكن يستطيع ذلك إلا في المواسم "وهو الغذاء الرئيسي" وبين أن يملك حذاءين أحدهما للعمل والآخر ليوم السوق والأحد، وأن يستطيع امتلاك بذلة جديدة كل سنتين ومعطف كل ثلاث سنوات، وبين ألا يملك حتى خرقاً قديمة ليعالج رقع ردائه الممزق.

وعلى الرغم من أن شمال الصين يزرع القمح فقد كان الفلاح لا يجد وجبة من الدقيق إلا في راس السنة وعيد ليلة القمر.

كان متوسط دخل الأسرة عام 1949م يبلغ 442 ين، أو 5500 قدح. وفي سنة 1956م بلغ 600 ين، أو 700 قدح. وقد كان أعلى دخل أسرة مكونة من رجلين وامرأة 1400 ين.

ويضيف المدير أن النظام الذي يقترحه الرئيس ماو يضمن ارتفاع مستوى 90 في المائة من الأسر وليس هذا وحسب فإن بإمكان التعاونية في سنة 1962م الاستعانة بأربعة خبراء أخصائيين Specialists ما يضيف إلى إمكانية زيادة الإنتاج وارتفاع الأجور ومن ثم ارتفاع المستوى المعيشي للفلاحين.

الكميونات

الكميون الجديد

رغم أني قد زرت الصين قبل نظام الكوميون إلا أنه لا بُد من ذكر شيء عنه ولو كان قليلاً مقتضباً إذ لا يستقيم الحديث عن الصين دون ذكر الكوميون، هذا النظام الجديد الذي دفع بالصين خطوات جبارة للأمام. وأرجو أن يعذرني القارئ لهذه الإشارة العابرة إذ أن الكوميون يستحق كتاباً بأكمله ولكن ما يطمئنني أن موضوع الكوميون الصيني قد حظي بنقاش واف في كثير من الصحف في العالم العربي وغير العربي ما يجعل للقارئ العربي فكرة عن هذا النظام الجديد الذي ابتدعته الصين والذي كان مجالاً لنقاش واسع النطاق في المجتمع الاشتراكي والرأسمالي على السواء.

ولنترك المسائل النظرية جانباً ونأخذ أحد الكوميونات كمثال حي لنعرف ماهية الكوميون والفائدة التي تعود منه على الصين.

ها نحن وجهاً لوجه أمام الرفيق لي وهو مسؤول عن إدارة كوميون كوشنج شمال غرب مدينة شان –شاو على ضفاف النهر الأصفر، إن الرفيق لي يخبرنا بأن هذا الكوميون به مائة وثلاثة عشرون قرية وأحد عشر ألف عائلة يبلغ تعداد أفرادها خمسة وأربعين ألفاً وبالكوميون مائة وأربعة وخمسون ألف مور أي حوالي عشرة آلاف هكتار من الأرض صالحة للزراعة.

ونتلفت حولنا فنجد أن المحصول الرئيسي من هذا الكوميون هو القطن فإن خمسين بالمائة من الأرض المزروعة يزرع فيها القطن. وأما بقية الأرض فتزرع خضروات وغلالاً للطعام.

ونعرف من الرفيق لي وبعض الفلاحين أن هذا الكوميون قد تأسس عام 1958م وعلى التحديد في شهر أغسطس من ذلك العام. فلا

بد لنا من نظرة إلى الوراء ولو كانت نظرة سريعة خاطفة لحال هؤلاء الفلاحين الذين يعملون هذا اليوم في الكميون. فقبل التحرير كان هؤلاء الفلاحون يعيشون حياة غاية في البؤس. لقد كان أغلب الفلاحين لا يملكون أرضاً. كانت الجماهير العريضة تعمل من أجل مُلاك الأراضي وكان ما يناله الفلاحون مقابل عملهم لا يكفي لطعامهم بل ولا نبالغ إذا قلنا إنّه لم يكن يكفي مجرد دفع الضرائب للكومنتانج الرجعيين. كان الفلاحون يقتاتون الحشائش البرية هذا إذا كانت الطبيعة حنوناً ورؤوفاً بهم ولكنها بالطبع لم تكن دائماً هكذا فـــ"منذا" يتحكم في الطبيعة وهو لا يتحكم حتى في مصير نفسه؟ ففلاحو الصين لم يكونوا قد أعتقوا أنفسهم بعد من عبودية الإقطاع فإذا قَسَت الطبيعة لم يكن أمامهم غير الدعاء لتغيير الحال وانتظار الغوث من السماء. وهذا في كثير من الأحيان لا يأتي في الوقت المناسب.

ولهذا ليس غريباً أن يتذكر فلاحو هذا الكوميون ولاسيما الكبار منهم –أقول ليس غريباً أن يتذكروا عام 1942م برعب شديد فقد كان ذلك العام عام جفاف بخلت فيه السماء بالأمطار فماذا كانت النتيجة؟ إنهم يحكون بتحسر بالغ أن خمسة آلاف من الفلاحين قد هربوا خلسة فارين بجلودهم من وطأة الجوع كما أن ثلاثة آلاف منهم قد أتت عليهم المجاعة فلاقوا حتفهم على يد الجوع القاسي. ولم يكن هنالك من يهتم بإرسال الطعام إليهم أو يمد لهم يد المساعدة ولذا يخبرك بعضهم وعيونهم تترقرق بالدموع أنهم قد باعوا ألفاً وثلاثمائة من أبنائهم إلى ملاك الأراضي. وكان الطفل يباع مقابل حصة بسيطة من الحبوب. وبيع بعضهم في أماكن أخرى ليكونوا عبيداً فيما بعد. وهكذا نرى أن حياة الكتل العريضة كانت غاية في الشقاء والتعاسة.

ولكن المصائب لا تأتي فرادى فقد جاء أيضاً المعتدون اليابانيون وقتلوا عدداً كبيراً من الفلاحين وأحرقوا كثيراً من المنازل فقد قتلوا أكثر من ستين بالمائة من سكان إحدى القرى بما فيهم لوردات الأرض

والكومنتانج أنفسهم وقد لمس طرف العدوان الكومنتانج أنفسهم نتيجة لسياسة عدم المقاومة التي اتخذوها شعاراً لهم فعلى نفسها جنت براقش. ولكن الفلاحين بنضالهم البطولي بجانب جيش التحرير أحرزوا النصر الذي كان لا بُدّ منه.

وبعد إنهاء الحكم الرجعي كان أول الأعمال هو الإصلاح الزراعي والقضاء على الطغاة المحليين وكانت هنالك صعوبات جمة. ولكن التاريخ أخذ سيره الطبيعي فكونت فرق المساعدة المتبادلة وهكذا تكوَّن من هذه البقعة ثمانمائة وسبعة عشر فريقاً للمساعدة المتبادلة. وقدمت أدوات الإنتاج من قبل الحكومة وزادت حصة القطن المزروعة. وكانت هذه هي البداية.

ومع تطور الزراعة وعلى التحديد في عام 1953م كانت هناك في هذا المكان الذي نتحدث عنه تسعة آلاف وأربعمائة وستون جمعية تعاونية هي تعاونيات الفلاحين. والفرق في هذه الخطوة الثانية هي أنه الجزاء على العمل وعلى الأرض. ففي الفرق التعاونية الأولى كان الفلاح ينال نتاج أرضه أما في التعاونيات الجديدة فينال الفلاح دخله وفقاً لأرضه ولعمله أيضاً: وهكذا نرى أن مسألة العمل قد دخلت في الموضوع فلم تعد المسألة مسألة ملكية الأرض فقط والتي وزعت على الفلاحين بتطبيق الإصلاح الزراعي بل دخل عامل آخر هو العمل.

وفي عام 1956م صارت هذه الجمعيات منضوية تحت لواء سبعة وعشرين تعاونية من نوع متقدم لا يحسب فيه للأرض حساب بل للعمل فقط. وزاد الإنتاج سنة بعد سنة حتى إذا أطل عام 1958م نجد نظاماً إنتاجياً ضخماً آخر يبدأ، وهذا هو كوميون الشعب.

أما فكرة الكوميون فقد نبعت من الجماهير نفسها: إن الفكرة لم تأت من فوق بأمر حكومي أو حزبي وإنما نبعت من تحت من الجماهير أنفسهم –هذه الجماهير التي حررت نفسها فبدأت تطبق ما للجماهير من مقدرة خلاقة وإبداع مدهش. فقد لاحظ الفلاحون من خبرتهم

تفوق العمل الجماعي فابتدع الفلاحون في مدينة هونان نظام الكوميون فدرسه القادة وفحصوه وجعلوه نظاماً عاماً لكل الصين. والكوميون عبارة عن عمل يقوم به عدد هائل من الفلاحين في كل القرى المنضوية تحت لوائه: ولا يقوم أعضاؤه بالزراعة فقط إنما هنالك تقسيم للعمل بينهم يعطيهم نوعاً من الاستقلال الذاتي عن المدينة والاكتفاء الذاتي مع دفع حصة من إنتاجهم للحكومة المركزية. ويشرف الكوميون لا على الزراعة أو تقسيم العمل فقط كحياكة الملابس مثلاً بل يشرف على التعليم والصحة ويشرف على جيش أيضاً هو جيش الكوميون. وهكذا يتضح لنا أنه يختلف عن التعاونيات الزراعية القديمة.

ووجود هذا العدد الضخم في كوميون شعبي واحد حل كثيراً من المشاكل. فمثلاً كان حفظ الماء في الماضي من المشاكل الرئيسية التي تواجه المزارعين وقد رأينا كما سبق أثر جفاف عام 1942م على الفلاحين أما اليوم فإن حل هذه المشكلة أصبح في يد الجماهير حيث يستطيع عدد هائل كعدد أفراد الكوميون أن يبني خزانات للحياة وسدوداً تساعد في الزراعة. بل وأحياناً تقام مثل هذه المنجزات الضخمة في أوقات فراغ الفلاحين وأعضاء الكوميون لوفرة الأيدي العاملة. ولهذا دائماً ما نسمع في الصين أن هذا السد الهائل أقيم في كذا شهر وذاك الكبري أقيم في كذا شهر وكل هذا نتيجة نظام الكوميون. ففي هذا الكوميون الذي نتحدث عنه نجد خزاناً ضخماً للمياه في أعلى التلال. ونجدهم قد حفروا الآبار وأقاموا النوافير ففي هذا الكوميون توجد ألفان وثلاثمائة بئر منها مائتان وسبع عشرة يعملن بالآلات كما ونجد البرك قد جفت بواسطة آلات التجفيف ونجد أربع محطات دافعة للمياه ومائة واثنتي عشرة قناة لري الأرض. وهكذا حلت مشكلة الجفاف ومشكلة الفيضانات لوفرة الأيدي العاملة بالكوميون.

وهكذا نشهد تغيرات ضخمة لم يحلم بها الفلاحون قبل ذلك فقد كانوا في الماضي فقط يرفعون أيديهم بالابتهال إلى الله من أجل المطر

فنجدهم الآن قد اتجهوا إلى الأرض نفسها يزيدون من حصتها الإنتاجية منهم يستعملون السماد بكثرة كما أن المحراث الذي كان لا يغوص أكثر من خمس بوصات في الأرض قد استبدل بالتراكتور الذي يغوص في الأرض بعمق متر تقريباً فنجد في هذا الكوميون عشرين تراكتور ونجد آلات الحصاد وغيرها من آلات الزراعة بل والبذور نفسها أصبحت تختار من أجود الأنواع.

كل هذه الإمكانيات أدت إلى الحماس المنقطع النظير للعمل وإلى المبادرة في تطوير الزراعة بل وتلخيص الخبرة حتى يستفيد منها جميع المزارعين. ونجدهم يهتمون بالأرض والسماد والحبوب وتنظيم الري اهتماماً بالغاً. وكل هذا ما كان ليأتي لو لم يكن الفلاحون متحمسين وهكذا يرتفع مستوى الإنتاج وإنتاجية الأرض فقد كان المور الواحد في الماضي ينتج 155 كاتي أي قبل التحرير، أما في عام 1957م فقد صار يغل 250 كاتي، وفي عام 1958م ارتفع إلى 496 كاتي، هذا بالنسبة للحبوب. أما بالنسبة للقطن ففي عام 1949م كان المور ينتج 23 كاتي، وفي عام 1957 ارتفع إلى 46 كاتي، وفي 1958م إلى 80 كاتي "2 كاتي = ا كيلو".

فليس من الغريب إذن أن يرتفع مستوى المعيشة في الكوميون باطراد فقد كان متوسط الدخل قبل التحرير 30 ين. وكثيرون من فقراء الفلاحين لم يتمكنوا حتى من مثل هذا الدخل. وأصبح متوسط الدخل الفردي عام 1957م، أصبح 60 ين، وفي عام 1958م أصبح 77 ين.

هذا ونلاحظ في الكوميون محاولات جادة لتحطيم الفوارق بين المدينة والريف هذا الهدف النبيل من أهداف الاشتراكية العلمية فإننا نجد الحكومة قد أقامت في هذا الكوميون واحداً وعشرين مصنعاً كبيراً وصغيراً وورشاً لتصليح الآلات الزراعية بدلاً من حملها للمدينة لإصلاح عطبها. ونجد مصنعاً للمأكولات المحفوظة المعلبة ومصنعاً للنبيذ والخمور ومصنعاً لإنتاج السماد ومكنات الخياطة والطواحين والمحالج الضخمة.

كما نلاحظ أيضاً تحطيم هذه الفوارق بين الريف والمدينة في الميدان الثقافي ورفاهية الشعب. فنجد في هذا الكوميون تسع مدارس ثانوية منها خمس يديرها الكوميون و لم تكن هنالك مدرسة ثانوية واحدة قبل التحرير. ونجد هنالك خمس مدارس ليلية وإحدى عشرة جامعة شعبية مختلفة من أجل تعليم سياسي وتكتيكي ونجد فيها النساء والرجال الكبار والصغار. كما نجد فريقاً للأفلام يعرضها في شتى أنحاء الكوميون. ونجد ثلاثة مراكز للإذاعة في الوحدات الإنتاجية كما أن الإذاعة تساعد في الاجتماعات العامة إذ أن الكوميون ضخم كما يستعان بمكبرات الصوت في ذلك. أما الكادر الذي يدير الكوميون فيتناقش عادة بالتلفون لضخامة الكوميون. كما نلاحظ العناية بالصحة أيضاً، ففي هذا الكوميون مثلاً تنتشر الشفخانات ومراكز الصحة.

وهنالك ظاهرة جديرة بالتأمل وهي مسألة مجانية الطعام في الكوميون فأعضاء الكوميون يأكلون بدون بدل. وهذه المسألة كثيراً ما تثير النقاش النظري. فالمعروف أن قانون المجتمع الاشتراكي هو من أكل حسب مقدرته ولكل حسب عمله. ولكن نجد مسألة الطعام تختلف قليلاً ففي إمكان أي فرد أن يأكل طبقين من الطعام مجاناً في أحد مطاعم الكوميون وإذا أرادت أي عائلة أن تطبخ طعامها بمنزلها فيمكنها ذلك بأخذ حصتها مجاناً أيضاً. فنحن نرى هنا أن الكوميون يعد دخلاً للطعام إذ تتكلف إدارة الكوميون بإعطائه مجاناً للأعضاء. ونجد بعض الناس ينقدون ذلك بقوله: كيف يأكلون طعاماً جاهزاً في مطعم الكوميون ولا دخل لذوقهم فيه؟ والحقيقة أن بالمطعم مأكولات متنوعة يستطيع الفلاح أن يختار من بينها.

أما إذا أراد جعة مثلاً بعد الأكل فهو ذو مرتب يستطيع أن يشتري منه كما يشتري الكماليات الأخرى. كما أن هنالك من يهولون هذا في الموضوع فيقولون إنه نظام المجتمع الشيوعي حيث من كل حسب مقدرته ولكل حسب حاجته. ولكن نعلم بالطبع أن الصين لا تزال في

مرحلة الاشتراكية ونجد مجانية الطعام في الكوميون توصف في اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني في اجتماعها الثامن 1959م توصف بأنها مكافأة نوعية بدلاً من مكافأة مالية ولا توصف بأنها من مميزات مجتمع شيوعي أو شيء من هذا القبيل. غير أن الكوميون يساعد بالطبع في تطور الصين نحو المجتمع الشيوعي في المستقبل.

فمجانية الطعام نوع من الضمان الاجتماعي كما يقول الرفيق لي المسؤول عن هذا الكوميون. فقبل التحرير كان الناس يتهيبون ويجزعون من مسألة الأكل أما الآن فكل إنسان مطمئن من هذه الناحية. كما أن مسألة الأكل تساعد في الإنتاج فلا أحد مثلاً سيصرف مرتبه في كماليات أو خمر مثلاً ويتجاهل مسألة الأكل لأن الأكل مجاني فهو يأكل على أية حال مهما بدد دخله. كما أن مسألة الأكل بالمجان لا شك تعود بأكبر الفائدة للعائلات الكبيرة فلا يضطر رب الأسرة لإطعام أفواه كثيرة بل يطعمها له الكوميون. وهكذا تحل مشكلة من أكبر المشاكل في الصين. إن المرء عندما يقارن هذا الوضع بما كان قبل التحرير أيام كانت الجماهير في الصين تموت جوعاً فإنه لا شك سيعيش في جو أسطوري وأقرب إلى الخرافة والأسطورة منه إلى الواقع، ولكنه يراه واقعاً أمام عينيه ويشهده أمامه وهذا لا شك أيضاً فرق ضخم بين نظام الكوميون والجمعيات الزراعية التي سبقته.

التعاونيات كانت تهتم بالزراعة فقط أما الكوميون كما رأيت فهو يهتم بالصناعة والثقافة والتعليم ويهتم بالغابات وصيد الأسماك وتربيتها في أحواض،.. إلخ، وبه طعام مجاني.

وللكوميون إدارة تشرف على هذه النشاطات المختلفة. فنجد في هذا الكوميون الذي وصفناه الآن واتخذنا مثلاً نجد مجلس إدارة مكوناً من 35 شخصاً ينتخب من بينهم 6 مديرون ونواب مديرين. ونجد من هذا الكوميون خمس مصالح (1) الزراعة والغابات والماء (2) الصناعة والمواصلات (3) الثقافة والتعليم والترفيه (4)الاقتصاد والتجارة (5)

الإشراف العام بما فيه الجيش. وهؤلاء يضعون خطة العمل العامة ويرفعون توصياتهم للحكومة وهم مسؤولون أمام مؤتمر الكوميون الذي هو السلطة العليا في الكوميون. وكل هذه المجالس والإدارات بالانتخابات العامة لا بالتعيين.

وتجد الحكومة المركزية تمد الكوميون بالفنيين وتساعده للتغلب على الصعاب وبتوجيهه وفق الخطة الاقتصادية العامة، كما نجد الطلاب يساهمون في العمل في العطلات وفق السياسة التعليمية الصينية التي تربط الثقافة بالعمل حتى لا تكون مجرد نظريات مجردة. وفي هذا أيضاً تربية للطلاب حيث لا يحتقروا العمل اليدوي أو الجسماني كما يفعل المثقفون في كثير من الأقطار. ونجد بعض الطلاب يجمعون القصص ويكتبون تاريخ بعض المناطق التي يزورونها.

وهذا الكوميون الذي أخذناه مثالاً ما هو إلا صورة مصغرة للريف الصيني بأكمله فقد عمم نظام الكوميون اليوم في كل الريف الصيني وفي عام 1959م بدأت تجربة كوميون بمدينة جانجو وستعمم التجربة حتى تصير الصين كلها عبارة عن كوميون كبير فلا يقتصر نظام الكوميون على الريف فقط بل يعم المدن أيضاً وتتكسر الحواجز بين المدن والقرى أكثر وأكثر.

وقد خطا نظام الكوميون بالاقتصاد الصيني خطوات عظمى إلى الأمام ولعب دوراً حاسماً فيما يسمى بالقفزة الكبرى التي بدأت عام 1958م. واستطاع الشعب الصيني بفضل الكوميون أن يتمم منجزات ضخمة من خطة السنوات الخمس الثانية (1958 –1962م) تحت شعار خط الحزب الشيوعي الصيني العام: ألا هبوا جميعاً وليكن هدفكم عالياً واحصلوا على نتائج أعظم وأسرع وبأقل تكاليف لبناء الاشتراكية. وقد كان عام 1958م بحق عاماً مجيداً فالإحصائيات تدل على أن حصاد غلال 1958م قد وصل 500,000 مليون كاتي أي 250 مليون طن، وهو يسجل زيادة 35% عن عام 1957م. كما أن كمية القطن التي جمعت

كانت 42 مليون تان أي 201 مليون طن أي بزيادة 28% عن 1957م. بل ومن الـــ11,080,00 طن من الفولاذ والتي أنتجت عام 1958م كان بينها 3,080,000 بالطرق الشعبية وكفت احتياجات الريف. أما الفولاذ الذي أنتجته المصانع فقد كان 8 مليون طن أي بزيادة 49,5% عن إنتاج عام 1957م الذي كان 5,350,000 طن. ولكن نسبة لأنه هنا قلة في الأيدي العاملة في الزراعة فقد اقترح عام 1959م أن تُترك مسألة إنتاج الفولاذ بالطرق الشعبية في الريف للسلطات المحلية لتقرره وفقاً للظروف المحلية وألا يكون من الخطة الاقتصادية العامة التي تضعها الدولة. وهكذا نشهد هذا التمازج القوي بين الصناعة والزراعة فالكوميون يفيد الصناعة، والصناعة تعود لتفيد الكوميون ويركز الصينيون على الصناعة والزراعة في وقت واحد وهو ما يسمونه المشي على رجلين وتجدهم يستعملون هذا التعبير في شتى نشاطاتهم. ويربطون ربطاً وثيقاً بين الميادين الاقتصادية المختلفة ويستفيدون من أخطائهم ويتقدمون للأمام حتى يتموا في عشرة سنوات شعارهم المعروف "الحقوا ببريطانيا في الإنتاج الصناعي الرئيسي في مدة خمسة عشر عاماً ولإتمام برنامج الاثني عشر عاماً لتطوير الزراعة والذي ينتهي عام 1967م".

وإذا أخذنا أرقام النصف الأول من عام 1959م تأكدنا من أن الصين قمينة بالقيام بهذا العمل النبيل وتنفيذه. فإن الصناعة مثلاً قد زادت في هذه الفترة ب 65% من الفترة المماثلة من عام 1958م عام القفزة الكبرى للأمام. ووصل الحديد 905 مليون طن والفحم 174 مليون طن وقاطعات الحديد صار عددهن 45,000 وحده. وفي كل حالة من هذه الحالات زاد الإنتاج بأكثر من ضعف الفترة المماثلة من عام 1958م. والفولاذ "ناقصاً ذلك الذي ينتج إنتاجاً شعبياً بطرق متأخرة" صار 507 مليون طن أي بزيادة 66% عن عام 58. أما القطن فقد وصل 4,147,000 باله، والسكر 780,000 طن وكلاهما سجل زيادة 40% من فترة عام 58 عام القفزة للأمام.

إن هذه الأرقام شاهد على تقدم الصين ولهذا فمهما حاول الاستعماريون وخدمهم الوضيعون تشويه خط الصين العام لبناء الاشتراكية والقفزة الكبرى والكوميون الشعبي فانهم يتجرعون أبداً كأس الهزيمة المر. فإن القوى الكامنة في الشعب الصيني تتضح وتكشف عن نفسها أكثر من أي وقت مضى. فالشعب الصيني لم يقفز إلى الأمام فقط عام 1958م ولكنه يظل يقفز كل عام: وكوميون الشعب لم تتعمق جذوره من الأرض الصينية فقط بل يكشف عن فضائله كل يوم. فالاستعماريون وأعوانهم في كل مكان سيظلون يعملون على تشويه الحقيقة وقد قرأنا نحن هنا بالطبع تشويههم للكوميون وإظهار تفكك الروابط العائلية فيه بل وعيش أعداد ضخمة في منزل واحد كما جاء في التايمز وهذا كله هراء تكشفه الحقيقة وزيارة الصين التي تفتح أذرعها لمن يود أن يزورها. وهذا العويل من جانب الاستعماريين لا يزيد الشعب الصيني إلا إيماناً بما يعمل ويرفع من حماسه الثوري إلى مستوى أعلى وأعلى، ويجعل كل الشعب الصيني وقومياته المختلفة تمسك بقوة وفهم راية الخط العام وتعمل من أجل الهدف الاشتراكي ليس بثبات وحسب بل وبقفزات وطفرات. وكل الظروف مهيأة لذلك. ففي الداخل يزداد الإنتاج الزراعي والصناعي. والكوميون الشعبي يتطور على أسس أكثر ثباتاً وتقدماً، وحماس الفلاحين في ارتفاع مستمر ووحدة الشعب وقومياته المختلفة تزداد كل يوم. والعلوم والثقافة والتعليم تزدهر. وعالمياً نجد الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي تزيد قوة ووحدة ونضال الشعوب المستعمرة والمستغلة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية يلتهب يوماً بعد يوم بينما تزداد مشاكل الدول الاستعمارية في داخلها ويزداد التناقض بينها يوماً بعد يوم.

فكل الظروف مهيأة والشعب الصيني يعمل بحماس منقطع النظير يستحثه تقدم الصين فكل صيني يعمل بوعي فهو يعلم أن ازدهار اقتصاد الصين يعود عليه هو بالنفع في المستقبل القريب وكذلك يجعل الصين في منعة وقوة تجعل الاستعماريين يحسبون ألف حساب لها فلا يجرؤون على

تعكير صفو ما تقوم به من بناء سلمي. لهذا ليس غريباً أن الكثيرين يرفضون الخروج من المصانع حتى بعد ساعات العمل ويخرج بعضهم بالقوة حتى يرتاحوا. أليس هذا حماساً منقطع النظير؟ ومع هذا يقول المستعمرون إنهم مجبرون للعمل. إن الاستعماريين أنفسهم غير قادرين على إرغام مليون عامل على العمل فالعمال يضربون في الدول الرأسمالية فكيف تستطيع أي قوة أن تجبر أكثر من ستمائة مليون صيني ليعملوا! إن الشعب الصيني قد كسر جميع القيود ولهذا فهو يبني الصين الجديدة بحزم وعزم والناس في الكوميون يشمرون عن أيديهم ويروضون الأنهار والجبال والأرض. كم هو مثير أن ترى مئات الألوف يعملون من أجل ترويض النهر الأصفر فلو رأيت ذلك في فيلم لأثارك الحماس الذي يعمل به الناس وسترى صراع الإنسان مع الطبيعة في أروع صورة –هذا الصراع مع الطبيعة يشهده الإنسان اليوم في الصين في أي مكان بل وأصبح الأدب الصيني يصور ذلك وتجد مثلاً تجسيم الطبيعة في الأدب فيتحدثون عن النهر الأصفر وترويضه بأنهم يروضون دراقون هذا الوحش الذي كلما قطع له راس قام راس آخر ولكنهم قد روّضوه فصار لا يغرق القرى كما كان في الماضي. فالأدباء يجسمون الطبيعة لإثارة الحماس الذي يعود بالنفع للشعب لا مجرد تجسيم للجمال الفني كما يفعل شاعرنا أبو نواس مثلاً عندما يتحدث عن الخمر فيقول "لها مرح في كأسها وثوب" بل تجسيم للطبيعة لإثارة الحماس لجعلها في خدمة الإنسان.

وبالنسبة لبناء الصين فإن فضائل الكوميون تظهر نفسها كل يوم ففخامة الكوميون الشعبي ونشاطاته المختلفة تجعله يستطيع عمل خطة للإنتاج والتوزيع في وحدة متكاملة بالنسبة لكل الكوميون. ويستطيع أكثر من الجمعيات التعاونية، أن يستفيد إلى أقصى حد من توزيع العمل في المناطق الريفية وأن يقيم منشات لا تستطيعها التعاونيات ويمكن أن يفيد في التطور السريع للزراعة والغابات وتربية الحيوانات والأعمال الجانبية وصيد الأسماك وأيضاً في الصناعة والزراعة والتجارة والتعليم

والجيش وتصنيع الزراعة وزيادة دخل الفلاحين وتطوير الحياة في الريف بوجه عام. وعلى هذا فإننا نجد أن الكوميون الآن يتطور بعنف إلى الأمام فهو يقوم بالزراعة والصناعة والتجارة والتعليم وشؤون الجيش الأمر الذي جعل إدارة الكوميون والحكومة شيئاً واحداً. كما نجده يصحح أخطاءه ويستفيد من تجاربه فمثلاً في بداية نظام الكوميون كانت هناك بعض أخطاء مثل المركزية الأكثر من اللازم والتبذير في الإدارة ولكن هذه الأخطاء تغلب عليها بسرعة فائقة وتسير الكومينات اليوم في تطور سليم وصحيح أبداً إلى الأمام دافعة بذلك الصين والشعب الصيني إلى أمجاد ضخمة وقفزات جبارة إلى الأمام.

ويمكن أن نلخص وضع الكوميون وما حققه على النحو التالي:

1- إدماج الحكومات المحلية والمزارع التعاونية في وحدة ذاتية "أو كيان موحد".

2- ربط وتنسيق الزراعة والغابات وتربية الأسماك وشق الطرق وبناء الكباري والقنوات والدواجن والمواشي وبهائم المزارع وتوليد الكهرباء بالإضافة إلى المهن المعيشية الأخرى على نحو متكامل.

3- تجميع الصناعة والزراعة والتجارة والتعليم والشؤون العسكرية "من التجنيد والتطوع".

فالكوميون ليس هو الوحدة الاقتصادية التي تدير المؤسسات الإنتاجية وحسب وإنما هو الجهاز المحلي الحاكم للشؤون الاقتصادية والثقافية والعسكرية في المنطقة أو الإقليم واطراد هذه الكميونات بدفع عملية تصنيع الصين على نحو أسرع وأسباب ذلك واضحة إذ أن هدف الشيوعية إنهاء عهد استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وبناء مجتمع لا طبقي حيث يقضي على الفوارق بين المدينة والريف بين التصرف الأخلاقي

والعملي يصبح مبدأ "من كل حسب مقدرته ولكل حسب حاجته هو العرف السائد".

معنى ذلك أن توسيع نطاق نشاط الكتل الجماهيرية داخل الكميونات سيساعد على نحو عظيم نمو بناء الصناعات المحلية ذلك أن أعمال بناء أدوات الزراعة والسماد الصناعي وآلات الري ستعمم كما يكشف عن موارد الأرض الطبيعية كالمعادن ويفاد منها بدرجة مباشرة ويعني ذلك أنه:

1- يساير نمو الزراعة التوسع الصناعي ويقضي على احتمال تخلف الزراعة عن ملاحقة تطور الصناعة المضطرد.

2- التغلُّب على الفارق الكبير في ثمن المواد الخام والسلع. وبالتالي القضاء على ارتفاع الأسعار الناتج من المحل الأول عن تكاليف المواصلات مضافاً إلى تكاليف العمل الأخرى، ما يساعد على زيادة السلع الاستهلاكية لتلافي حاجة 5 مليون من الريفيين.

3- اختفاء الهوة الفاصلة بين المدينة والريف "بين العامل والفلاح".

4- إمكانية تبادل التعاون بين العمال والفلاحين وخلق طبقة جديدة من العمال المزارعين قد أشار إليها الرئيس "ماوتس" في خطابه "في الزراعية التعاونية" منذ ثلاث سنوات "31 يوليو 1955م" وأكد فعاليتها في تقريره للمؤتمر الثامن للحزب الشيوعي الصيني الذي عقد في سبتمبر 1956م تنح بش هيد مدير مصلحة الأعمال الريفية.

5- تطبيق سياسة التعليم العملي وتخفيف حدة الإقبال على التعليم النظري الذي يرهق أجهزة الدولة أو ينشر البطالة بين أصحاب المؤهلات الغير المطلوبة، أي القضاء على بورجوازية التعليم وهي ما ينتج عن إقبال طبقة معينة من الشعب على الكليات النظرية وتفضيلها على غيرها مفضلين التوظف على

الأعمال الفنية والصناعية ما يعجز عنه المسؤولون عن التعليم من إمداد البلاد المركزة على الصناعة من تدعيم اقتصادها بالفنيين والخبراء المطلوبين لهذه الصناعة، ذلك أن الكليات النظرية تمد الطالب بمجموعة من المعلومات العامة لا تؤهله للحياة العملية المباشرة. ومن الملاحظ أن 65% من طلاب هذه الكليات هم من أبناء المثقفين وكبار الموظفين في حين أن أبناء العمال والفلاحين يفضلون الكليات العلمية. ومن هنا كانت السياسة التعليمية الجديدة متماشية مع السياسة الاقتصادية وهي توفر احتياجات الصناعة من الخبراء وذلك بتنسيق الكفاءات العلمية حسب احتياجات التصنيع كما عدل النظام التعليمي لذلك لتزويد هذه الحاجات.

- المرحلة الإعدادية والثانوية تصبح نظرية وعملية أي يلازم التعليم الإنتاج.

أي خلط المصنع والمدرسة والحقل ومن هنا نرى أن طبقة جديدة من المؤهلين تبرز إلى الوجود. مبددة الفوارق بين المدينة والريف "هذا إذا أضفنا -أيضاً- نظرية لا مركزية الصناعة في الكميونات".

- اختصار مدة الدراسة العامة إلى الثلثين وبذلك يدخل الطالب ميدان الإنتاج في سن مبكرة بلا تبديد وقته في دراسات غير مجدية.
- مما تقدم العمل يحصل تلقائياً تصفية للطلبة ويؤخذ المتفوقون للدراسة النظرية في الجامعات والمعاهد العليا.
- تأخذ أنظمة الكميون على عاتقها مهمة تثقيف المواطنين من خلال التنظيمات الاجتماعية كمنظمات الشباب والنساء والعمال.

وبالنهاية فإن للوتنج يي كاشتراكي رأياً في التعليم والثقافة أو رد في مجلة هجني "الراية الحمراء" وهي المجلة النظرية للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني وقد أدلى به في مؤتمر تعليمي دعت له اللجنة المركزية مؤخراً (58/9) "ما هي الثقافة؟" هل هي معلومات الكتب ؟ نحن الشيوعيين نترجم الثقافة على نحو يختلف مع ما يراه البورجوازيون. إنهم يرون أن الثقافة هي التهام ما في بطون الكتب وأن المعرفة العلمية ليست ثقافة وبعضهم يرى أن الحياة ثقافة. وكلا النظريتين نقيض ونحن نرى أن الثقافة هي الاثنتان النظرية والتطبيقية معاً وأن إحداهما منفصلة تساوي نصف الحقيقة" ويقول ماوتسي في مجموعة منتجاته: الثقافة الكاملة تُكتسب خلال مرحلتين، النظرية الأكاديمية ثم العملية الحياتية.

6- وفي مجال الثقافة والتعليم فانتشار كميونات الشعب يقضي جذرياً على التخلُّف في توجيه التعليم في مناطق الأقليات القومية وصيانة تراثها الفلكلوري ورفع مستوى الأدب الواقعي الهادف بوجود مقدماته من بيئة قريبة وقراء واقعيين للكتّاب القوميين. كما تساعد على توفر الأجواء الصالحة للفنان والأديب عن طريق سياسة التخصص وبالتالي رفع مستوى الفنون والآداب القومية ونشرهما بين جماهير الشعب.

7- الترقية والضمانات الاجتماعية: تنص مسودة قانون ويكسن "القمر الذري" ويضم 9969 أسرة و27 مزرعة وقد وجد في أبريل سنة 58 -ينص قانون الكوميون على توفير "البيوت السعيدة" للمسنين أي مستشفيات وعيادات خارجية ودور حضانة ومطاعم وملاجئ ومختلف الضمانات الاجتماعية لإيواء العجزة والأيتام والأرامل. وزيادة الاهتمام بالنواحي الثقافية والترفيهية والرياضية.

8- الميزانية: يتحدد التوزيع على أساس زيادة الإنتاج السنوي أولاً والذي من شأنه رفع الأجور. ومالية ويكسن توزع تحت البنود الآتية:

أ- سعر الإنتاج "العمل" للسنة الجارية بعد اقتطاع الضرائب المقررة لصالح الدولة "والدومين العام" domain.

ب- أغذية وأجور أعضاء الكوميون.

ج- الترفيه والصيانة العامة "ولها 5% من الدخل العام" والمالية العامة.

وقد انتشر نظام الكوميونات في مقاطعات هونان ليونيج "وهي اكبر الأقاليم الصناعية" وهوبي شانس وهيكو نجلبانج وكوانجس وفي مديريات أخرى ولدت كميونات متقدمة.

وقد علقت جريدة أمريكية على هذه الأنظمة الاجتماعية في الصين بقولها: "إن الحزب الشيوعي الصيني لم يكتف بتغيير جنسية الشعب بل حول الصينيين إلى نمل".

إن نظام الكميونات يعني تدفق الصناعات الصينية إلى الأسواق العالمية بفضل تقدم وسائلها ووفرة الأيدي العاملة بأسعار زهيدة وهذا يؤلف منافساً خطيراً للبضائع الأمريكية التي يضطرون أحياناً إلى إلقاء فائضها في المحيط حفاظاً على مستوى العرض والطلب والسعر الذي تحتفظ الولايات المتحدة بتحديده. إن "العملاق الأصفر" في طريقه القصير إلى ابتلاع "الغول الأصفر" والذهاب ببريقه الزائف إلى الأبد والأعوام القادمة تختزن لنا أحداثاً مذهلة.

خطاب ماوتسي تونج عن الإصلاح الزراعي

وقد القي في مايو عام 1955م

الخطاب ككل دراسات ماوتسي تونج يتحدث في شمول واستفاضة ويواجه في صراحة كل الاحتمالات ويعتبر الماضية مستلهماً في شتى مراحل تجربة السوفيت العظمى مؤكداً أن ثورة الصين خطوة حتمية متأتية عن ثورة العمال الروس الكبرى 1917م يقول ماو:

"يموج الريف بوعي جماعي جديد للحركة الاشتراكية. ولكن بعض الزملاء يخجلون كامرأة قصيرة القدمين يتذمرون ويشكون من أن الآخرين يتقدمون بأسرع مما تحتمل أقدامهم الصغيرة.

فقد تخيل هؤلاء أنهم -بتهويل التوافه والتذمر والقلق الدائم- إنهم يقودون الحركة الجماعية الاشتراكية على أطيب الأسس.

"لا" ثم لا، إن هذا خطأ فموجة الإصلاح الاشتراكي في الريف -في شكل التعاونيات- هذه الموجة المباركة آخذة في النماء بشكل مطرد- وسوف تغمر البلاد قريباً.

هذه حركة ثورية اشتراكية ضخمة تمس قوى الملايين الريفية. هذه حركة لها دلالة عالمية كبرى.

علينا أن نقود هذه الحركة بشدة وجدارة نظامية. وفي أمثال هذه الحركة الانحراف يحتمل مما يتوقف على التعقل ولكنه ليس من الصعب تقويم هذه الانحرافات. الضعف والخطأ الموجود بين الفلاحين والشغيلة يمكن التغلب عليه بالمساعي النشيطة وبقيادة الحزب يتقدم الفلاحون والشغيلة وتستقيم الحركة أساساً وجوهراً.

وبعد هذه المقدمة الصريحة يستعرض ماو معدداً الأخطاء التي تردى فيها بعض الزملاء واضعاً طرقاً حكيمة لتقويمها متفائلاً -باعثاً على

التفاؤل والثقة بالحركة- ملماً في شمول بأحوال العمال والفلاحين مقدراً لكل الظروف والملابسات التي لازمت وتلازم التجارب الماضية للبلاد الأخرى متخذاً من الاتحاد السوفيتي مثلاً وحيداً وهَدْياً يحذو حذوه معتبراً بأخطائه شارحاً تجربته الخالدة في ثقة كبيرة بالنتاج الذي يراه مؤكداً كحصاد للتضحيات والإخلاص والأمل الكبير الذي يحمله وشيك التحقيق لنعمة الملايين الكادحين.

ويقول متذكراً أيام الكفاح خلال الحرب التحريرية:

حتى قبل إقامة الجمهورية الشعبية -خلال واحد وعشرين عاماً من الحرب الثورية حشد الحزب كل التجارب "إصلاح الأراضي" من قيادة الفلاحين إلى تنظيم مجموعات "للمساعدة المشتركة" للمنتجين الزراعيين ذوي صفة اشتراكية أساساً.

وبعد التحرير أي لمدة ست سنوات مضت عمل الحزب على تنظيم هذه المجموعات -على نطاق واسع. في تعاونيات للمنتجين الزراعيين".

ثم يجيب ماو عن تساؤل بعض الزملاء في إمكانية "تجميع" التعاونيات -ويبدو أن الزملاء قد آثروا الاندفاع والتسرع في إحراز النتائج:

"وبلا شك -لست بحاجة إلى القول بأن التصنيع الزراعي والتطور إلى الاشتراكية ليس بالعمل الهين. من المحتمل أن تبرز صعوبات عدة في طريق عملية خلق "الجماعيات" التي تكونها 110 مليون- أسرة من أُسر الفلاحين. وذلك بدهي عندما تتحول الإدارة الفردية إلى أخرى جماعية تسير قدماً بغية الإصلاح الزراعي. ولكن يجب أن نثق في أن الحزب جدير بقيادة الجماهير وإمكانية التغلب على الصعوبات التي قد تنشأ.

وفيما يختص بالمزارع التعاونية أرى أنه لزاماً علينا أن نؤمن:

أولاً:

الفلاحون الفقراء أعضاء الطبقة الدنيا والمتوسطة مستعدون لسلوك الطريق الاشتراكية ويتجاوبون بعزم مع نداء حزبنا من أجل التعاونيات، وكذلك الفلاحون الفقراء لأنهم يعانون من صعوبات اقتصادية وأعضاء الطبقة المتوسطة لوضعهم الاقتصادي الذي وإن كان قد تحسن بعد التحرير إلا أنه متواضع. ذلك أن بين هؤلاء يوجد أفراد نشيطون عمليون لأنهم استوعبوا الفكرة.

ثانياً:

يجب أن نثق في أن حزبنا يحمل قيادة الجماهير والبلاد إلى تحقيق الاشتراكية.

وأن حزبنا الذي قاد ثورة شعبية ديمقراطية كبرى إلى النصر وأقام دكتاتورية جماهيرية ديمقراطية ترأسها الطبقة العاملة يستطيع مؤكداً توطيد الاشتراكية في التصنيع والإصلاح الزراعي والمهنية والصناعة الرأسمالية والتجارة في مدى أقل من مشاريع خمس سنوات.

ثالثاً:

يجب أن نؤمن بالشعب.

يجب أن نؤمن بالحزب الشيوعي ولجنته التنفيذية.

هذه مبادئ خالصة. بدونها أو من خلال الشك فيها لن نتقدم.

ثم يتعرض لمشكلة الفلاح والعامل الأساسية ومشكلة الصين عموماً التي من أجلها قامت أشرف محاولة لرد القيم واعتبار الإنسان.

يقول ماو "التعليم –الثقافة –الوعي– هو ما يلزمنا في هذه الحركة وليس التعنيف والقهر– فمهما تكن نياتنا طيبة ومهما يكن جمال الأمل المتطلع بالحصاد يتحتم علينا أن نتحسس الطريق في حكمة وحذر وبعناية وإحاطة بكل الظروف الواقعة".

ولا بُد أن نقتنع بأن الشعب بقيادة الحزب الشيوعي يستوعب ويقيم الاشتراكية تدريجياً وأن الحزب قادر على تولية وإقامة مجتمع اشتراكي. وأن هاتين النقطتين هما روح وسر المسألة".

ثم يتحدث عن التجربة السوفيتية كأعظم حدث تاريخي.

"والتجربة السوفيتية الهائلة لبناء الاشتراكية تلهب الشعب وتملؤه بالثقة والأمل في مستقبل الصين. ومع أن النظرة تختلف للتجارب الدولية إلا أن بعض الزملاء لا يهضمون فكرة ملازمة التعاونية في الزراعة للتصنيع الاشتراكي. هذه السياسة أثبتت جديتها في الاتحاد السوفيتي.

وأيضاً هناك آخرون لا يرون ضرورة إقران الصناعات الثقيلة كأهم فرع في أعمال التصنيع الاشتراكي حيث ننتج أدوات ميكانيكية للزراعة والسماد الكيمياوي والمواصلات الحديثة والوقود والقوة الكهربائية لخدمة الزراعة وأهمية تلك اللوازم بالنسبة للتوسع في التعاونيات الزراعية والمزارع الجماعية".

وماوتسي تونج إذ يعي تلك الحقيقة يوضح أن الثورة لم تقم في النظام الاشتراكي لتحويل الملكية الفردية إلى ملكية شائعة عامة وحسب . ولكن في التكتيك والإمكانية لتطوير الإنتاج اليدوي المهني من الأعمال الفردية إلى الإنتاج الجماعي بأدوات حديثة أي تصنيع الزراعة، وأن هاتين ثورتان متوازيتان لا يمكن فصلهما أو تحقيق الهدف خلال إحداهما فقط والتجربة السوفيتية تؤكد المسألة أيضاً.

ماوتسي تونج ذو فهم حان في جميع توجيهاته التي هي ليست بالضرورة أوامر أو قوانين. إنه يفهم إذ يحنو ويحنو إذ يفهم. كان يشرح المسألة التعاونية في الإصلاح الزراعي ولا يفتأ يذَكِّر المسؤولين بأن الثقافة والوعي هما ما يلزمنا وليس التعنيف والقهر. فمهما تكن نياتنا طيبة ومهما يكن جمال الأمل المتطلع للحصاد يتحتم علينا تلمس الطريق في حكمة وحذر يجب أن نؤمن بالشعب. إن الانحرافات محتملة ولكنها

ليست صعبة التقويم. إن الفلاحين والشغيلة مستعدون لسلوك طريق الاشتراكية والتجاوب مع نداء حزبنا. فقط الإيمان والإحاطة بكل الظروف الواقعة.

كان ماو يحب الفلاح الصيني كما لم يحبه صيني قبله وكان مؤمناً بقوة الفلاح الصيني العريق صاحب أشد الذخائر الثورية انفجاراً. كان يؤمن بأن "القرية هي قلعة الثورة" وبأنه إذا كانت الثورة تحتاج إلى جيش ثوري فلا بد من اكتشاف مواهب الفلاح العسكرية. وإذا كانت الثورة تحتاج إلى حزب سياسي فلا بد من اكتشاف مواهب الفلاح السياسية. كان يعلم أن تاريخ الصين يصنع هذه المرة في الحقول. وجلس يدعوا المفكرين لأن يصهروا أنفسهم مع الجماهير لأن هذا هو مصدر الخلق والإلهام.

"يجب إلا ننقد الشعب إلا من زاوية الشعب وبإخلاص كلي يهدف إلى حماية الشعب وتعليمه وتثقيفه. أما إذا عاملتم رفاقكم كما تعاملون أعداءكم بنفس الأسلوب الذي لا يرحم فإنكم تقفون موقف العدو نفسه".

المدينة المثلثة

ووهان مدينة مثلثة "ووتساغ ووهان وهانكاو" وتقع على نهر اليانجس الجبار والذي كان يؤلف لسكان المدينة رعباً متواصلاً بفيضه الطوفاني وقد استطاعت المدينة مقاومة فيضان 1954م الذي كسر قياس فيضان 1931م المشهور، بالصمود ثلاثة أشهر كُتب لها النجاة من دمار محقق.

ويمكن إضافة مفخرة جديدة لووهان وهي أنها المدينة التي شهدت كفاح شهيدة الصين العظيمة هسيانج تشنج -واستشهادها في سبيل الكفاح.

فقد انتدبتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي للبقاء في ووهان بعدما شتت بوليس شيانج كاي شيك والاستعمار خلايا الحزب في ووهان. وبقيت هسيانج للعمل في اتحاد النقابة العامة لتعبئة عمال المنطقة. وكانت مخلصة للعمل والقوة على نحو أكسبها ثقة جميع من عرفوها وحبهم.

وبلغ نشاطها حداً عُدَّ خطراً على البوليس الفرنسي والكومنتانج ما حدا إلى اعتقالها في ربيع 1918م حين أُعدمت بعد سجن استمر حتى أول مايو من نفس العام.

ففي أول مايو يوم العمال العالمي استدعت هسيانج من غرفتها الضيقة الرطبة إلى ساحة الإعدام ونفذ فيها الحكم وهي في الثلاثين.

وكانت آخر كلماتها "يسقط الاستعمار وتحيا الصين السوفياتية".

ووهان

وهي مركز ثقافي تعليمي بها أكاديميات للتمثيل المسرحي وهو فن عريق بالصين، وهي مسقط راس كثير من المجاهدات اللواتي ساهمن في قيادة الثورة.

والمواصلات الطبيعية سهلة إذ أنها تقع في واد منبسط وقد قوبلنا بمظاهرة صاخبة كما في كل مكان ذهبنا إليه ثم عبرنا نهر اليانجس أكبر أنهار الصين ومن أكبر أنهار العالم على الإطلاق إذ يبلغ عرضه كيلو متراً وأكثر وطوله 5500 كيلو متر.

ومدينة هانج كاو تقع على الضفة المقابلة للنهر وهي مدينة كبيرة تكتظ بالمباني الجديدة وحركة الترميم هائلة إذ أن هذه المدينة شهدت أعنف معارك الثورة ضد الكومنتانج في العهد البائد. وهي أيضاً من أكبر مدن الصين ولها شهرة سياحية عظيمة. وقد انتهزنا فرصة مبيتنا بها وخرجنا نتجول في السوق وما حول الفندق.

والمدينة تكاد تكون عاصمة تجارية لما تفيض به جوانب الشوارع الكبيرة من محال تجارية ومصانع للنسيج والخوص ومنتجات البوص. وبالمناسبة فالصين مشهورة بنبات البوص حتى صار مميزاً لها. وقد كتب خائن رشاه الأمريكان كتاباً عن الصين أسماه "خلف الستار البوص" Bamboo - Curtain على وزن خلف الستار الحديدي. وقد تحدث فيه عن دكتاتورية الحزب الشيوعي وغير ذلك من الدعاية الأمريكية المكشوفة.

هانج كاو شيكاغو الصين

أما عن مدينة هانج كاو فهي زيادة على مظاهر العمران المنبثة في كل شبر من شوارعها تجد الطابع الصيني العريق يبرز بشكل فاخر في الفنادق والمطاعم والمسارح والفندق الذي نزلنا به يشبه إلى حد بعيد قصر إقطاعي لما يفيض به من زخارف الجدران والتحف وأواني الموائد الأرستقراطية إلى حد بعيد لولا أن نستبعد ذلك لكون المكان في قلب المدينة وتحته مباشرة سوق كبير يرسل صخباً متواصلاً ناجماً عن حركة البيع والشراء مستمرة. فالصينيون لا يعرفون القيلولة ويومهم يبدأ بشروق الشمس إلى ما بعد منتصف الليل وهم في حركة دائمة إما في العمل وإما في النزهة. والتسوق يؤلف بنداً هاماً في حياة كل صيني فأنت تجدهم يقفون في صفوف طويلة متوازية كثيرة العدد أمام المحال التجارية

الكبرى التي تسمى بالمخازن وهي تحوي جميع ما يرغب في شرائه المرء ابتداء من الأطعمة إلى الكتب المدرسية إلى أدوات الرسم والموسيقى إلى ملابس والتحف والأحذية والطيور المغردة والداجنة،.. إلخ.

وهذه المخازن تشملٍ مباني ضخمة وعدة طوابق كل طابق خاص بنوع من السلع. فمثلاً الطابق الأول للبقالة والفاكهة والثاني للأسطوانات واللوحات والآلات الموسيقية والثالث للملابس والأحذية والرابع للعب الأطفال وأدوات الرياضة،.. إلخ.

وهذه المخازن ملك للدولة عادة ويعمل بها موظفون وموظفات للأقسام المختلفة.

والقيمة الشرائية للين الواحد ضئيلة نسبياً إذ يعادل ما يقارب 18 قرشاً إلا أننا إذا قارنا مستوى الدخل العام للفرد وجدنا أن متوسط أجر العامل ما يقارب 80,82% سين كانت عام 1949م 70,70% سين بغير العلاوات ومكافآت العمل الإضافي التي تتضاعف لكل ساعة بعد ساعات العمل وغيرها من المكافآت السخية التي يحظى بها العامل الاشتراكي كتقدير مادي وحسب لكل عامل مجتهد عدا التقدير الأدبي. وإذا قدرنا أن كل فرد في الأسرة يكسب رزقه من غيرٍ الأطفال والمسنين الذين تُوَفِّر لهم الدولة جزءاً كبيراً من هذا الرزق ممثلاً في مجانية التعليم والعلاج بالنسبة للأطفال، والمكافآت والمعاشات للكبار، استطعنا أن نتأكد من أن المستوى المعيشي العام مرتفع ومرضٍ بحيث أن كل فرد يحصل على جميع الفرص المتكافئة للعلاج والترفيه والتعليم له ولأبنائه وأسرته. والضمانات الاجتماعية لجمهورية الصين الشعبية تعكس دور الدولة في المساهمة إن لم يكن القيام بضمان حياة كريمة لجميع المواطنين المتكسبين منهم والعاجزين.

كوبري اليانجس

يجري العمل على بناء كبري على نهر اليانجس وهو أطول أنهار الصين إذ يبلغ طوله 5,500 كيلو متر ومن أكبر الأنهار –الرابع في العالم. وقد تسبب هذا النهر مع النهر الأصفر في كثير من كوارث الصين فقد كانت فيضاناتهما تعني الكوارث وكان غيظهما يعني الكوارث أيضاً. وكان هذا النهر الأرعن من أسباب شقاء الفلاح الصيني المنكوب فيما مضى. أما الآن فقد وُضعت السدود اللازمة على النهر وفي ثماني سنوات أخرى سوف تتم السيطرة الكاملة على هذا المجرى الهائل الذي تعني الاستفادة من جميع مياهه زيادة الرخاء والخصب للفلاح الصيني وانتهاء عهد الرعب الناجم عن عدم اعتدال المجرى العارم. ويعني أيضاً الاستفادة من 100,000 مليون متر مكعب من مياه الفيضان. ومتوسط عمق النهر حوالي 40 متراً ويجري الماء بسرعة 3 أمتار في الثانية وتجربة بناء كوبري. على اليانجس تحمل أهمية كبرى لثلاثة أسباب:

1- عرض المجرى إذ يبلغ كيلو متراً ويبلغ عمقه ألفاً وستماية متر في المكان الذي يبنى عليه الكوبري.

2- كون هذه التجربة هي الأولى من نوعها في العالم وفي الصين وفي هندسة بناء الكباري على الإطلاق. إذ يكون الكوبري على نظرية جديدة تماماً في بناء الكباري.

3- أقامته بأيد وأدوات وخبرات صينية فحسب، دون الاستعانة بالإمكانيات الأجنبية مطلقاً.

وعليه فإن هذه العملية ستوفر 80 مليون سين إذ ستستعمل أدوات محلية أرخص بالطبع مما لو استوردت من الخارج. وهذا هو الحال بالنسبة للوقت أيضاً فسوف يوفر الزمن اللازم لاستحضار الخبراء والأدوات.

من ذلك أنهم يستطيعون تشييد 8 علب أساس في 50 شهراً لا اثنين في السنة كما هو الحال بالنسبة للتجارب الأخرى وبهذه الطريقة أيضاً أصبح من المستطاع إتمام العمل جميعه بما في ذلك علب الأساس والعامل فوق الماء. ولا شك أن العمل تحت الماء يعرض العامل للخطر ويتلف صحته أساساً. وقد بدا العمل في هذا الكوبري في سبتمبر سنة 1955م وفي ديسمبر سنة 56 يكون قد تم بناء 8 علب –الأساس.

والكوبري يحتوي على طابقين الأول لخطوط السكة الحديدية والمرور والثاني للمشاة ويوجد مكان لرفع الناس للطابق الأعلى حيث الارتفاع من القمة إلى الماء 80 متراً، ولذلك توجد استراحة في الطابق الأعلى ويتم بناء هذا الكبري في أكتوبر سنة 1957م ويكون قد استغرق بناؤه سنتين وثلاثة أشهر ويكون من التوفير حيث الزمن وحسب 17 شهراً وفي المرة القادمة وبإضافة نجاح التجربة الأولى ستقل مدة العمل وما يتبع ذلك من توفير في النفقات.

وقد حاولت حكومة تشانج كاي تشيك بناء هذا الكوبري قبل الثورة 4 مرات وفشلت فيها جميعاً. ولكن حكومة الثورة استطاعت تحقيق هذه المعجزة بنظرية نادرة وبأموال وخبرات وأدوات محلية.

ويقول المهندس المشرف على العمل وهو شاب في الثانية والثلاثين من عمره: كان الغربيون يقولون لنا. إن تعدد أنهارنا يزيد أحزاننا ولكننا الآن وقد نجحنا في التغلب على عربدة الطبيعة انقلبت الآية. إن تعدد أنهارنا يزيد أفراحنا.

ويستطرد المهندس الشاب هوكنج لنج في تواضع صيني "إننا ما زلنا في بداية الطريق وفي سبيل تعزيز اقتصادنا وتحقيق الاشتراكية لشعبنا نرحب بخبرة أصدقائنا ونتبادلها معهم حتى نستكمل العمل الكبير الذي نحن بسبيله. وقد تلقيت مساعدات شخصية من أصدقائنا الألمان والسوفييت.

والكبري يتطلب مجهود 8 ساعات يومياً من عمل 37,000 عامل منها نصف ساعة للراحة. وهؤلاء العمال يتقاسمون العمل في دوريات، 11 ألف لكل دورية. وفئات الأجر منقسمة إلى قسمين فئة يومية لكل حسب عمله. والأخرى بأجر شهري لأن هناك عمالاً ما زالوا يفضلون الأجر اليومي على الأجر الشهري. أما بالنسبة للآخرين وهم الإداريون والفنيون غالباً فلهم الأجر الشهري أو النصف شهري. وتدفع المرتبات كل أسبوعين.

وقد أنشئت لإدارة الكوبري جميع المؤسسات اللازمة للعمل. وروعي وجود نساء عاملات فنيات وإداريات أيضاً فأنشئت بالإضافة إلى الوحدات العلاجية والإسعاف والمطاعم والمساكن المتنقلة المخيمات، دور حضانة للأمهات وتعطى كل أم ساعة يومياً لتطعم طفلها مرتين، نصف ساعة كل مرة والحق بدار الحضانة غرفة للاستراحة.

لذلك توجد رياض للأطفال ومستشفيات للولادة إذ أن العمل يستغرق كما قلنا أكثر من سنتين وتعطى كل أم عاملة إجازة وضع حسب قوانين العمل لجمهورية الصين الشعبية.

ويتمتع العامل في هذه المستعمرة بجميع حقوقه فله إجازة أسبوعية يذهب فيها إلى هانج كاو عبر النهر.

وقد تكلف كوبري يانج 10 ملايين سين وقد فقد اثنان أرواحهم أثناء العمل ولكن وبعد الإحصائيات الوقائية اللازمة لم تقع حادثة ما.

وللوقاية من حوادث العمل ثبت شباك على طول هيكل الكوبري ليحمي العمال الذين يتطلب عملهم الوقوف في أعلى البناء من الوقوع في النهر كما ازداد الحرص على استعمال أحزمة الحماية التي يحتفظ بها العامل حول وسطه طوال ساعات عمله في الأماكن الخطرة.

أرقام عن بكين

من أقدم مدن الصين البالغ عددها 4541 مدينة. أنشئت بكين منذ ألف عام قبل الميلاد وكان تعداد السكان قبل التحرير 2,080,000 نسمة وبعد التحرير 3,640,000 نسمة.

بلغت مساحة المباني المشيَّدة بعد التحرير 14 مليون مربع. أي 71,6% من مساحة المدينة القديمة، شارك جميع أهالي بكين في حملة الصحة العامة وإبادة الذباب والحشرات والنظافة عام 1951م، شارك أغلب السكان وجميع الطلبة في عملية رصف وتوسيع الشوارع وشق مجاري المياه.

أسست بعد التحرير 900 مدرسة أولية بها 300 ألف طالب.

1170 مدرسة وسطى.

و27 معهداً للتعليم العالي.

20 مصنعاً مختلفاً.

وجد 120 ألف من العاطلين والخريجين والنساء عملاً وأوجدت كورسات للتأهيل المهني لذوي المؤهلات المحدودة، مسائية ونهارية.

أنشئت ميادين وحدائق وجُمِّلت المدينة.

تكون 139 تيماً رياضياً.

بكين

وصلنا بكين في الخامس عشر من سبتمبر وكان الوقت مساء وما إن حلت الدقيقة التي عَيَّنها لنا المشرفون على الرحلة حتى كان القطار يتهادى بنا في محطة بكين.

المكان مكتظ بآلاف من الناس والأزهار تزحم الطريق والأذرع المرتفعة في الهواء تحمل أمواجاً منها.

إن الصينيين يلوحون بالزهور لا بالمناديل. وكانت لحظة رهيبة. أكثر رهبة من جميع لحظات الوداع والاستقبال التي مرت بنا. كنا قد استعددنا جميعاً لهذه اللحظة ولم يكن من الضروري التأكد من ميعاد وصول القطار ألف مرة كما فعلنا فجميعها مؤقتة كالساعة ولكننا كنا نفعل ربما بحكم العادة وربما من جراء التوتر الذي أحسسنا به فجأة.

وحلت اللحظة الحاسمة.

عشرات من المستقبلين وعشرات من باقات الورود الأنيقة.

ومهما فعلت فلن أوفق في وصف تلك اللحظات الإنسانية النادرة. كنا نتعانق كما لو كنا أصدقاء قدامى. لا بل أهل وعشيرة افترقنا لأطول مدة ممكنة لشحذ أشواقنا.

وحين التقيت فاضت جميع العيون بأنبل ما يمكن أن يحمل الإنسان من مشاعر.

وقد كان باستقبالنا رئيسة الاتحاد النسائي شخصياً وهي أرملة الكاتب الصيني الأشهر لوهسون ومندوب عن السفارة المصرية بالصين.

وبعد هذه الموجة من الانفعالات المتباينة من البهجة والاضطراب والفرح والرهبة وكل هذه المشاعر التي لا عهد لقلوبنا الإفريقية بمثلها من قبل ومن بعد توجهنا إلى الفندق الذي نزل به وكان لابد أن نمر بقلب المدينة العريقة مدينة بكين.

المؤلفة بالملابس الوطنية السودانية مع نساء صينيات في بكين

وبكين من أقدم مدن الصين وتبلغ مساحتها 4540 كيلو متر مربع وقد أنشئت بكين منذ ألف عام قبل الميلاد أي أن عمر هذه المدينة العريقة أكثر من ثلاثة آلاف سنة وقد كانت بكين عاصمة الأباطرة خلال مختلف عهد حكمهم إلا أن شانج كاي شيك لم يتخذها مقراً لحكومة الكومنتانج وكونها العاصمة يعني أنها مقر الطبقة الحاكمة وفئة ضئيلة من الشعب الصيني –هم الأغنياء والأرستقراطيون أما باقي الشعب المضغوط فقد كان بلا مأوى إلا الضواحي القذرة الموبؤة وبلا أمل في العلاج أو التكسب الشريف.

وقد كان العلاج يمنح فقط لـــ 14% من السكان وهم الأغنياء طبعاً أما ما يعادل من أكثر نصف المرضى فلا يحصلون على دواء أو عناية طبية.

ومع الثورة وفي عام 1949م انتهت عهود الظلم والظلام وبدأت مرحلة جديدة مضيئة في حياة الشعب الصيني تحت ظل الجمهورية الشعبية. وبكين ملتقى ومقر التيارات السياسية والفكرية والثقافية ومركز بيوت المال والبنوك وتكاد تضارع شنغهاي من حيث الازدهار الاقتصادي والتجاري إلا أن الأخيرة اكتسبت إمكانيات أوسع خلال حكم الاستعمار الفرنسي والبريطاني وأعمال البورصة وملوك المال والمغامرين من الأجانب، ما أكسبها استراتيجية موقعها.

وقد ظلت بكين مقراً للحكومة المركزية للحزب الشيوعي بعد استيلاء جيش التحرير عليها في سبتمبر عام 1949م، حين تم تحريرها سلمياً ودون عنف.

وبالرغم من كل ذلك فإن صن يات صن يفضل نانكين المدينة التي عرفته وأحبته وآوته متنكراً ومتخفياً وداعياً للثورة وقد نذر أن يجعلها مقر حكومة الكومنتانج إذا نجحت محاولته. إلا أن صن يات صن لم يعش ليرى نتاج المحاولة السادسة عشرة.

وفندق السلاح كما قلت في قلب المدينة شمال ميدان تيامين "مدخل السلاح السماوي". ويتوسط الساحة قصر الأباطرة وحكام الصين ومقر حكوماتها الثقافية الذي بني عام 1417 ميلادية ثم أعيد تصحيحه سنة 1917م من رخام فاغشان الشهير. وهو على شكل باجودا "معبد بوذي" وله أسوار حمر عالية تمتد إلى مسافات بعيدة تتوسطها قباب تقليدية الطراز تربض من أمامها مساحات شاسعة من الكراسي المعدة لضيوف المهرجانات والأعياد القومية التي غالباً ما تتخذ من هذا الميدان مسرحاً لها مثل أعياد التحرير والعمال،.. إلخ.

وشوارع بكين التي تمر بوسط المدينة واسعة حتى لتكاد عشر سيارات تمر بها، وحركة المرور منظمة للغاية رغم كثرة الدراجات التي يستعملها الصينيون رجال ونساء وخاصة تلك التي تشبه الريشة وهي المركبة التي كان يجرها الإنسان من قبل وقد ثبتت مكان الإنسان دراجة يقودها إنسان أيضاً وأصبح الفارق هو أن السائق يجلس على دراجة بدلاً من العدو على الأرض جاراً حمله كدابة. وهذه المركبات رائجة بكثرة حتى ترى أن البص وهذه المركبات الدراجية من أعم وسائل المواصلات في بكين.

وبمناسبة المواصلات فإن الدولة تملك هذه الوسائل عموماً وقليلون من يمتلكون عربات خاصة بهم.

فالدولة تنتج حاجة الشعب من وسائل المواصلات أولاً ثم تنتج حاجة من يرغبون بالاقتناء.

ورغم كثرة الراجلين في شوارع بكين فإنك قليلاً ما تسمع صوت بوق، فالأرصفة عريضة بشكل يسمح للجميع بمكان فوقه، والمرور ينظمه جندي يقف في صمت التمثال لا يتحرك إلا رسغه في ميكانيكية رشيقة. وحوادث المرور نادرة نظراً لسعة الشوارع وحب الصينيين الطبيعي للنظام.

هذا عن قلب المدينة والأجزاء الحديثة منها. وقد قامت شبه مدينة جديدة حول بكين القديمة تشمل جامعات ودور اتحادات نقابات ومدارس ومعامل ومعاهد ومساكن وجميعها تسير في وقت واحد مع حركة الترميم الواسعة التي تقوم من أجل تجميل المدينة وإعادة رونق عراقتها وطابعها العتيق.

والشوارع الخلفية تكاد تشبه شوارع القاهرة القديمة. نفس المنازل الضيقة المترادفة والطرقات الضيقة التي تكاد تكون حواري مع فارق

بسيط عظيم وهو نظافة الشوارع التامة رغم ضيقها ولكن لا أريد أن أذكر شهرة نظافة الشعب الصيني وترتيبه.

وتقع مخازن الحاجيات في الشوارع الكبيرة حيث تمتد صفوف الراغبين في الشراء إلى مسافات طويلة وليس معنى هذا أن الفرد الصيني يجهد ليتحصل على حاجياته وإنما تأدبه الشديد وتواضعه وحبه المفرط للنظام. وهذا التقليد ليس "كيو" بالمعنى الإنجليزي وإنما مراعاة كلٍّ لدوره حسب وصوله إلى محلات ومخازن الحاجيات.

وأعطي مثلاً بسيطاً لما أقول.

عندما حان انتهار رحلتنا رأيت أن أشتري بعض بذور الورود والزهور التي تنمو في المناطق الحارة وكما قلت فمخازن الحاجيات تحوي كل شيء إلا أننا في ذلك اليوم توجهنا إلى محل خاص بالزهور والبذور والطيور وكانت الساعة الثالثة وهو ميعاد خروج العمال والموظفين وكان علينا أن نتخذ مكاننا في الصف أمام محل الزهور. إلا أن المس تاي وهي مرافقتنا استثنتنا من هذه العملية واستطعنا تخطي الجميع في الدخول إلى المحل الذي كان من السهل أن يستوعب صف الزبائن الواقفين بالخارج إلا أننا رأينا حوالي خمسة وعشرين منهم بالداخل فقط. وهذه العملية تسهل على كلٍ من البائع والمشتري وتضمن التأكد من أن المرء قد اشترى ما يود فعلاً وأن البائع قد عرض ما عنده علينا وليس ما هو ممكن أو مستطاع وهو الأمر الذي يحدث في حالات الازدحام الشديد حين يضطر المرء أن يأخذ أقرب الأشياء إلى ما يبقى وليس ما يبقى فعلاً.

وكذلك الحال بالنسبة للمكتبات. هذا مع العلم بأن مكتبات بكين ضخمة تشغل رقعة شاسعة ومباني هائلة والآلاف من المراجع والمجلدات والكتب في جميع العلوم واللغات ويشرف على هذه المكتبات العامة منها ومخازن البيع أخصائيون في كل فرع من العلوم يقتضي مراجعة المكتبة. ومكتبات الأطفال أيضاً بها أخصائيات ونفسانيات وخلاصة القول:

أستطيع التقرير بإمعان أن الشعب الصيني أكثر شعوب الأرض تهذيباً وحباً للنظام ووعياً به وتواضعاً أيضاً.

فندق السلام

أما فندق السلام الذي نزلنا به فهو بناء أبيض هائل مبني مدخله على الطراز الصيني القديم كبوابة قصر يتلوها رؤوس التنين والنقوش التقليدية وقد زخرفت بالأخضر والبني والأزرق. أما البناء نفسه فمن 11 طابقاً في كل طابق 800 غرفة عدا الحمامات الملحقة والحمامات العامة. وقد بني هذا الفندق في 100 يوم عام 1952م لاستقبال الوفود الآسيوية المحبة للسلم لمؤتمر السلام الذي عقد من 2-15 أكتوبر 1952م وحضره 367 مندوباً و37 مراقباً عن 37 دولة. وفي كل دور مكتب للاستعلامات وبوفيه للمأكولات الخفيفة ومكتبة صغيرة فيها موظفتان وغرف الغسيل الذي يجمع كل صباح ليوزع بعد الظهر نظيفاً مكوياً بالبخار وأكثر من خمسة مصاعد.

وبالطابق الأسفل مكتب للبريد والبرق، 4 قاعات للمحاضرات والسينما ومسرح صغير وعدة أبهاء لحفلات الاستقبال. وهذه الأبهاء يختلف كل منها عن الآخر بطراز في الزخرف والأساس، وكذلك في درجة الفخامة والروعة. وبالطابق الأسفل أيضاً مكتبة كبيرة ومصرف وقاعة للقراءة وقاعة للبلياردو وأخرى للموسيقى تسبح في ألحان مستمرة، وثالثة لكرة الطاولة "البنج بونج" وهذه القاعات تمتلئ بالزوار من أبناء الشعب الصيني في المساء ويومي السبت والأحد عطلة نهاية الأسبوع، فتراهم يتوافدون بعد الثالثة "انتهاء ساعات العمل" في جماعات وأزواج إلى هذه القاعات للاستماع إلى الموسيقى التي لا تتوقف مطلقاً حتى مطلع الفجر أو يطعمون على الأضواء الخافتة أو يرقصون مع

البرامج الخاصة التي تقدمها الفنادق لزوارها أيام العطلات ونهاية الأسبوع.

كما وتوجد في وسط الطابق وعند المدخل الزجاجي الهائل استراحة واسعة بها عدد من المقاعد الوثيرة وأواني الزهور حول الجدران وأركان للتدخين ومناضد صغيرة عليها الجرائد اليومية والمجلات وأجهزة التلفزيون والراديو. ومن هذه القاعة تبدأ جميع المصاعد إلى أعلى البناء.

والطابق الأخير يشمل المطعم. وهكذا يتكون من قاعات مستطيلة تفصلها أحياناً جدران زجاجية وأحياناً شبه خمائل مما يثبت في المزاهر التي تتناثر في الأركان وحول الأعمدة في شكل يجعل المكان وكأنه جنة على الأرض: حديقة وليس سطح بناء، وتشرف هذه القاعات جميعها بدرجات متفاوتة على المدينة التي تبدو دائماً في غلالة من السحب الشفيفة الرمادية في الصباح وموعد الإفطار وفي الظهر، تبدو كأنها استيقظت لتوها تبتسم كطفلة تتمتع بصحة وعافية ضافيتين فشمس بكين ليست حارة مطلقاً وإنما دافئة في أكثر أوقات النهار حرارة. وفي المساء تضاء هذه القاعات حسب ما يراد لها من أجواء. فهناك الأضواء الخافتة في الأركان النائية وحول الخمائل، وهناك الأضواء المنبعثة من لا مكان والهدوء والموسيقى الآتية من بعيد مع منظر بكين بالليل، ثم هناك القاعات الكبيرة المتوسطة المكان ذات الأضواء الباهرة والثريات الصاخبة، وهذه لحفلات الوفود والعشاء الساهر وما إلى ذلك.

ومطاعم بكين تقدم الأطعمة العربية والشرقية إلى جانب الأطعمة الوطنية وبإمكان عدة أشخاص على مائدة واحدة أن يأخذ كل منهم نصيبه من الطعام الذي يحدد لونه.

ولست بحاجة لأن أقول إن الخدمة غاية في النظافة والدقة وإن القائمين على هذه الخدمة موظفون يبدو الواحد منهم في أناقة ورشاقة، وهؤلاء يأخذون على عاتقهم مهمة إرضاء كل من يطأ أرض المطعم في ابتسام ورغبة أكيدة في الإرضاء.

والمائدة الصينية مشهورة بأطباق السمك المعد بطرق مختلفة، كما أن كل طريقة تختلف باختلاف المقاطعة التي يعد فيها. ولكن أشهرها السمك بالسكر وهو طبق شهي للغاية ومعد بطريقة ماهرة تبدو السمكة بها وهي راقدة على الطبق وكأنها لم تمس قط وحولها المرق المصنوع من السكر وإدام السمك وتقدم كميات هائلة من الأرز وحيوانات البحر على المائدة، وكلما رفعت أطباق سرعان ما تُرص غيرها حتى لتخال أن كل إنسان كُلِّف بأكل زاد عمره في كل وجبة.

وبعد كل هذه الأطعمة تقدم الحلوى وهذه أيضاً تختلف في كل مقاطعة ومدينة أحياناً ثم بعد ذلك تقدم الفاكهة الصينية في 3 سلال كبيرة توضع في أركان المائدة وأمام كل واحد وعاء عميق به ماء بارد لغسل هذه الفاكهة التي تقدم عادة بعد قطفها مباشرة وذلك إمعاناً في الإكرام. وأجمل ثمرة ذقتها من بين الثمار المتعددة التي لا أستطيع تذكر أسمائها -وبعضها مما لا ينمو عندنا- أجمل ثمرة هي الكمثرى الصينية. وثمرة الكمثرى كبيرة وذات لون ذهبي وقشرة غاية في الرقة حتى لتكاد ترى أشربتها، وتذكرني بقول المتنبي في وصف فاكهة واد تعلقت أشربتها، وهذا يكاد ينطبق على الكمثرى. شرابها يملأ الطَّبق عند تقطيفها ويصعب جداً قضمها دون انبثاق هذا الشراب. وبعد ذلك تقدم مناشف صغيرة مغموسة بالماء الساخن لليدين وأخرى بالماء البارد للوجه كوسيلة للإنعاش.

وغرف الفندق مؤثثة كأحدث الفنادق في العالم وبه أجنحة خاصة وغرف بسريرين وأخرى بسرير واحد وحمام خاص وملحقاته. وكل غرفة مفروشة بسجاد فاخر وفيها جهاز تليفون وجهاز راديو ومكتب صغير عليه أدوات الكتابة وشمعدان أنيق وكرسي كبير وطاولة صغيرة عليها آنية الزهور وإناء الماء المغلي وأواني الشاي، والصينيون لا يشربون ماء الصنابير ولذلك يغلى الماء ويوضع في أواني زجاجية تشبه الزورق إلى حد بعيد ثم هم يفضلون الشاي الأخضر الذي يعد في حينه ويقدم بلا

سكر وله نكهة جميلة وطازجة إلا أنه غريب على ذوقنا وطعمه قريب جداً من طعم الحرجل إلا أنه أقل مرارة. وتضع موظفة الفندق الجرائد يومياً تحت عقب باب الغرفة كل صباح.

والزهور كما قلت عنصر هام في الحياة الصينية ولذا فإن أي مكان في أي مسكن صيني لا يخلو منها: وكذلك اللوحات معظمها حول الطفولة والحصاد وزهور الكربسانييم المشهورة.

وبالفندق رحبت بنا للمرة الثانية هنج -كان ينج وهي مديرة مكتب الاتصال للاتحاد النسائي الديمقراطي الصيني بالنيابة وهو صاحب دعوتنا، وكذلك السيدة شومان سن من مكتب الاتصال أيضاً وكانت الأولى حازمة تتصرف دائماً بإحساس بالمسؤولية، ذات صوت ضخم بعض الشيء، والثانية مبتسمة دائماً حتى لتكاد عيونها المشروطة تختفي طوال الوقت وقد أصبحنا أصدقاء منذ اللحظة الأولى.

قسم برنامج الرحلة بحيث يستطيع وفدنا أن يرى أكبر كمية تمكنه من قطاعات الحياة في الصين الشعبية وقد رؤي استشارتنا في البداية عن الأماكن التي نود رؤيتها بشكل خاص. وكان أول بند في البرنامج الذي استوعب كل دقيقة من وقتنا:

المدرسة الابتدائية رقم (1)

بالاختلاط مع مدرسة بكين

أسست هذه المدرسة في سبتمبر 1954م وقد أُعيدت تسميتها إذ كانت تسمى باسم الشارع الذي تقع فيه. وقد بنيت أساساً لكي تكون معبداً ثم حولت إلى مدرسة ضَمَّت 300 طالب وطالبة.

ولم يكن لمثل هذه المدارس نشاط مدرسي يذكر على فداحة المصروفات المطلوبة وخاصة بالنسبة لأطفال العمال وكانت تُعطي الأولوية للبنين ثم بعد ذلك للبنات، إلا أن الوضع تغير بعد التحرير واستطاع أبناء وبنات العمال الانتظام بها وارتفع عدد الطلبة إلى 1142 طالباً في النصف الأول من عام 1956م.

وازدادت أوجه النشاط على نحو ما هو متبع في جميع مدارس الشعب في الصين. ويشرف على هذا النشاط أخصائيون ذوو خبرة علمية في متابعة اهتمامات الأطفال للتعرف على مواهب كل منهم من خلال ذلك ثم تنميتها لديهم حتى لا يصعب الاختيار عليهم مستقبلاً.

وبالمدرسة غرفة للموسيقى بكامل المعدات الحديثة والمحلية وقاعات الرسم والرياضة والميكانيك والفلاحة والكيمياء،.. إلخ.

ولم يكن الطلبة وحدهم الذين عانوا قبل التحرير فقد لاقت أُسر التدريس في جميع المدارس صعوبات جمة، منها ضالة رواتبهم وإرهاقهم بالعمل وفقرهم الشديد الذي لم يساعدهم على إنتاج أحسن ما يستطيعون. إذ كان المدرس يستنزف بلا شفقة ليؤدي واجبه الضخم والحيوي تحت أسوأ الظروف المعاشية الاجتماعية منها والاقتصادية.

كانت تصل بعض المرتبات في العهد البائد إلى ما يعادل قيمته 19 رطلاً من الدقيق وحسب. وكانت تدفع على أقساط جزاء!

إلا أن حكومة ماو جاءت لتنصف معلمي الشعب فرفعت مرتباتهم وحفظت عليهم كرامتهم التي هدرتها مهانة الفقر والحاجة. وأصبح راتب المدرسة يبدأ من 70 ين، ما يعادل 27 جنيهاً أي ما يعادل 500 رطل من الدقيق ويتدرج ليصل إلى 1100 ين.

ولم يكن رفع المرتبات هو الإنصاف الوحيد وحسب وإنما تتمتع المدرسات في الصين الشعبية بمختلف الضمانات الاجتماعية كالعلاج

المجاني ولهن الحق في طلب إعانات أو قروضٍ ولهن أيضاً الحق في إجازة شهرين للوضع بأجر كامل.

وقد كان وضع المدرسين السياسي عامة قبل التحرير منحطاً للغاية حتى ليقال الملح رخيص والباريكار "وهي المركبات التي يجرها الإنسان" أرخص، أما المدرسة فهي الأرخص. وقد كانت البيوتات الصينية الأرستقراطية تقتنيهن كتحف خالية من الحياة للإفادة منها ولا تملك الاستفادة.

وتعني الدولة بتنمية خبرة المدرسين أيضاً إذ أنها ترسلهم في بعثات إلى الاتحاد السوفيتي وتشجعهم على استزادة التحصيل في السياسة والفن والتدريب المهني –وللمدرسين أكبر دور في تطوير الفنون القومية وبعث القديم منها.

وللمدرسات مهارة خاصة في التصوير والأشغال الخشبية والبناء وتصليح الطائرات والرسم والجغرافيا وعلم الطبيعة والموسيقى الوطنية والغناء والرقص.

ذلك أن العناية بأجيال الصبية القادمة تتطلب أدق العناية وأكثرها أصالة. وعليه فإن المدرس وهو المسؤول الأول في تربية هذه الأجيال مطالب بكل الإجادة وبأقصى ما يستطيع أن يقدم من مثالية وقدرة للنشء.

وقد أكسب هذا كله الطلبة خصوبة فكرية وخبرة اجتماعية من إجادة النقاش والإقبال على متابعة الأحداث العالمية والمساهمة في الحركات الوطنية وغير ذلك من مظاهر الوعي السياسي والثقافي المبكر.

ولعله من الجدير بالذكر الإشارة إلى العلاقات الحميمة بين المدرسين والطلبة وحب العمل الأصيل الذي يقبل عليه الطالب دون الشعور بأنه مُسَيَّر أو مكلف بأن يعمل.

السلام

ولأن السلام شعار رسمي لجمهورية الصين الشعبية ولكوني كنت أحمل رسالة وتحية جمعية السلام السودانية كعضو في تنفيذيتها كانت أولى رغباتي زيارة مقر الهيئة في بكين ولكني انتظرت على مضض إذ كان لا بد أن أفعل حيث أن برنامجنا مزدحم للغاية.

وبانتظار زيارة مندوب الهيئة لنا بالفندق حسب التقليد الصيني فكرت في القيام بالزيارة أولاً.

وقد كان في صحبتي العزيزة مس لن وكان مقر الهيئة لا يبعد كثيراً عن فندق السلام.

بناء كبير يشبه قصر إقطاعي حوله أكبر حديقة يمكن أن تضم بناء. وفي الداخل تأكد حدسي فالنقوش والقاعات والسقوف تحمل ترفاً أكثر مما تستطيع طبيعة مثل هذه المعاهد.

واستقبلنا مندوب الهيئة ومسز لن اللذان ردَّا الزيارة في اليوم التالي على الطريقة الصينية أيضاً.

حركة السلام في الصين

لاشك أن قُوى السلام في العالم تعتز بالصين الشعبية كحصن جبار للسلم يدافع عن 654 مليون صيني بإيمان وإخلاص أصيلين نبعاً وتغلغلاً في نفس كل صيني مع ضراوة التجارب المُرَّة التي مرت بها وبوطنه حتى أصبحت مجرد ذكرى الحرب والاحتلال ألد أعدائه من طول ما اكتوى به.

لقد بدأت القوى الشعبية في الصين تتجه نحو سلام كامل تتوقف عليه جميع انتصاراتها وتبتدئ عنده جميع البدايات الواثقة النهاية.

إن الشعب الصيني مسالم بطبعه يتطلع إلى السلام كهدف جليل من الصيحة الأولى التي أطلقها صن يات صن كالسحر في الشعب الممزق المهان آنذاك وربما قبل هذا التاريخ عندما كان الصيني أحقر من الحيوان عند المستعمر أيام أن كانت أرضه محرمة عليه بلافتة "الكلب والصيني لا يدخلان!".

لقد تلازمت حركتا التحرير والسلام منذ بدء الثورة في الجنوب. الثورة على المستعمر المستبد وعلى الأوضاع المهينة. والسلام إطار انتصارات الكبرى.

حماية هذه الانتصارات في الأرض الخصبة التي تنمو عليها الورود والقمح وتزدهر المحصايل.

وقد تأسست حركة السلام في شكلها النهائي كهيئة شعبية جامعة في أبريل 1949م أي قبل الانتصار الكامل للثورة التحريرية الكبرى بستة أشهر.

ومنذ البداية أخذت الحركة على عاتقها مهمة المبادرة بجميع الخطوط المتعلقة بصيانة استقلال الصين وحماية سلمها في الداخل والخارج، الذي يستوجب في المحل الأول وبالضرورة الدفاع عن السلام العالمي والوقوف ضد أي تدخل أجنبي في شؤون البلدان الداخلية، بمعنى آخر مناهضة الاستعمار العالمي. ذلك أن الاستعمار هو الدافع الأول والمثير لجميع الاستفزازات وسياسة الحرب الباردة والتوتر الدولي وأخيراً إشعال الحرب لترويج تجارة الأسلحة لصالح الاحتكار الاستعماري وللضغط على البلدان الصغيرة بهدف خلق معسكرات وأحلاف عدوانية ومناطق توتر مستمر.

وكانت أول مقاومة خاضتها حركة السلام الصينية بعد التحرير ضد الأمريكان وحول التدخل في شؤون تايوان وأسلوب أمريكا في استعمار جديد لأرض صينية متبعة في ذلك الأسلوب الذي اتبعته اليابان من قبل. وقد وقف الشباب الصيني في وجه هذه المحاولة وحال دون تقدمها عام 1950م. ومنذ تلك اللحظة أصبح الاستعمار الأمريكي هدفاً رئيسياً تناهضه حركة السلام الصينية وتحمي استقلال الوطن منه إلى أن كانت سنة 1954م وبمساعدة جميع شعوب العالم وخاصة الشعوب العربية وباتحاد مع الشعب الكوري تمكنت الصين من إيقاف تهديدات الولايات المتحدة المستمر واتخذت حركة السلم هناك شعاراً لها محاربة الاستعمار الأمريكي والدفاع عن سلم العالم وحماية خط العرض 38.

وكانت لجنة السلام الصينية في طليعة حركة التطوع وتنظيم كتائب الفدائيين إبَّان حرب كوريا، كذلك أخذت على عاتقها مهمة حمل المؤن والذخيرة والخطابات للمحاربين بالجبهة وكانت النساء الصينيات يقمن بأوفر نصيب في هذا الشأن ومن ذلك تمريض الجرحى والتخفيف عن أسرى الحرب الكورية من الجانبين دون أي تفرقة وذلك بالتضامن مع منظمة الصليب الأحمر الصيني والمنظمات الأخرى. وكانت مثل هذه الفترات من تاريخ الحركة تعد أبرز مراحل نشاطها ومنها تكتسب الحركة ازدهاراً يرجع إلى ازدياد شعور الناس بالتصاق الحركة بمصالحهم الحيوية وواقعهم القريب. وفي 1950م أيضاً نظمت لجنة السلام الصينية حملة لجمع التوقيعات للتضامن مع الدول الكبرى للدفاع عن السلم وقرارات مؤتمر الدول الآسيوية الذي عُقِد بنيودلهي وقد جمعت له 200 مليون من توقيعات الشعب الصيني.

وحملة أخرى ضد تسليم اليابان جمع لها 300 مليون توقيع. وفي 1955م وقع 400 مليون مواطن على نداء إيقاف التجارب النووية وهذه الحملات استطاعت أن تلف الناس أكثر فأكثر حول الحركة وتزايد نشاط الهيئة وتضاعفت أرقام العضوية.

ووصلت الحركة أوج نشاطها وازدهارها إبَّان الدعوة لمؤتمر الدول الآسيوية الذي حضرته 16 دولة منها سوريا ومصر كمراقبتين وكانت قرارات المؤتمر الخمس نواة للانشاشيلا ومؤتمر باندونج فيما بعد.

وتساند حركة السلام في الصين جميع الحركات التحررية وتدعو لاستقلال الدول الصغرى واحترام سيادتها ثم تنمي روح الصداقة والتعاون الدولي بين الأمم بإرسال الوفود إلى المؤتمرات والمهرجانات الدولية. وقد اشتركت الصين في جميع مؤتمرات السلم في هلسنكي ووارسو وستوكهلم وفينا ويرأس وفودها غالباً كوموجو كشخصية عالمية لها وزنها الدولي وهو رئيس اللجنة ونائب رئيس مجلس السلم العالمي ورئيس أكاديمية العلوم الطبية في بكين أيضاً،.. إلخ.

وتأخذ حركة السلم في الصين على عاتقها أيضاً مهام اجتماعية إبَّان فترات السلام، من ذلك قيادة حملة إبادة الذباب المشهورة وحرب الجراثيم والعمل على حل المشاكل والقضايا المحلية القريبة من مصالح الشعب ووجدانهم، ومن خلال ذلك لا تفتأ تشرح للجماهير الذين تعمل بينهم والذين يزدادون التصاقاً بها، تشرح لهم مضار الحرب وأهدافها والمبيدات لها وكافة التفاصيل المتعلقة بها، فيزداد الوعي السلامي والسياسي بين الناس وتتضاعف تجمعاتهم المخلصة حول مبدأ السلام الذي هو البيئة الطبيعية لنمو وتوكيد انتصارات الشعب.

والفلكلور الصيني يُعنى بإبراز هذا الجانب في جميع أوجه الفنون القومية ومن أشهر الأغنيات الشائعة في الصين أغنية مطلعها "الأم وان تحب السلام".

يطلق اسم السلام على كثير من المؤسسات الكبرى كالمدارس ودور الحضانة والفنادق. وفندق السلام –الذي نزل به أول وفد نسائي سوداني زار الصين الشعبية في أكتوبر 1956م، من أكبر فنادق بكين وقد بني في 100 يوم لاستقبال الوفود المشتركة في مؤتمر بكين للسلام عام 1952م "أكتوبر" وحضره 317 وفداً و37 مراقباً عن 37 دولة.

وكذلك الحمامة الرمزية تمثل شعاراً تقليدياً هي من أبرز وحدات الزخرفة المعمارية والفنية فالفنادق والمدارس والقاعات في الجامعات والمعاهد والمكتبات العامة جميعها مزدانة بالحمامة والغصن مطبوعة أو منحوتة وأيضاً الأشغال اليدوية التي تزخرف بها ملابس الأطفال وأغطيتهم وأطراف المناديل،.. إلخ.

ذلك أن هيئة السلام الصينية تضم كبار الفنانين والأدباء والشخصيات السياسية والعلمية وأعضاء الحزب الشيوعي والمنظمات الشبابية والنسائية.

وتُعنى حركة السلم بتعريف الشعب الصيني على جميع الأبطال الوطنيين والعالميين الذين أحرزوا نجاحات إلى جانب السلم والذين كان لإنتاجهم الفضل في إبراز بشاعة الحرب والدفاع عن السلام وجميع الشخصيات السلامية أمثال الرسام الصيني الأشهر تشن باي شو الذي توفي مؤخراً عن أكثر من 100 عام. والشاعر الفارسي عمر الخيام وبتهوفن الموسيقار الجرماني والأديب الفرنسي فكتور هوجو والموسيقار البولندي تشوبان وغيرهم.

وتدعو الحركة لتوثيق الروابط والحركات بين جميع الأمم بتبادل الزيارات والدعوات للحركات السلامية في البلدان المختلفة وذلك للاستفادة من خبرات ومعلومات الآخرين. وزارت الصين عدة وفود سودانية في الأعوام الأخيرة بدعوة من هيئة السلام الصينية وغيرها.

ولا شك أن هذه الزيارات ومثيلاتها مما يقوي الروابط بين البلدان وقد أوجدت بالفعل روح صداقة قوية بين شعبنا والشعب الصيني العظيم الذي ما يفتأ يعلن استعداده لمؤازرة جميع الشعوب في كفاحها من أجل نيل استقلالها ولعلنا لا ننسى ولا نغفل دور الشعب الصيني إبَّان الاعتداء الثلاثي على مصر وتضامنه مع الشعوب العربية في شتى المناسبات وهو يمد يده القوية الهائلة لجميع الشعوب المُحبَّة للسلام وللحرية ويساندها كجزء من دفاعه عن استقلال الصين وحمايَة سلمها.

معهد الأقليات القومية ـ بكين

الصين وطن شاسع يضم عشرات من القوميات المختلفة وقد كان ذلك من الأسباب التي ساعدت على إبقاء الصين تحت يد المستعمر والمستغل خلاله سياسة فَرِّق تسد التي كان ينتهجها الاستعمار متضامناً مع خونة البلاد من الحكام.

وكان التناحر والتنافر بين أبناء القومية الواحدة والأخرى هو مفتاح ولوج هذه البلاد الغنية التي بدا الاهتمام بها أول ما بدا على أيدي إمبراطورية بريطانيا فيما وراء البحار والمحيطات أيضاً. وكان ذلك في عهد الملكة فيكتوريا وعن طريق أحد القراصنة الإنجليز الذين يبحثون عن مغامرة في المحيطات، لعل مركبه الشرود ضل طريقه ليلقي به في شانغهاي.

كان ذلك فاتحة عهد جديد مظلم بائس لأبناء الصين الوادعين في عراقتهم.

وظل وضع الصين الجغرافي بقومياته المتعددة منذ ذلك اليوم وابتداء من حرب الأفيون حتى التحرير مشكلة يعاني من جرائها أهل الصين أيما معاناة.

وكان طبيعياً أن يتجه أطباء الشعب إلى مواضع آلام ذلك الشعب لاستئصال سرطانه حتى يشفى ويخرج سالماً صحيحاً واعياً معافى من جميع أدوائه وقد أسس معهد الأقليات القومية في يونيه 1951م لتنمية روح التضامن بين القوميات وتقدير فلكلورها ثم دراسة مناهج الحياة بين هؤلاء الأقوام على نحو تفصيلي حتى يصبح مركزاً يسمح بإقامة دعائم الحكم الصحيح المجدي القريب من وجدان الناس، دونما إشعارهم بأن هذا الحكم إذ ذاك مفروض عليهم، وأن واجبهم يحتم أن يقبلوه عن

ضعف أو إرغام أو أي سبب يبعد قيد أنملة عن الحميمة المثالية التي سعى ويسعى الحزب الشيوعي الصيني إلى خلقها بين الشعب وبين حكومته، باختيار هذه الحكومة من أبناء الشعب وبإرادته المطلقة ومن أجله أساساً.

ومعهد الأقليات القومية يشمل عدة أقسام وكليات دراسية لتدريب أبناء الصين في مختلف الحقوق القومية. وقد بدا المعهد بـــ 200 طالب في فصل دراسي واحد ثم تدرج حتى ضم الآن 3 آلاف و8 كليات ومدرسة وسطى وفصلاً تحضيرياً وكلية سياسية لتخريج الإداريين القوميين، بشرط أن يكون لهؤلاء مؤهلات علمية خاصة. ويضم المعهد 50 قومية! كما يتألف من المعاهد الآتية:

1- معهد اللغات: بالصين 50 قومية إلا أن 10 منها فقط لها لغة خاصة مكتوبة وهذا المعهد يُعنى بتنمية هذه اللغة في أقل من 3 سنوات.

ومع وجود كل هذه القوميات فإنها أقليات عديدة، إذ أن قومية هان وهي القومية التي تمارس لغتها كلغة رسمية للبلاد، هذه القومية تؤلف 93,94% من السكان، ويؤلف الباقي مجموع القوميات الباقية.

وأغلب طلبة المعهد من خريجي المدارس الوسطى عند التحاقهم به، كما أن أغلب الطلبة الهانيين يلتحقون بالمعهد عند تخرجهم لتدريس هذه اللغات، ذلك أن المعهد يتضخم باطراد ملموس.

2- معهد التاريخ: ويقوم هذا المعهد أساساً بالبحوث فيما يتعلق بتاريخ القوميات، وتستغرق مدة الدراسة فيه 5 سنوات، وهي أطول مدة للدراسة بالمعهد. ويؤلف عدد الطلبة الهانيين "قومية هان" أكبر نسبة في هذه المعاهد، لقلة المدارس الوسطى الخاصة بالأقليات الأخرى في الوقت الحاضر.

3- الفصل التحضيري: هذا الفصل التحضيري أنشئ أساساً لإعداد الطلبة لدخول المعهد، إذ أن مشكلة التعليم عموماً كانت تتعثر إلى حد ما في تأهيل الطالب الراغب في الالتحاق بالمعهد، ومن هنا أوجدت هذه المرحلة التحضيرية.

وهذه المرحلة التحضيرية تشمل:

1- مدرسة وسطى ليلية وتقبل ما بين 8-28 سنة.

2- مدرسة وسطى متوسطة.

3- مدرسة وسطى ثانوية.

وتدرس المواد بها باللغة الهانية التي تقابلها الترجمة المطلوبة ثم يتدرج الطالب حتى إجادة الاثنتين معاً -إذ أن الهانية هي لغة البلاد الرسمية، والهانيون هم القومية الكبرى بالصين.

وقد كان التعليم في الماضي القريب مقصوراً على أبناء الأرستقراطية الذين يجلبون لأطفالهم مدرسين أجانب، أو عن طريق المداخل الخاصة المقصورة على هؤلاء فحسب. وبقيت الأقليات القومية مهمة بدرجة مؤسفة، حتى لم تكن هناك مدارس إطلاقاً لهؤلاء الأقوام.

ولذا أسست الدولة 32 مدرسة تحضيرية محلية من هذا النوع لغرض تخريج أكبر عدد ممكن، بمؤهلات تسمح لهم بدخول المعهد، الذي يؤهلهم بدوره لمهمة نشر ما تلقوه في مناطقهم.

وهذا الفصل التحضيري له دلالة عظمى، إذ يعني أن الحاجز اللغوي الذي ظل لأجيال طويلة ستراً يحجب العلائق ما بين قومية وأخرى ويفتح ثغرة للاستعمار البغيض، هذا الستار قد تمزق: كما يعني أيضاً أن المتخرج من هذا الفصل يملك المقدرة

على الالتحاق بالمدارس الوسطى ثم الجامعة. ومن هنا بدأت أول خطوة في طريق المحو الشامل للأُميّة في الصين.

4- معهد الأبحاث: ويقوم هذا المعهد بالأبحاث التاريخية حول الميزات القومية والعادات والتقاليد والفنون. ويتخرج من هذا المعهد سنوياً ما لا يقل عن 60 باحثاً.

والتعليم في هذا المعهد والسكن والعلاج بالمجان وتتكفَّل الدولة بجميع نفقات الطلبة الأخرى. كما تنظم سياحات داخل البلاد وخارجها وذلك لتطبيق الفكرة التي تقوم من أجلها هذه المعاهد، وتوسيع مدارك الطلبة عن طريق هذه الأسفار النظامية التعليمية.

ولهؤلاء الطلبة معتقداتهم الدينية والفكرية المختلفة فمنهم المسلمون والبوذيون والماركسيون والأميون وعشرات في هذه القوميات يدين أهلها بالإسلام.

وجميعهم يحترم معتقدات ومبادئ الآخر، كما يحرص المعهد على الملاءمة بين هذه المذاهب واحترامها بتسهيل ممارسة هذه العقائد، فهناك أئمة وجوامع للمسلمين الذي يصومون شهر رمضان، وتقام لهم الاحتفالات الخاصة بمختلف شعائرهم الدينية، وتوجد مطاعم مختلفة منها مطعمان للمسلمين وآخر للبنانين، وتُحترم الحرية الشخصية والذوق والعادات.

وتوجد 8 معاهد للأقليات بالصين في الوقت الحاضر. وهذه المعاهد تشمل -كما قلنا- مدارس وكليات في مختلف المقاطعات، مثل كليات الطب والتدريس وتربية الماشية والإدارة والرياضيات والتاريخ والمساحة والجغرافيا. وتبلغ نسبة الطالبات بهذا المعهد حوالي 30% ورأينا كيف يحضرن الدروس في ملابسهن القومية الزاهية المغطاة تماماً بالتطريز والزخارف البراقة في بعض الاحوال، ثم القامة البسيطة للغاية في الأحوال

الأخرى. وهذا التقليد يغلب عادة على كلية وطالبات المرحلة التحضيرية، ثم يتقلص بالتدريج إلى اللباس الصيني الأكثر عملية. ويتألف من جاكت مقفول بأكمام طويلة وأزرار صفراء من القماش القطني الكحلي، مع بنطلون طويل من نفس القماش، أو نفس البنطلون مع بلوزة بيضاء أو مُزهرة بسيطة. وهذا الملبس مع عمليته وقلة تكاليفه يكسب الجميع مظهراً متساوياً، فتلبسه الفلاحة والطالبة والعامل ومدير المصنع، وحتى ماو وشو اين لاي كانا يلبسان هذا الزي في جميع حفلات التحرير التي حضرناها بلا أدنى اختلاف حتى في النسيج. والمدير يرى العاملات والعمال والموظفين، جميعهم يخرجون من أماكن عملهم ويتجهون إلى أماكن الترفيه، بنفس الأردن الكحلية، اللهم فيما عدا الحفلات النادرة، فإن المرأة تلبس الفستان المقفل ذا الأكمام الصغيرة الضيقة المشقوقة من الأسفل مع الاحتفاظ بضفيرتيها الطويلتين متدليتين أو مربوطتين بشرطان زاهية.

وقد بدأت المرأة الصينية في اتخاذ هذا الرداء زياً لها منذ بدء الثورة، حين كان النساء والرجال يعملون جميعاً في نفس الصفوف، وكان لزاماً عليها وتجاوباً مع نداء الرئيس ماو أن تترك تنورتها الضيقة إلى رداء عملي.

سوا ترك إحدى السيدات وهي نائبة رئيسة الاتحاد النسائي الصيني –سيدة في الخمسين تتحدث عن هذا الرداء وسبب تعلقه به، تقول:

"لقد اعتدنا هذا الزي منذ أيام الثورة وقد صعب علينا تركه بعدها لأنه ارتبط في أذهاننا بذكريات الكفاح، هذا بالإضافة لبساطته وقلة تكاليفه وهو يساعدنا على التغلب على الفوارق الطبقية فنحن كما ترين نلبسه جميعنا ابتداء من الرئيس ماو حتى أصغر عامل في الدولة، إننا جميعاً متساوون ويجب أن نحرص على هذا الزي العزيز.

وتسريحات الشعر أيضاً تأخذ في البساطة كلما طالت مدة التحاق الفتاة بالمعهد، فهي تتخلى عن الفورمات والتسريحات المعقدة التي

تفضلها نساء القوميات المختلفة: ومن هذه التسريحات ما يشبه إلى حد بعيد الطريقة السودانية في تمشيط الشعر، وهي جمعه في ضفائر دقيقة طويلة حول الوجه، وهذه التسريحة تضفي على المرأة لمحة بدوية.

وطبيعي أن تكون هذه العملية مرهقة ومعقدة وغير عملية تماماً، إذ أنه لا يمكن تصور طالبة أو أي امرأة اشتراكية مهتمة بالقيام بمسؤولياتها اليومية في بيتها أو في المصنع أو الجامعة أو أي مكان آخر، يمكن تصور هذه الإنسانة تنفق أكثر من ساعة في عملية التمشيط هذه، هذا بالإضافة لصعوبتها.

وقد لاحظت بشكل ظاهر أن المرأة في المدينة الكبيرة لا تحرص كثيراً على جدائلها الطويلة وأنها تتخلّص منها. "برغم كون هذه الضفائر عينها كانت وربما لا تزال أحد عناصر الجمال الصيني -بالإضافة إلى الأقدام الصغيرة المعلبة" وتفضل نساء المدن، وهذا أوضح ما يكون في بكين وشانغهاي، الشعر القصير المنتظم على أحدث التصميمات: ويوجد في شانغهاي مثلاً أكثر من صالون للشعر في الشارع الواحد تشرف عليه أخصائيات ماهرات.

وبعد، لقد قابلنا بالمعهد نساء جئن إلى بكين وربما رأينها لأول مرة كان هؤلاء الفتيات يخجلن من بحلقتنا فيهن ويرتفع الدم إلى وجوههن المستديرة كفطائر القمح، كوجوه قرويات هولندا، وأقرب من حيث أرديتهن إلى رداء هؤلاء أيضاً.

ورأينا أيضاً فتيات أخريات بسيطات في وعيهن وثقافتهن يتحدثن في السياسة والحزب الشيوعي والسلام وماو بثقة واعتزاز كبيرين.

جامعة بكين

تقع جامعة بكين في الطرف الغربي للمدينة وعلى مساحة من الأرض أشبه بالمستعمرة أو شبه المدينة. ولها أسوار رمادية مرتفعة تقطع السيارة "بسرعة 30 كم" أقصر أضلاعها في 60 دقيقة ومساحة الجامعة بعد توسيعها بلغ 134,000 متر مربع.

- أسست جامعة بكين في 1886 أي منذ 63 عاماً. وقد لعبت هذه الجامعة دوراً هاماً وخطيراً عام 1919م بعد ثورة العمال في روسيا القيصرية إذ كان الثوار الصينيون يجتمعون بالجامعة ويلوذون بها كلما اشتدت المطاردة حولهم.

وكان ماو يعمل موظفاً بمكتبة الجامعة، ومنذ 1912م إلى قيام الجمهورية الصينية الشعبية استمرت الجامعة تقدم يدها وقلبها للثوار واستمر العمل على تدعيم الحركة الوطنية بشكل منظم منذ ذلك الحين حتى سنة 1952م وقد التقى ماو في الجامعة بالرجلين اللذين غيرا مجرى حياته وهما: تاتشاو أمين المكتبة وشين تورهسيو عميد كلية الآداب "وزعيم الفكر والأدب اليساري" ثم منشئ الحزب الشيوعي، ما خَفَّف عنه عنت الحياة في تلك الأيام، فقد كان يعاني من عدم الاستقرار الفكري والمادي معاً. وقد كتب يقول "كنت لا أكاد أجد مكاناً لأتنفس في غرفة يشاركنيها سبعة آخرون".

ولكن..

"كنت أقضي وقتي هرباً من غرفتي الضيقة أتأمل الثلج فوق زهر التفاح في حدائق بكين. كانت أزهار الشمال تعنتني" وكان ماو يقرأ بنهم الأدب القديمة وكل ما يقع تحت يده من كتب، ويتأمل و"كنا نترفع عن مناقشة شؤون الحياة اليومية العادية": كان أقل موضوع نقبل النقاش فيه هو الطبيعة البشرية -المجتمع الإنساني- مستقبل الصين- الموقف الدولي". وكما كان يجد في أزهار التفاح مهرباً من إمكانياته

الحياتية فقد وجد في تاتشاو النافذة التي أطل منها على العالم المتفتح العريض من خلال النظرة الماركسية. وجد ماو في الماركسية الإجابة على جميع تساؤلاته والأرض الصلبة التي بددت ضياعه.

وفي عام 1952م أجرى تعديلاً في الأقسام المختلفة للجامعة. ولا شك أن جامعة بكين ما زالت تقوم بدورها في توكيد الثورة ودعم جذورها. يتخرج أفواج الخبراء والفنيين والعلماء الذين يلعبون دوراً إيجابياً في تطوير المجتمع الصيني نحو حياة أفضل تستغل فيها جميع موارده وتنمي اقتصاده الذي سلبته إياه إقطاع ورأسمالية وبيروقراطية حكومة مانشو وشانج كاي شيك.

وفي عام 1952م أيضاً استقدمت معامل وأجهزة لتدريس العلوم الطبية والأبحاث. وقد عملت الثورة فيما بعد على تطوير هذه الأقسام ومدها بأحدث الأدوات لمتابعة أبحاثها العلمية والاجتماعية. وقد خطت الصين فعلاً مسيراً واسعاً في هذا المضمار بفضل العلماء الصينيين. وتحت توجيه الاتحاد السوفيتي ومساعدته الرشيدة استطاعت الصين أن تنتج حاجتها من الأدوية والمستحضرات الطبية وهي الآن تصدر البنسلين ومختلف العقاقير إلى خارج البلاد. وقد ازداد عدد هذه المعامل من 20 قبل الثورة إلى 49 بعدها، ويتخرج من هذه الكليات الجامعية في بكين وحدها 380 طالباً سنوياً.

وبالجامعة أيضاً 14 قسماً للمحاضرات الأدبية، وأسرة التدريس بالجامعة تتكون من 1071 أستاذاً ومحاضراً، تؤلف النساء خمس هذا العدد.

ويبلغ عدد الطلبة الأجانب في جميع الكليات بجامعة بكين 300 طالب. كما يبلغ تعداد أبناء الفلاحين الذين يلحقون بالجامعة سنوياً ما يعادل 22% من مجموع الالتحاق.

والعلاج للطلبة بالمجان، وكذلك الدراسة والسكن ويدفع الذين يستطيعون نفقات الوجبات اليومية، إلا أن الدولة تمنح الذين لا يستطيعون إعانات سنوية، وتضمن للجميع أعمالاً حسب مؤهلاتهم بعد التخرج.

وتقوم حول الجامعة أيضاً مساكن ومدارس متوسطة وأولية ودار حضانة ومستشفى لأبناء عمال وعاملات الجامعة، ويُمنح آباؤهم مجانية الدراسة بها فيما بعد. كما يجري العمل على توسيع الرقعة المخصَّصة لمساكن هؤلاء العمال نظراً لازدياد أسرهم بطبيعة الحال. ولهؤلاء العمال جميع الضمانات الاجتماعية والمعيشية التي لأي عامل آخر في الدولة. ومكتبة جامعة بكين من أكبر المكتبات في المدينة وأعرقها وبها 180 ألف مجلد كانت قبل الثورة 4 آلاف وحسب، وبها أيضاً مكتبة عربية استطعنا التعرف فيها على بعض المجلات المصرية، مثل المصور والمصري والكاتب، وبعض المحفوظات الدينية القديمة ثم هناك ركن حديث بالمكتبة يحتوي على أغلب ما تخرج المكتبات العربية من كتب ومؤلفات. وعلى هذه المكتبة يشرف أخصائيان في اللغات الشرقية، ويتكلمان العربية الفصحى بطلاقة أذهلتنا لأول وهلة، فقد فوجئنا بأن السيدة والسيد يعرفان العربية وكنا نحن نتحدث عند دخولنا وأبعد شيء عن ذهننا أننا نتحدث لغة مفهومة لدى هؤلاء القوم المتواضعين على نحو يبعث فينا التفاؤل الشديد حيالهم.

وقد أهدت إحدى زميلاتنا للمكتبة كتاباً من تأليفها تلقاه المسؤول بفرح كبير جعلنا نراجع أهمية هذا المؤلف في أذهاننا، وعما إذا كنا قد قللنا من شأنه فعلاً، فلم نحفل به مثل هذا الاحتفال الذي بعث بسيل من كلمات الشكر والامتنان العظيمين من فم ذلك الصيني المهذب الجم التواضع لجميع أبناء هذا الشعب.

وكان علينا بعد تجوال مختلف في أنحاء الجامعة أن نرحل إلى قاعة استقبال واسعة لمقابلة الطلبة الذين انتظرونا منذ وصولنا.

ومن المكتبة حتى قاعة الاستقبال اخترقنا للمرة العاشرة جانباً من جوانب الحديقة الكبيرة بشكل قد يضل المرء فيه سبيله. وتتوسط أركان الحديقة بحيرات عليها زوارق ولنشات لنزهة الطلبة. والحديقة تبلغ روعتها حداً لا يمكن وصفه إذ يغلف منها حقول شاسعة من الزهور الصينية النادرة والنباتات الغريبة المتسلقة منها والشوكية. ولكل كلية ركن خاص بالحديقة يستنبت منه الطلبة ما يدون من نبات.

وكانت القاعة مكتظة بآلاف الطلبة الذين يبدو بعضهم في سن يصعب معها التصديق بأنهم جامعيون. وكان مشهداً فريداً ذلك الذي قوبلنا به. فما إن وصلنا إلى مدخل المكان حتى دوت الأرجاء بالتصفيق الحاد الذي استمر أكثر من دقيقتين، ولم نملك إلا مشاركتهم التصفيق على الطريقة الصينية. وكان كلما توقف بدا من جديد حين نبدأ في التصافح والتعارف.

وكنا في هذه اللحظات المفعمة بالود نتعانق وكأننا نعاود صلاتنا التي قطعتها أسباب قهرية لا نملك ردها.

وطلبت مني الزميلات أن أتحدث وكانت لحظة رهيبة بالنسبة لفكري الذي شَلَّه الانفعال الدافق. ولا أذكر بالضبط ما قلت يومها وأنا أقف في وسط القاعة بجوار تمثال نصفي لبوشكين وحولي مئات من العيون الباسمة والوجوه الحبيبة. والذي أذكره أنني قلت ما أحسن ما تركت مشاعري تتكلم عني. وكان التصفيق يقاطعني كلما أصبحت الكلمات أكثر طواعية.

وفي النهاية، وعندما لم أحتمل كل هذا الفيض من المشاعر التي تبعث في النفس الحنين إلى البكاء، في النهاية قلت: إنني لا أصدق ولا أتصور أنها المرة الأولى التي نلتقي فيها وإننا حين تحملنا الطائرة عائدين سيكون ذلك آخر عهدنا بهم.

وإنه سيظل عسيراً علي دوماً أن أصدق أننا نلتقي لأول مرة وقد يكون ذلك لآخر مرة أيضاً.

الصحة

كنا نتحدث حول الاشتراكية المطبقة في الصين وجَرَّنا الحديث عن مدى الانطباق في مبدأ "لكل حسب حاجته"- وما هي حاجة الإنسان، والإنسان الاشتراكي بالذات. فالحاجة مقسمة إلى ثلاث: الضرورية والنفعية والكمالية. وكنا نتساءل إلى أي مدى وصل الحزب الشيوعي بالصين؟ هل ما زال يجاهد حول تحقيق الحاجة الضرورية؟ الطعام والعلاج، وهل ينجح في تحقيق ذلك؟ هل ينجح الحزب الشيوعي الصيني في توزيع العمل والعرض بتكافؤ على الشعب الصيني. وهل نجح في إيجاد فرص العلاج والرعاية الطبية، لكل فرد في كل شبر في الصين البلد ذي الطبيعة العنيفة الذي لم تحرك ويلات الشعب شعرة في جسم حكامه السابقين، والذين أثبت لهم هذا الشعب أن الصين تحت قيادة ماو والحزب الشيوعي تطبق الاشتراكية على نحوٍ جديد ومختلف؟ فإلى أي جديد وصل بهؤلاء المسار؟ هل تخطوا فعلاً مرحلة الحاجة الأولى إلى الحاجة الثانية؟

بهذه الأسئلة كنا نتطلع بعيوننا المستفهمة إلى منجزات الحزب التي أحرزها نحو هذا الهدف.

إن الصين في ظل السلام الذي تنتهجه سياسة لها تستطيع بمواردها ومقدراتها إحراز أروع النهايات.

وقد كنا وعلى طول مسارنا في جميع الأماكن التي زرناها: المناطق الدافئة منها والحارة والجليدية -كنا نبهر بجمال الأطفال ومظاهر الصحة البادية على الوجوه المبتسمة. حتى العجائز المسنات اللواتي تسير الواحدة

منهن كما لو كانت تخجل بقدمها الصغيرة -حتى هؤلاء- كن صحيحات الأبدان، ومن العسير التكهن بسن إحداهن الصحيح.

والعناية الطبلية المنظمة التي تلقاها المرأة الصينية في ظل النظام الاشتراكي دعت النساء إلى الحرص على النسل والتجاوب مع حركة تنظيمية مما رفع نسبة أعداد السكان في سنوات قليلة إلى مليون نسمة.

وأولى ثمرات هذه العناية هي استقرار وضع المرأة العاملة وتسهيل الصعاب التي تعترض طريقها في سبيل القيام بدورها كعاملة ومواطنة مجدة. وكما قلنا في السابق إن الدولة تُعنى على نحو أشمل بالأجيال الجديدة. وتبدأ هذه العناية بالطفل منذ اختلاجه جنيناً في الأحشاء.

كانت الحالة الصحية في الصين إبَّان حكم الخائن شان كاي شيك تدعو للرثاء، وكانت نسبة الذين يحصلون على العلاج أو أي عناية طبية لا تتعدى الـــ 14% من عدد سكان ذلك الوطن المنكوب بالأوبئة والفيضانات ومختلف الكوارث، بالإضافة إلى انحطاط المستوى العام الاقتصادي والثقافي ما يزيد الحالة سوءاً، فعدم الوعي والفقر الشديد يؤديان حتماً وعلى نحو بارز وخطير إلى قلة المناعة وانعدامها ضد الأوبئة والأمراض، ولذلك عنيت الدولة أول ما عنيت برفع المستوى الصحي لأبناء الصين الشعبية، وكانت مستشفيات الشعب والوحدات العلاجية والوقائية بالإضافة إلى نشر الوعي الصحي في البلاد أولى ثمرات جهاد الثورة تحت القيادة الرشيدة للحزب الشيوعي الصيني. وفي سنة 1942م عندما تم التحرير النهائي للصين الشعبية بدا فوراً توسع مطرد نحو شمول جميع المناطق في مشروع تصميم الخدمات الطبية. وبقانون 26 فبراير 1951م الخاص بتأمين العمال اتسعت الرقعة المشمولة فعلاً، وأصبح في متناول 19 مليون عامل بجميع أفراد عائلاتهم التمتع بعناية صحية مجانية أو شبه ذلك. وفي بداية 1953م اتسعت الرقعة أيضاً لتشمل رقعة سكانها 96 مليوناً من المناطق الصناعية والأقليات القومية وفي نفس العام أيضاً وفي 27 يوليو على وجد التحديد شمل نظام العناية الطبية، المجانية جميع

العمال والموظفين وأعضاء المنظمات السياسية والمؤسسات العلمية. وقد جندت وزارة الصحة 340 جراحاً من أجل تنفيذ هذا المشروع، وأنشئت عدد مستشفيات يبلغ مجموع أسرَّتها حوالي مليون سرير، ومصحات تبلغ عدد أسرتها عشرة آلاف سرير، وخمسمائة وحدة صحية وعلاجية وعيادات ومحطات إسعاف.

وفي سنة 1953م استطاعت وزارة الصحة إيجاد من 6-8 أسرة لكل ألف شخص، وفي 1953م أيضاً أصبح في متناول جميع طلبة الجامعات التمتع بالعلاج المجاني.

وإلى جانب العلاج والعناية الصحية تُعنى الدولة بنشر الثقافة الصحية بين جماهير الشعب، فتقام دروس صحية في الهواء مدعَّمة بالصور واللوحات لتشرح فوائد الصحة البدنية والرياضية لذلك تعلق المنشورات المصورة حول الحشرات ومبيداتها ومن أشهر هذه الحملات حملة إبادة الذباب التي كانت من نتيجتها القضاء على الذباب تماماً.

ولم أذكر أنني رأيت إحداها مرة طوال رحلتنا التي زرنا فيها مختلف مناطق البلاد: كذلك حرب الجراثيم ومشروع تجفيف المجاري والترع المهجورة وهما سبب الأوبئة والأمراض. ولعقاقير الصين شهرتها العريضة وبعضها مكتشف ثابت الجدوى منذ زمن بعيد "القرن الثامن قبل الميلاد".

ومن هذه العقاقير ما هو مستخرج من العقارب والثعابين "وأم أربعة وأربعين". ومن هذه العقاقير أدوية ناجحة بنسبة 90% لعلاج شلل الأطفال وهو علاج قديم في الصين، وكذلك عقار لمعالجة سل العظام، كما أن طريقة الوشم لعلاج الأمراض العصبية قد أثبتت بعد تطوير طفيف فائدة عظيمة. وفي المخطوطات الأثرية عُثر على كثير من المكتشفات الطبية الناجحة المستخرجة من الأعشابَ وبعض الأحجار الساحلية والقواقع. وقد ذكر جَرَّاح صيني قديم يدعى "بين تشويه" جس النبض في (403-221) قبل الميلاد. وقد انتشرت هذه العملية في كوريا

واليابان إبَّان القرن السادس الميلادي. وفي البلدان العربية ورد ذكره عند ابن سينا في كتابه "القانون" "في القرن التاسع". وقد أخذه عنه الأوربيون في القرن الثامن عشر. وفي المؤلفات الهندوكية القديمة لم يرد جس النبض إلا في القرن الثالث عشر. إذاً فقد كان الصينيون أول من توصل لهذا الاكتشاف.

ورد في أسفار الصين القديمة قصة الطبيب "بين تشويه" الذي أنقذ الأمير "كيو" عندما أُغمي عليه، واعتبره مجلس أطبائه قد فارق الحياة، وقد اتهم "بين تشويه" بممارسة السحر والشعوذة وقد كان أول من لخص حصاد التجارب الطبية ودونها.

مستشفى ولادة

تقام المستشفيات الخاصة بكل منطقة على رقعة قريبة من الآهلين.

ويقوم مستشفى الولادة التابع للقسم الخاص بالصحة بالمجالس البلدية على رقعة شاسعة من الأرض محاطة بما يشبه الغابة الصغيرة من الأشجار والرياض: وهو بناء أبيض من 3 طوابق ويحتوي على 80 غرفة للولادة يجري فيها حوالي 300 إلى 350 عملية ولادة يومياً، وهذا المستشفى مخصص لنساء العُمَّال والموظفين بالمنطقة، وتتم هذه العمليات بنجاح بنسبة 95%.

وبالمدرسة قسم لتدريب طلبة الطب.

وهذا القسم يقوم بتفتيش منتظم وتزويد المعلومات الحديثة للقابلات اللواتي يمارسن مهنتهن في منازل المنطقة.

وفي سنة 1952م ابتدأ باتباع طريقة الوضع بدون ألم وهي تجربة استحدثت في الاتحاد السوفيتي لأول مرة. وبين 1952م – 1955م

ارتفعت نسبة النساء اللواتي وضعن بدون ألم إلى 95% من مجموع الحالات وجميعها بلا استثناء ناجحة. وتتلخص هذه الطريقة في:

1- تدريب الأمهات على بعض التمارين الرياضية بمساعدة الممرضات في كورسات على ثلاث مراحل.

أولاً: دراسة الأعضاء التناسلية وطريقة تكوين الجنين داخل الرحم.

ثانياً: تدريس ماهية الألم الذي يصاحب بعض مراحل الحمل وتجنبها بتمارين رياضية معينة.

ثالثاً: دراسة تحركات الطفل خلال عملية الوضع وكيفية تفادي الألم الناتج عن ذلك.

وفائدة هذه الطريقة للأمهات الوالدات تتلخَّص في:

1- شعور الأم بان الولادة عملية طبيعية وليست موتاً أو "قصار أجل".

2- تكتسب الأم ثقة في المستشفى ومن الممرضات من خلال المعلومات والتجارب التي مَرَّت بها خلال الكورس.

3- تقصير مدة الوضع.

4- تمكين الأم من مغادرة سريرها إذا رغبت في خلال 24 ساعة من الوضع.

5- هذا زيادة على أن الأطفال الذين يولدون بهذه الطريقة أكثر صحة والأمهات أكثر عافية وقوة.

وبالمستشفى 35 داية "قابلة".

وتتراوح فترة التدريب الواحدة بين 3 سنوات أو اكثر.

مستشفى الأطفال

تأسس مستشفى الأطفال أول يونيو سنة 1955م وقد أهداه الرئيس ماو لوحة موقعة يوم الافتتاح. كان هناك مستشفيان قبل التحرير يحتويان على 303 سريراً، وكان العلاج بهذه المستشفيات باهظاً لا يطيقه سوى الأغنياء: إلا أن الثورة اعتنت أول ما فعلت بالجانب الصحي للنشء، ومن هنا أنشئت عشرات المستشفيات الخاصة بالأطفال على أحدث الأنماط العالمية. وهنا المستشفى ذو الأروقة البيضاء والخضراء الفاتحة التي تضيف جواً أنيقاً مريحاً تزيده مظاهر النظافة المثالية أناقة وهدوءاً، يحتوي المستشفى على 14 عنبراً، 500 سرير وتنقسم العنابر حسب الأعمار ابتداء من سنة إلى 3 سنوات، من 3 إلى 14 سنة كما أن هناك عنابر الأمراض المعدية، وهذه مقسمة على نحو يختلف بعض الشيء إذ أن بعض الحالات تستوجب العزل التام للمريض. وهذه تحتوي عنابرها على سرير أو سريرين على الأكثر، ومعظم أطباء المستشفى من النساء، ويقولون في ذلك إن المرأة أم قبل أن تكون طبيبة.

وبالمستشفى أيضاً مكتبات للأطفال، وقد رُوعي فيها أيضاً القصص والصور المرحة البهيجة. لذلك توجد حجرات للأمهات المرضعات وتبلغ هذه الغرف حوالي 100 غرفة: كذلك توجد استراحات للزوار المسموح لهم بالزيارة 3 مرات أسبوعياً.

ويشمل المستشفى 50 مكتباً للممرضات موزَّعة بحيث تستطيع الممرضة المسؤولة وضع القسم تحت إشرافها من مكانها دون الحاجة إلى التجول فيه. وهناك المطبخ والثلاجة الكبرى في الأدوار الأرضية، وتوزع الثلاجة حوالي 90 زجاجة لبن 3 مرات يومياً من مختلف أنواع الألبان حسب متطلبات المرضى من الأطفال، من ألبان مجففة ومن ألبان مخففة ولبن البقر والماعز والغنم، أما المطبخ فيعد كل شيء بداخله ابتداء من الخبز حتى منتجات الألبان. وتعد الواجبات بدقة ونظافة تامتين وتحت

إشراف أخصائية. والمطبخ كذلك يقوم على مجهود النساء ما عدا استثناءات قليلة- الخباز والجزار. وتتناوب الممرضات العمل بمستشفيات الأطفال على فترات قصيرة، إذ أن الأطفال يحتاجون إلى رعاية أدق، ومطلوب من الممرضة بذل أقصى مجهود حتى لا ترهق بساعات عمل طويلة، لها يوم إجازة أسبوعي، كما تعمل وردية مسائية تقارب الأسبوع من كل شهرين، وتتقاضى الممرضة تحت التمرين 50 ين وبعدها من 100 إلى 200 ين، وبالمستشفى دار حضانة ومدرسة أولية ملحقة لأطفال الممرضات والطبيبات، ويوجد أربع كليات تمريض ببكين، ولعلني لا أنسى الابتسامة القلبية التي تحملها جميع العاملات والعاملين في مستشفيات الأطفال بدون استثناء. وقد لاحظنا ارتباط الأطفال بطبيباتهم وممرضاتهم بدرجة كبيرة. وقد علقت الآنسة مرات، وهي رئيسة الممرضات، بأن جميع الأطفال يصبحون أصدقاء بعد خروجهم ويأتون لزيارتنا مع أمهاتهم كثيراً.

وأحب أن أضيف أن الأطفال فيما عدا حالات قليلة يبدون أصحاء لنا في مظهرهم، بوجوههم الطفولية وصفائهم لدرجة أننا كنا نسأل عن مرض كل واحد منهم متسائلين هل هو حقاً مريض يحتاج لعلاج؟! أما حديقة المستشفى فإنها بديعة ويشترك الأطفال الناقهون في فلاحتها وري أزهارها في فترات الصباح ومواعيد الفسحة. ويمرحون في أرجاء الحديقة المشمسة وحول التماثيل الرائعة المنبثة على نحو مدهش بين الخمائل والأحراش المنسقة بعناية.

الشمال الشرقي

عندما ندق الأرض بأرجلنا ترتجف الأرض، وعندما نستنشق الهواء يفسح النهر بعيداً لنا درباً، وعندما نرفع أيدينا يرتعب الجبل الجبار.

وعندما نصعد قدماً لا يجرؤ أحد على اعتراض طريقنا.

نحن العمال قوتنا لا تقهر.

عندما داس الاستعمار البريطاني لأول مرة أرض الصين عن طريق المبشرين والمغامرين، كانت وسيلته في غزو هذه القارة الجبارة العريقة الحضارة والتربة ذات الكنوز المخبأة والمجهولة، كانت وسيلته غاية في الحطة والدناءة. انتهت هذه المؤامرة اللاإنسانية بدخول الصين العظيمة في معاهدات مهنية كانت الإمبراطورية البريطانية طرفها الثاني.

وأشهر مواقف بريطانيا المشينة في هذه الحقبة من تاريخ الصين هي حرب الأفيون التي استعملت فيها بريطانيا أحط الأساليب. وكانت حرب الأفيون بداية مرحلة لانهاية لها من الضغط والاستغلال، نتج عنها عهد استتراف بشع لجماهير الشعب وربما كانت حسنتها الوحيدة هي خلق طبقة من العمال للمصانع التي أنشأها المستعمرون أصحاب الامتيازات في شنغهاي والمدن الأخرى.

ومن هنا نستطيع التأكد من أن الطبقة العمالية في الصين أرق وأقدم من البورجوازية الصينية إذ أنها نشأت أساساً قبل وجود هذه الفئة التي تمت مع تطور الوضع الطبقي المكون في المحل الأول من الرأسماليين والعمال في المدن والإقطاعيين والفلاحين في الريف. وسنتحدث عن قصة حرب الأفيون في فصل آخر.

وبعد:

لكي نتحدث عن العمال لابد أن نتابع الرحلة من بكين إلى الشمال الشرقي للصين وهي المنطقة الصناعية والتجارية معاً. ففي مدن الشمال الشرقي تقوم صناعات الحديد والصلب والنسيج والفحم، وتوجد معظم موارد المعادن المنجمية في شرق الصين والشمال الشرقي بنوع خاص، كما يوجد البترول في الشمال الغربي على نحو أكثر سخاء. ذلك أن بالجزء الجنوبي من الغرب تقع منطقة التبت ذات المناخ البارد الجليدي.

آن شان

كان القطار يخترق بنا سهولاً شاسعة من المزارع فيزداد الجو رطوبة كلما توغلنا شمالاً. حتى إذا ما قاربنا نهاية الرحلة كان لزاماً علينا أن نضع كل ما لدينا من ملابس ثقيلة فوق أجسامنا الإفريقية المقرورة بالرياح الجليدية.

وصلنا شيسبانج في ترحيب من لجنة الاتحاد النسائي للمقاطعة والقرى المجاورة، والترحيب دائماً ابتسام وورود لا حصر لأنواعها وألوانها الوادعة دائماً انفعالات جياشة وأناشيد حماسية وأذرع تلوِّح حتى مدى البصر.

وقد نزلنا بفندق، في قلب المدينة أيضاً، مؤثث على نحو حديث مريح بُني بعد الثورة، وهو من فنادق السواح يمتاز بالبساطة والنظافة التي هي طابع البيوت الصينية عموماً. وهي تُعطي جواً منزلياً إذ أن لكل غرفة قاعة جلوس بها مقاعد ومكتبة بالإضافة إلى الحمام والشرفة التي لم نفتحها. و لم نحاول ذلك مطلقاً وذلك لبرودة الجو التي دعتنا إلى تفضيل بقاء كل اثنتين في غرفة.

وفي المساء حضرنا حفل استقبال تقليدي أقامته لنا نساء اتحاد مدينة فوش ومقاطعة ليوننج. وكانت المائدة الصينية أبرز مظاهر الحفل. وقد قضينا حولها أطول زمن قدمت لنا خلاله عشرات الأطباق من أطعمة المقاطعات المميزة: وألذها جميعاً خبز يشوى على البخار وهو عبارة عن كرات صغيرة من العجين ويشبه لباب الخبز البلدي. كذلك حلوى فوشن الشهيرة: وقد غَنَّت لنا بعض السيدات وغنينا لهن أيضاً على ضوء شموع القاعة الصينية.

وفي الخارج كان الليل بارداً والمدينة تغمض عيناً كل دقيقة، إلى أن ساد الصمت والضوء الشاحب كل الأماكن المحيطة بنا، وغزا البرد قاعتنا الأنيقة أو لعله الإرهاق الذي ذهب بمقاومتنا فقمنا لنصعد إلى غرفنا الدافئة في الأعلى ونام معظمنا بكل ما يمكن الاحتفاظ به من ملابس وما يسمح بحرية التقلب.

وليوننج أكبر مصادر الحديد والصلب والوقود: والصلب والحديد لمصب التصنيع الثقيل. ومن هنا كانت أهمية هذه المقاطعة ومثيلاتها بالنسبة لمشاريع الصناعة في الصين. وسياسة تطوير الصين نحو الاشتراكية تعتمد في تحقيقها أساساً على الصناعة الثقيلة وتصنيع الزراعة.

وتهتدي حكومة الشعب في مركزة البناء الصناعي بخمس مبادئ وهي:

1- إنشاء المصانع الكبرى حول أماكن الوقود وموارد الخامات وذلك لاقتصاد مصروفات النقل.

2- موازنة الزراعة والصناعة في كل إقليم على نحو أفضل.

3- رفع مستوى اقتصاد أقاليم الاقليات القومية لإزالة أسباب التخلف.

4- رفع درجة التخصيص الإقليمي في نطاق الاقتصاد القومي يساعد على تحرير الصين من قبضة الاقتصاد الأجنبي.

5- مركزة الصناعات الثقيلة بمنأى عن المراكز العسكرية التي تنصب عادة حول السواحل.

وعلى هدي هذه المبادئ أنجز مشروع الخمس سنوات (1953-1957م)

وفي مقاطعة ليوننج تقع مدينتان صناعيتان من أكبر المدن الصناعية في الصين، وهما شينيانج، ثم فوشن مدينة المناجم المفتوحة.

مدينة صناعية فيها مليونان من السكان كانوا قبل التحرير 25 ألفاً فقط: وقد تم تحرير شينيانج من الاستعمار الياباني سنة 1945م بواسطة جيش التحرير الصيني بقيادة ماوتسي تونج أو بمساعدة الجيش الأحمر السوفيتي.

وشينيانج عاصمة مقاطعة ليوننج. والمدينة كبيرة حتى لتضارع أكبر مدن الصين إلا أن مظاهر التخريب العسكري ما زالت تترك بصمات سوداء على مواضع من جسم المدينة الفتي. وقد قامت حركة أعمال هائلة ساهم فيها جميع سكان المدينة لإعادة بناء ما تهدم منها. وموضع شينيانج مما يزيد في أهميتها، فهي مركز ثقافي وملتقى شبكة واسعة للمواصلات لوجودها في أخصب الأقاليم الزراعية. فهي تنتج الحرير والحبوب والقطن والتبغ والبقول كما أنها مركز صناعي نظراً لوجود المواد الخام بكثرة في المقاطعة وهي أشهر أماكن استخراج الصلب والفحم والحديد.

وقد ساعد حماس الأهالي على مساعدة الحكومة في إعادة بناء هذه المدينة الشاملة "Comprehensive" مدار الاقتصاد والسياسة والثقافة في مقاطعة من أغنى وأهم المقاطعات.

استطاعت سينيانج التغلب على جراح الغزو بعد الحرب العالمية الثانية فاستعادت مكانها وكسرت قياساً في إتمام مشروع السنوات الخمس الأولى بإنجازه قبل المدة المحددة له بمعدل 14 مصنع زيادة عن النتاج المقرر.

وقد كان حماس فلاحي المقاطعة قياسياً إذ انضم 88% من الفلاحين إلى التعاونيات الزراعية عند أول نداء وجه لهم في سنة 1956م. وفي نهاية 1956م أصبح 98% من المزارع من درجة الجماعيات.

وقد انضم التجار والصناعيون أصحاب رؤوس الأموال الفردية. في مؤسسات أهلية حكومية.

وفي مدينة شينيانج 500 ألف عامل 10% منهم من النساء.

وقد كان برنامج الزيارة لهذه المقاطعة يشمل زيارة أماكن الصناعات الثقيلة.

ماكينة كل 60 دقيقة.

بتخصيص هذا المصنع في بناء المخارط أي الماكينات التي تنتج ماكينات أخرى أي وسائل إنتاج الآلات وهذا ما يُسمى بالصناعات الثقيلة.

وقد كانت الصين تمكن مصانع البضائع الاستهلاكية إلا أن فكرة التصنيع الثقيل ظلت نهاية فاشلة منذ أسرة ماتشو حتى حكم الكومنتانج. حتى أصبح الفكر السائد أن الصين بلاد زراعية وعرة التصنيع. وهذا هو أحد مصانع الحديد والصلب في سينجيانج ينتج ماكينة كاملة في كل 60 دقيقة ويعمل متوسط إنتاج الورشة الواحدة 2300 خراط سنوياً.

العمال

يبلغ عدد العمال في هذا المصنع 5800 عامل 10% منهم من النساء.

وينقسم العمال إلى درجات من حيث العمل والإنتاج ومن ثم الأجر.

هناك العامل أو العاملة المتقدم أو المثالي.

والإنتاج هو الذي يحدد الدرجة، والدرجة هي التي تحدد الأجر.

ويتراوح أجر العامل بين 104–53 ين. ومتوسط الأجر 85 سين ويتناوب العمل في المصنع 3 ورديات، 8 ساعات كل وردية، وله إجازة

أسبوعية وأجر مضاعف عن كل ساعة إضافية ورقم قياسي يصبح بعده عاملاً متقدماً أو مثالياً يضاعف له أجر الساعات الإضافية.

وللعمال وسائل تثقيف ودراسة لأوقات الفراغ وذلك لمساعدتهم على زيادة معلوماتهم الفنية، وتشجع الدولة العمال المجتهدين بشتى الوسائل.

وهناك فصول اقتصاد سياسي وفنون وآداب وموسيقى ومكانيكا،.. إلخ.

هذا عدا وسائل الراحة الأخرى والأندية والملاعب والسينما والمسارح المتنقلة إذا كان المصنع في الضواحي أو بعيداً عن المدينة –أما من ناحية الامتيازات فهي:

لأبناء العمال دور حضانة متاخمة للمصنع ومستشفى، وتحظى العاملة المرضعة بساعة لإرضاع طفلها الذي تقوم أخصائيات برعايته لها طوال ساعات عملها في دور حضانة ملحقة بها غرفة استراحة.

وهناك عربات لنقل الأطفال والأمهات من مساكنهم إلى المصانع، وتسمى هذه العربات "الأم والطفل". كما توجد عيادات متفرقة للعناية بالأمهات الحوامل اللواتي يراعى عدم إجهادهن بأعمال مرهقة أو خطرة، ولا يسمح لحامل بالعمل قرب النار أو مصادر اللهب الحار. وتعطى العاملة 56 يوماً قبل الوضع وأخرى مماثلة بعده بأجر كامل كما تعطى إعانة الطفل الأول.

والملاحظ أن حركة التصنيع قد رفعت من شأن النساء على نحو مدهش، فأنت ترى كثيراً من العادات القديمة قد زالت مثل الانفعالية والشعور بالنقص وعدم المساواة.

لقد أتى عهد التصنيع ومشاركة المرأة الرجل في العمل جنباً إلى جنب بانتصارات باهرة ناتجة عن التجارب العملية للحياة اليومية للأسرة

"والقانون طبعاً يسند ذلك دوماً". وقد تخلت النساء عن ضفائرهن الطويلة إلى تصفيفه عملية، ومن الملابس المعقدة إلى البسيطة والهادئة.

وأجمل ما رأينا في المصنع الحديقة الرائعة التي يساهم في تنسيقها العمال أنفسهم. وقد رأيت كيف يمجد العمال الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي في الشعارات المكتوبة بالنباتات المختلفة.

وقد دهشت لشعار ترجمته تحية لعيد أول أكتوبر "وكانت احتفالاته بعد أسبوع من يومذاك". وفي مكان آخر تحية للوفد النسائي السوداني "سونجوافوني" وسنجو معناها سودان وفوني بمعنى نساء وكلها مغروسة على الحشيش الأخضر بنباتات صغيرة حمراء الورود.

لقد هزني ذلك لدرجة بعيدة وشعرت بتواضع شديد أمام هؤلاء العمال الأعزاء.

مساكن العمال

ومن المصنع لم نحتج سوى مسيرة قصيرة للوصول إلى مستعمرة المساكن، وبالحقيقة لم يكن يفصلها عن المصنع سوى مساحة صغيرة. في نهايتها تقع دار الحضانة والمستشفى، ويليها مساكن العزاب ثم أسر العمال.

وكان المكان كله يفوح برائحة الكلس المطفي ومظاهر البناء الجديد.

وتتألف هذه القرية أو شبه المستعمرة من مبان سكنية تحتل 285 كيلو متراً مربعاً من مساحة القرية البالغة 600 كيلو متراً مربعاً وتؤلف المباني 183 عمارة تسكنها 7 آلاف أسرة، ولكل أسرة شقة مؤلفة من غرفتين كبيرتين ودورة مياه كاملة بماء ساخن وبارد ومطبخ يستعمل أيضاً كغرفة طعام.

وباقي مساحة المستعمرة موزع بين المنتزهات ودارين للحضانة ومستشفى وأجزخانة وسوقاً محلية من مخازن السلع "وبازار" مخازن خردوات وخلافه. وهناك أيضاً مدرستان ابتدائية "أولية" ومدرسة ثانوية. وتعداد سكان القرية يبلغ 33 ألف شخص يشاركون جميعاً في تقويم مجتمعهم الصغير.

فهناك حَلْقات لمحو الأمية بين أُسر العمال ومدارس ليلية "لأوقات الفراغ" بها 9 مدرسين و8 فصول و 80 حلقة لمحو الأمية موزعة بين الأحياء. وتضم هذه الحلقات 1000 طالب.

وطرق مواصلات القرية تتألف من الباصات "للأمهات والأطفال غالباً" والترام ثم الدراجات وهي من الوسائل الرائجة بين العمال.

وسوق المستعمرة يحتوي على جميع السلع التي يمكن أن يحتاجها إنسان ابتداء من الضروريات حتى آلات الموسيقى والمكتبات ومخازن الأقمشة. وأذكر أننا أقبلنا على تلك الأقمشة والمفارش بشدة وحصلنا على قطع فنية من تطريز اليد وأشغال الإبرة رائعة. وأثمانها نسبياً زهيدة للغاية.

وتجد عملية التسوق رواجاً كبيراً بين النساء كما هي العادة عندنا أيضاً فترى الأمهات يضعن أطفالهن خلف أو أمام دراجتهن أو بجوارهن في الباص أو الترام في طريقهن إلى السوق. أو ترى الأُسر متوجهة نحو السينما التي تعرض 3 أو 4 أفلام في الأسبوع أحدها خاص بالأطفال. كذلك تحظى المستعمرة بزيارات منتظمة من السرك أو الفِرَق المسرحية.

وجميع المظاهر الثقافية متصلة على نحو واع بفكرة السلام والصداقة. فموضوعات الأفلام والمسرحيات وبرامج الإذاعة التي تنقل إلى منزل كل عامل عن طريق الجهاز الذي يملكه أو جهاز النادي أو المصنع، وحتى أشغال وتطريز رسومات الأطفال من ملابس وأغطية جميعها تحمل الحمامة الرمزية شعار السلام الحبيب لدى الجميع.

ومن أروع اللوحات التي تجدها في أكثر البيوت لوحة الرئيس ماو بين أطفال على وجوههم العافية والبشر يهدونه باقات من الورد اليانع الندي. وفوق الجميع حمامات بيض تحلق من سماء صافية منيرة بشمس مشرقة أبداً. ولعل هذه اللوحة التي تتوسط أغلب الأماكن التي زرناها تمثل الصين الجديدة وأهدافها وشعاراتها: الخير والبشر للأجيال القادمة تحت سماء صافية بالسلام والطمأنينة حول مظاهر الصداقة للجميع.

إن أقل الصينيين حظاً من التعليم يملك وعياً كافياً لترديد هذه الشعارات بثقة وإيمان عميقين. وقد سمعناها من جميع من لاقينا، وكانت زوجة أحد العمال وهي زوجة وحسب تطهو عندما فاجأها وفدنا.

وبعد أن جلسنا جميعاً في حجرة الجلوس وهي تحتوي على المكتب أيضاً رحبت بنا السيدة في حرارة بالغة. وحدثتنا عن بيتها وزوجها وأولادها. وبالنهاية تطلعت إلى صورة ماو المطلة في صدر المكان فقالت: إننا ندين بكل هذه السعادة وهذا الخير لقائدنا ماوتسي تونج، إننا نحب السلام دائماً، أنا وزوجي وجميع الأمهات من أجل أطفالنا!

هذا الدعاء الحار سمعناه من الجميع بلا استثناء حتى زوجات بعض الإقطاعيين والأرستقراطيين اللواتي قابلنا في شنغهاي.

دائماً الحزب الشيوعي والرئيس ماو والسلام، وكذلك المساعدة السوفيتية.

والغريب أن الحزب الشيوعي يضم عشرة ملايين فقط من مجموع ستمائة وخمسين مليون. ولكن الحزب الذي جعل حياتهم أعياداً لا تنقطع من العمل والفرح.

فوشن

فوشن ثاني مدن ليوننج ومن أكبر مدن الفحم ثم البترول في الصين.

وتتميز فوشن بمناجم الفحم المفتوحة. وتعداد سكان فوشن 740 ألف نسمة ويبلغ عدد أُسر العمال 8% من مجموع السكان الكلي. كما يبلغ عدد العاملات 23 ألف عاملة.

في فوشن 4 مناجم للفحم مفتوح سطحي واحد. كما توجد مناجم البترول أيضاً. ومصانع وورش للترميم وإصلاح ماكينات رفع الخامات المنجمية.

وأحوال العمال مطابقة لأحوال الجميع في الصين ولهم نفس المميزات عدا استثناءات الضمانات لعمال المهن الخطرة وهؤلاء لهم ضمانات مرتفعة وساعات عمل أقل، وكذلك وسائل ترفيه وعلاج أكثر.

وبما أن عدد العاملات في فوشن كبير فلهن 25 دار حضانة، بعضها بجوار أماكن العمل وبعضها في الأحياء. وقد كانت هذه الدور قليلة قبل التحرير حتى قدرت نسبة الوفيات من الأطفال نظراً لقلة العناية بـــ 39.6% وأغلبهم يموتون بداء التتانوس الناجم عن التسمم بجراثيم الآلات. وقد قَلَّت هذه النسبة عموماً إلى 1.9% كذلك حرصت الدولة على زيادة دور رعاية الأيتام وعيادات الحوامل بنسبة مكافئة لعدد الأمهات والعاملات في فوشن، وتوجد أكثر من 46 عيادة. ومن أبرز الأشياء في فوشن بالإضافة إلى الوسائل المتقدمة للعناية بالنساء اشتراك النساء على نحو بارز في مقدرات المدينة. فأغلب المسؤولين الذين قابلنا من النساء: مدام تيانج مثلاً المشرفة وقد رَحَّبت بنا وتولت شرح أطوار العمل المنجمي، وكذلك نائبة مدير مصنع استخراج البترول. كما يبلغ

عدد النساء 35% من مجموع نواب المدينة لمجلس الأمة البالغ عددهم 4 آلاف.

وتوجد في فوشن 24 مدرسة ثانوية كانت قبل التحرير 3، و300 مدرسة ابتدائية كانت قبل التحرير 25 مدرسة. ويبلغ عدد الطلبة في المدارس الابتدائية 70 ألف طالب.

أشياء تبهر وتترك المرء فاغر الفم مدهوشاً. معلومات بهرتنا للحد الذي اكتسبنا معه مناعة ضد الدهشة والانبهار إلا أن الذي لم نملك – حتى النهاية– تعوده هو تواضع هؤلاء القوم الجم. تواضع يتركك في أضيق زاوية تستطيعها من التضاؤل حيال هؤلاء العمالقة المتواضعين 300 مدرسة 70 ألف طالب، 4 آلاف نائب، 1200 نائبة عن مدينة "في أعوام" فكيف عن شبه القارة الصينية في أعوام أيضاً. هذا ما حاولت دائماً التطاول إلى تخيله شامخاً محققاً كأجمل حقيقة من أجل الصينيين ومن أجلنا، جالباً السعادة والكبرياء لربع سكان المعمورة والسلام للأرباع الثلاثة الباقية.

وبعد الترحيب، توجهنا إلى أرض المنجم الذي يشغل مساحة دائرية واسعة يستعمل المصعد الكهربائي للنزول والصعود منها وإليها. وكذلك نزولي على قضبان حديدية تجذبه بكرات في برج على السطح.

ويبدو القاع من أعلى سحيقاً شاحباً يميل إلى السواد.

وعلى الجدران تتميز طبقات الأرض المختلفة من لحاء ثم صخر ثم فحم ثم أعشاب زيتية يستخرج منها البترول وطبقات أخرى كلسية بيضاء وخضراء.

وقد كان هذا المنجم ملكاً لليابانيين الاستعماريين حتى نوفمبر 1948م حين عادت ملكيته إلى أيدي أصحابه.

وقد اكتشفت في عام 1914م وعمره الآن 42 عاماً "في أكتوبر 56" ويبلغ طوله 6,600 متر مربع وعرضه 1,500 متر مربع وتبلغ أضيق

الفتحات 700 متر والعمق حوالي 200 متر تزداد باضطراد مع عملية الحفر.

وينتج نوعين من الفحم.

فحم الوقود والاستعمال اليومي ويبلغ سمك البطانة ما بين 120 متراً و40 متراً. والزيت الحجري ويستخرج من لحاء رخو يتواجد في طبقات ومتوسط كثافة اللحاء 80 متراً يعطي منتوجاً من الزيت قدره 10%.

وهذا الزيت الحجري يستخرج آلياً بعد نزع اللحاء وتحريره بعملية كيميائية ميكانيكية.

وقد كان عمال المناجم قبل التحرير أسوأ العمال حالاً. وأبشع القصص التي تُروى عن الإنسانية هي قصص عيشهم وضعته.

ومن كلمات أغنية قديمة تروي حال تعاستهم قبل التحرير:

إذا جاء رجل إلى الشيخ جنج

فإنه يبيع هدومه. والملابس الجديدة تصبح قديمة

والقديمة تصبح خرقاً. والفراش يحترق

من تحت بفعل حرارة النار السفلى

وطعامه من فطائر الامياز الذي يضخم

الجسم بالورم. حتى ليظن أنها تسمنه وتشبعه

ولكنها فطائر لا يحبها حتى الحيوان

ومن هنا ترى أن أي شيء يعتبر ترفاً مقاساً إلى ما لاقاه هذا الشعب الجبَّار من عنت ومذلة. 2وإنه جدير ومستطيع اسطع النجاحات.

وقد أضيف البيت التالي إلى الأغنية:

ولكن ذاك كان عهد مضى

إلى الأبد. وهناك إمكانية الحياة

اليسيرة ثم الرفاهية في القريب

يقول مدير المصنع الذي استقبلنا: لم يكن هناك سوى النار والدخان والماء الأسود عندما تسلمنا المصنع من اليابان و لم يمض وقت قصير حتى أعاده العمال إلى أحسن حال. أعيد البناء ورممت الآلات المدمرة ونظم العمل من جديد. كان هناك عمال وأيدي تطلب العمل وتجده دائماً تحت أقسى الظروف وأكثرها تعاسة، فلما تحسنت الأحوال ازداد الحماس للعمل وارتفع منسوب الإنتاج.

وفي سنة 1952م كان الإنتاج 3,528 طناً وهذا الرقم يعادل 3,14 أضعاف إنتاج عام 1749م واليوم يبلغ الإنتاج اليومي 15 ألف طن.

وتوجد على سطح المنجم ثلاث طبقات: الطبقة الأولى والثانية أعشاب مضغوطة بفعل السنين والثالثة رواسب ترابية عديمة القيمة، وأخيراً الفحم وقد بلغ إنتاج الفحم في عام 1955م: 24,360 ألف متر مكعب، وبعد استخلاص الفحم من الرواسب نجد أن هذه الكمية تعادل 16 ضعفاً إنتاج المنجم لعام 1944م.

وإذا قارنا الحال اليوم بما كانت عليه إبَّان حكم الكومنتانج نجدها 10 أضعاف.

وعدد عمال المنجم 14,00 عامل وقد بدئ بإعادة بناء بعض الأجزاء من جديد عام 1956م، وخصص مجهود أكبر للجانب الفني في عملية استخراج الفحم. وكذلك ناحية حماية العمال في أماكن العمل الخطرة.

وقد تم فعلاً في الفترة الماضية استبدال أدوات العمل بحديثة إلا أنها لم تستبدل جميعها بعد. وهذا مما يسبب قلة الإنتاج إذ أن هذه الأدوات عتيقة وتطلب مجهوداً إنسانياً كبيراً مما قد لا يرضي العمال.

وفي نهاية هذا العام سيبلغ الإنتاج 5 ملايين طن سنوياً من الفحم و20 مليون طن من الزيت.

وتبلغ كمية الزيت في الوقت الحاضر 8 أطنان يومياً إلا أنها ستتضاعف إلى 15 طن في المستقبل القريب.

هذا من ناحية العمل أما من ناحية العمال فيقول مدير المصنع:

كانت مساحة الأرض السكنية عام 1950م 35 ألف متر مربع، ولكنها الآن 150 ألف متر مربع. وقد زودت جميع المباني الجديدة وغيرها بالمعدات المترلية الحديثة والوسائل الصحية. وتوجد مدارس ونواد وعيادات ووحدات إسعاف وصالونات للحلاقة وميادين رياضية تقام على أرضها مباريات دورية بين أيتام المصانع والمناجم المختلفة.

ونسبة العاملات 35% ولأن عمل المناجم شاق فإن تأمين حياة العمال والعناية الصحية تتقدم بدرجة كبيرة ولا يدفع العامل أجراً على العلاج أو الدواء وتدفع أسرته 2/1 ثمن الدواء فقط وقد سُنَّ قانون يكفل العلاج والدواء بالمجان للجميع في حالات الأوبئة وللعامل ملابس مجانية للعمل.

والوعي العمالي مرتفع على نحو مدهش فقد انضموا في تلقائية وحماس إلى حملة تطوير العمال المثاليين الذين يقومون بمجهود مضاعف وقد ضمت الحفلة 1360 عاملاً وعاملة.

وهذه الحملة تستمر لفترة يحاول فيها كل عامل مضاعفة إنتاجه ويسمى هذا العامل "الذي يضاعف إنتاجه إبَّان الحملة" بالتقدمي ويسمى الذي يضاعف إنتاجه باستمرار عامل مثالي.

وقد برزت ليو بي لينغ كعاملة متقدمة لمضاعفة إنتاجها 8,58 مرات وقد ارتفع أجرها بالتالي.

وبرز أيضاً "وان راي تانج" كعامل مثالي وقد أحرز ذلك بتطوير ماكينة تنقية الفحم وبهذا وفر مجهود 248 عاملاً و37% من المصروفات وزيادة 43,4% من الإنتاج.

ومثل هؤلاء العمال يُكَرَّمون على الوجه اللائق وتوضع قصص انتصاراتهم هذه في جميع الصحف والمجلات العمالية المحلية وفي الخارج تنشر صورهم في جرائد المصنع الحائطية مع أنباء تقدمهم المستمر ويحتفلا بهم لكونهم جنوداً مخلصين في معركة تطوير المجتمع الصيني نحو الاشتراكية وبناء اقتصاد صناعي قوي، بالإضافة إلى كونهم طبقة واعية تأخذ على عاتقها مهمة القيام بحملات توعية تدعو للمبادئ الماركسية اللينية بين الكتل الجماهيرة الأخرى وخاصة المزارعين، وقد أورد ليو تشاوتسي تحالف العمال مع المزارعين في هذه المضمار بخطاب اللجنة المركزية للحزب في المؤتمر الثامن: "إن اتحاد النقابات –ويضم 12 مليون عضو– ليقوم بدور جبار في بناء اقتصادنا القومي وتطوير مجتمعنا نحو الاشتراكية". ذلك أنهم أقوى الدعائم لقيام اقتصاد صيني هو بالحل الأول درع انتصارات الثورة "وهم القوى الإنتاجية الكامنة المنطلقة من عقالها".

بيت الكبار

تحظى جميع فئات الشعب بنصيب من العناية الصحية. وكما أن للنساء العاملات نصيب عادل من هذه العناية الصحية مضاف إليها الضمانات الاجتماعية المسايرة لأكثر النظم تقدماً، كذلك يحظى الأطفال والكبار بنفس القدر من هذه العناية وتلك الضمانات. من ذلك مصحات الاستشفاء للعمال المصابين أثناء تأدية واجبهم وذوي العاهات المستديمة. كالشلل مثلاً.

ومن هذه الضمانات بيوت الكبار كما تسمى بالصين، وهي ما يمكن تسميتها عندنا بملاجئ العجزة. مع فارق كبير بين الاثنين. فبيت الكبار الذي وصلناه في صباح باكر يقع على ربوة مرتفعة تشرف على واد غابي رائع والمشهد الذي تطل عليه الفيلا خلاب للغاية وقد غرست حديقة كبيرة حول المكان تنتهي، بدغل صغير تلتفه الأشجار المحيطة. وهذه الحديقة الكبيرة اللامحدودة الأطراف تكون مع الفيلا شبه مستعمرة تسمى بيت الكبار.

وقد أسست هذه الدار سنة 1949م وكان أعضاؤها في البداية 44 نزيلاً وهم الآن 156. وقد أنشئت مع غيرها لحل مشكلة المسنين الذين وصلوا درجة الاستيداع مع احتفاظهم ببعض النشاط الذي يمكن الإفادة منه كما توجد كذلك أقسام مختلفة وإن لم تكن مجزأة لكل فئة منهم ذلك ينعكس في المعاملة لكل فئة.

وقد قوبلنا بترحيب حار من جانب النزلاء وتقدم "أكبرهم" أو رئيسهم وهذه صفة يخلعونها فيما بينهم على من يختارونه لقيادة اجتماعهم ورئاسة تجمعاتهم ويتعارفون على ذلك فيما بينهم.

رحب بنا إذن رئيسهم وقدمنا لهم واحداً فواحدة، وبالمناسبة الدار للنساء والرجال معاً. وكثيراً ما ترى كل اثنين متزاملين في جلسة صامتة

في ركن من الحديقة الواسعة أو غيرها، المرأة جالسة بهدوء ترقب زميلاً يرسم لوحة أو اثنين يتعاونان في زخرفة آنية.

وبعد الترحيب مررنا بغرف من الأجنحة المختلفة. وفي هذه الغرفة يتمتع النزيل بممارسة جميع رغباته من هوايات جمع صور أو طوابع أو رسم أو نحت. الهواية الأكثر رواجاً بين النزلاء هي هواية الرسم وتعليق الصور حول أركان الغرفة، ويليها هواية فلاحة البساتين وتنسيق الزهور من المرتبة الثانية وهذه الهواية مشتركة بين النساء والرجال معاً إلا أن قطف الزهور وتنسيقها يلقى إقبالاً اكثر من جانب النساء.

وأجمل ما يلفت النظر هو النظام الدقيق الذي يراعيه الجميع والهدوء الشامل الذي يُضفي على المكان جواً مريحاً ومحبباً. فتجد الغرف منسقة على نحو مدهش وبهيج معاً. فالزهور واللوحات والتهوية الصحيحة والإضاءة أبرز ما يميز المكان.

ولدى هؤلاء الكبار وسائل أخرى للتسلية غير الرسم وزخرفة الخزف وغرس الزهور. فبالدار قاعات للشطرنج والورق وأخرى للموسيقى وثالثة للقراءة ورابعة للبلياردو،.. إلخ. كما أن هناك قاعتين للاجتماع إلى جانب قاعات التدخين والطعام والاستقبال.

وشروط الالتحاق هي رغبة رجل أو امرأة بلغ الستين قضى منها 25 عاماً في العمل، خمس منها في عمل واحد.

أما بالنسبة للنساء فمشروط أن تكون قد بلغت الخمسين وعملت 20 عاماً خمس سنوات متواصلة منها في مكان واحد ويستثنى من ذلك عمال المناجم والمصانع الثقيلة، فيخفض السن إلى 55 للرجل و 45 للمرأة. وتختار الدار من يرغبون في ذلك دون التقيد بوجود أسر لهم أولاً. وتكفل لهم الدولة إعانة شهرية تحسب على أساس نسبي للمرتب الأخير وتصل هذه النسبة إلى 50% من آخر أجر تقاضاه العامل، وفي حالة استمراره في العمل عشر سنوات متوالية ترتفع الإعانة إلى 60%

من آخر أجر تقاضاه وكلما ازدادت مدة استمرار العمل ارتفعت الإعانة وعن 15 سنة تبلغ الإعانة 70% وهكذا.

وهذه الشروط لا تطبق في الوقت الحاضر على النساء نسبة لدور الإقطاع في شل اشتراك المرأة في العمل على نحو متساو كما أن عدم استمرار النساء في الخدمة لظروف الحمل والوضع سبباً من هذه الأسباب.

ويدفع التريل ما يقرب من 19 ين للطعام والمسكن والملبس والدواء والعناية الصحية. وفي حالة العجز تضمن الدار له هذا المعاش.

وفي نهاية الزيارة وقف الرجال والنساء في صفين يحيوننا بنشيد مرح يشيد بالرئيس ماو وقيادة الحزب الشيوعي الرشيدة. وقد بادلنهم تحيتهم بنشيد.

آن شان "في أرقام"

مدينة الصلب الأولى في الصين ومن أكبر المدن الصناعية.

وهي مدينة عمالية كأغلب مدن مقاطعة ليوننج وتبدو لأول وهلة كما لو تعرضت لعملية تدمير حربية.

وبالمدينة مبان كبيرة جديدة.

وتنقسم المدينة إلى ثلاث مناطق اثنتان داخل المدينة والثالثة في الخارج وهي منطقة الحديد والصلب وشركاهما مشتركة. وتتألف هذه الشركات من 59 منظمة إنتاجية تستوعب مجهود 70 ألف عامل منها 5,600 عاملة وموظفة. وعدد سكان آن شان 670 ألف نسمة منهم 300 ألف امرأة.

ويبلغ عدد العمال 80 ألف عامل وعدد العاملات 14 ألف عاملة.

وفي مناطق الحديد والصلب 31 ورشة و10 مصانع و18 مسبك وتنتج هذه الورش والمصانع قطع الغيار والأنابيب الغير موصلة والصلب المطروق أو المسكوك.

حُرِّرت آن شان في 1948م وقد كانت تحت الاستعمار الياباني والامريكاني "ربما كان ذلك سبباً في مظهر التدمير الذي تغالبه المدينة بحركة التعمير البادية".

وبعد سنة 1948م وحتى 1952م كانت هناك حركة ترميم واسعة لمناطق الصناعة بالمدينة والتي تعرضت للتخريب.

ومن سنة 1953م بدأ الإنتاج الصناعي يتضاعف وتزداد المصانع. وتوجد الآن 48 منها تساهم في تحقيق مشروع الخمس سنوات وقد ازداد الإنتاج بنسبة 3 أضعاف.

من إحصائيات آن شان فيما يختص بالعناية الصحية والتعليم والاحرازات التي تمت حديثاً في الصناعة:

كان مجموع الأراضي السكنية للعمال وموظفي المصانع عام 1949م:

3,548,589 قدم مربع.

أصبحت في 1957م: 16,933,376 قدم مربع.

كان مجموع المراكز الصحية للعناية بالطفولة والأمومة في 1950م 15 مركزاً،

وفي 1958م: 35 مركزاً

في 1950م: 2 عيادة

في 6 /1958م: 15 عيادة

في 1950م: 1 مستشفى

في 6 /1958م: 8 مستشفى

كان عدد رياض الأطفال ودور الحضانة في آن شان.

في 1949م: 1 دار

في 4 /1958م: 168 دار

كانت أجور العمال تبلغ في المتوسط شهرياً

في 1947م — 17,70 ين

في 1957م – 80,85 ين

كان عدد المدارس الأولية للجنسين:

عام 1949م: 47 مدرسة

وفي 1957م: 109 مدرسة

وعدد المدارس الثانوية للجنسين:

في عام 1949م: 1 مدرسة

في 1957م: 16 مدرسة

انطباعات عن آن شان

قضيت في آن شان ثلاثة أيام.

إلا أن صورتها لم تزل مطبوعة في خاطري واضحة وساطعة.

كل من لاقيت وكل من حادثني سكبت في أذنه قصتي مع آن شان.

وهذه أغنية:

اخترقت قلب آن شان

قلب آن شان العظيم

حيث أمر الان

شارعاً به مصانع بعيدة وقريبة

مشاهد أكثر مما تستطيع العين

أصوات اكثر مما يحتمل المستمع

وأنشودة أخرى:

في منتزه التحرير

قابلت صبية وصبايا

في المنتزه الذي يسمونه التحرير

كانوا مرحين وأصحاء

ومتفائلين

إنهم جيل آن شان الجديد الصاعد.

حركة العاملات

أهم ما يميز آن شان حركة العاملات. في 8 مارس سنة 1949م عقد مؤتمر نسائي تمخض عن مولد اتحاد نسائي ديموقراطي ضخم. وفي 1950م تم انتخاب لجنة الاتحاد التنفيذية من 29 عضواً. وفي سنة 1955م عقد المؤتمر الثامن للاتحاد. وقد ضم 39 عضواً. وآن شان تضم 256 من

المنظمات النسائية وجميعها تدافع وتحمي مصالح النساء وتعمل على رفع مستوى الوعي ومحاربة التقاليد والعادات الضارة والرواسب القديمة التي تتحكم في سعادة الأسر كمشكلة الحماة وتقييد القدمين.

وهذه المنظمات تقوم بمجهود 1700 من السيدات كمديرات أقسام وسكرتيرات ورئيسات لهذه المنظمات. وجميع العاملات البالغ عددهن 14 ألف عاملة أعضاء بهذه المنظمات.

وفيهن من أخذت أدواراً فعالة في الجيش الأحمر وحرب التحرير.

ولكل مواطنة منهن التزامات محددة نحو نفسها ومجتمع مدينتها. ولما كانت لكل منهن مميزات ومؤهلات خاصة فنية وعلمية. فإن دور كل واحدة تنحدر على ضوء هذه المؤهلات:

1- توثيق صلاتها بالجيران وحفظ نفسها بمظهر لائق مشرف ورعاية أبنائها على الوجه الصالح. وتنشئتهم على حب العمل والوعي الوطني الصحيح وتنمية مواهبهم العاطفية وقواهم الإنشائية الخلاقة.

2- اتخاذ دور فعال في النشاط الاجتماعي وتأهيل نفسها لعضوية مشرفة في المجتمع الذي اختفت عنه جميع أسباب الاضطهاد والتفرقة.

3- المساهمة في التوعية العامة بالاشتراك في حملات محو الأمية. وقد استطاعت حملة المدينة شمول 27 ألف مواطن ضمن إحدى الحملات.

4- المساهمة في رفع الذوق العام بين النساء بتطوير الفنون المترلية البسيطة لخلق أجواء حياتية سعيدة للجيل الناشئ.

5- تشجيع حركة التثقيف الواسعة بالمشاركة في تأسيس دور الحضانة ورعاية الطفل لمساعدة الأمهات على إيجاد أوقات أطول للإفادة والتحصيل.

وفي آن شان أيضاً زرنا مصحة للأمراض المستعصية تقوم على قمة جبل يشرف على غابة صغيرة رائعة، وبناء المصحة كبير يشبه في نظامه وأروقته الزرقاء الباهتة ومطاعمه وقاعاته داخلية طلبة جامعة. وأبرز ما في المكان لوحات هائلة بألوان بديعة تزين جميع الأركان والممرات. وكذلك الزهور المتسلقة على نحو عبقري في داخل القاعات وحول المكان حيث الحديقة المدهشة التي تطل على الوادي الصغير السابح في الضوء والأشعة.

والمصح يضم مقعدين وأصحاب أمراض مزمنة والملاحظ أن أغلبهم من المسنين ويرجع ذلك إلى ضغط الأحوال المعيشية والظروف السيئة التي مر بها هؤلاء القوم ما أتلف أعصابهم، وجعلهم أقل مقاومة.

ومن آن شان رحلنا إلى شان شوان وهي عاصمة تشن ينج وتقع في الشمال الشرقي من وسط الصين. وهي مدينة صغيرة يقدر عدد سكناها بحوالي 930 ألف نسمة كانوا 100 ألف إبَّان حكم اللومنتانغ الذي تسلمها من اليابان وقد غزاها في 18 سبتمبر 1931م.

وقد تعرضت المدينة للتخريب والنهب والإهمال ما أثَّر كثيراً في مكانتها كمدينة كبرى وملتقى تيارات الثقافة والفن بالإضافة إلى كونها مركزاً اقتصادياً للمقاطعة. ومن أبرز الأماكن التي زرناها في شان شوان مصنع السيارات ومصنع المطاط رقم (8) توجد دار شن كوا للنشر والطباعة، وهي من أكبر دور النشر بالصين.

وبالمدينة 4 معاهد للتعليم العالي و15 مدرسة ثانوية للتدريب الخاص و 14 مدرسة ابتدائية و159 مدرسة أولية. وللمدينة 4 جرائد

محلية ومحطة إذاعة محلية أيضاً وشركة أفلام و5 مسارح و4 مستشفيات ولادة.

وبين السكان البالغ عددهم 930 ألف نسمة، عدد النساء 390 ألف منهم 200 ألف من البالغات وتستطيع كل واحدة من هؤلاء الـــ 200 ألف سرد أبشع القصص حول ظروفهن إبَّان الحكم البائد من عدم المساواة والضغط والاضطهاد والامتهان.

وقد قامت الحكومة الجديدة برفع هذا العبء عن كاهل النساء بالقوانين والتشريعات العادلة التي كان من نتيجتها اشتراك النساء على نحو فعال في جميع النشاطات الاجتماعية والسياسية في المدينة. وتوجد 35 نائبة من 240 نائبة عن الشعب في الحكومة المحلية كما يشتركن في الجهاز الحاكم بمناصب رفيعة.

وتعمل 18 ألف امرأة في جميع الحقول الصناعية والزراعية والفنية وخلافه.

ومن بين 20 ألف طالب في المدارس الوسطى يوجد 9 آلاف طالبة.

ومن 80 ألف طالب بالمدارس الأولية 50% من الفتيات ومن بين ألفين متخصص توجد 300 امرأة متخصصة.

وتوجد دور لتسهيل دور المرأة ومعاونتها على أداء واجبها كمواطنة وموظفة وأم وزوجة 156 دار حضانة وروضة بها 7 آلاف طفل.

أما المدينة نفسها فهي من أجمل مدن الصين وأكبرها. وأروع ما فيها الحدائق العامة والميدان وأبرز الميادين ميدان يقع في وسط المدينة ما بين المنطقة الصناعية ومكان السوق، ميدان في وسطه حديقة واسعة على شكل دائري تتوسطها قاعدة ضخمة لتمثال لطائرة بالحجم الطبيعي ومدفع وجنديان. والجميع بلون برونزي لامع يزداد روعة كلما ألقت

الشمس عليه مزيداً من أشعتها وهو تمثال شامخ يبدو من البعيد وكان الطائرة تهم بالصعود والانطلاق.

والطائرة أول طائرة دكت حصون اليابانيين المستعمرين أما المدفع والجنديان فهما أول جنود الجيش الأحمر لتحرير المدينة.

وسوق المدينة مكتظ بالسلع المثيرة وأبرزها التماثيل الصغيرة والهدايا وأشغال الإبرة المتقنة على الطريقة الصينية ذات الألوان التقليدية الشهيرة.

وقد كانت أكثرها رواجاً بيننا المراوح الحريرية والأنيقة والزهيدة الثمن أيضاً.

وقد أمضينا بين المحال ومخازن التحف صباحاً بكامله ندمنا على كوننا لا نملك إلا ما نملك وحولنا كل هذه المغريات بالصرف.

وبعد الظهر اخترقنا شوارع المدينة "المرحة" من الجهة الأخرى للفندق متوجهين نحو مصنع السيارات رقم (8).

وبعد الترحيب التقليدي مقدمة مدير المصنع حول تاريخ المصنع الذي أُنشئ في يوليو 1953م واستمر العمل في إنجازه ومعداته حتى 1956م حين بدا فعلاً بإنتاج السيارات.

بعد ذلك توجهنا إلى داخل المصنع تاركين قاعة الاستقبال الأنيقة ذات المقاعد الوثيرة الخضراء ومعدات الشاي الصيني التقليدية يعبق المكان برائحة الشراب الطازج المفضل.

وينتج المصنع 300 لوري حمولة 4 طن وسرعة 65 كيلومتر ما بين كل شهرين أو ثلاثة ويبلغ الإنتاج السنوي للمصنع من عربات النقل هذه 30 ألف عربة. ولكل عربة 3 آلاف قطعة غيار وهي التي يتألف منها اللوري ولها أيضاً 409 قطعة غيار احتياطي جميعها تنتج بأيدي صينية.

ويقوم المصنع على رقعة أرض تبلغ مساحتها 350 متر مربع وتحتوي على 30 ورشة رئيسية يقسم العمل بها على ورديتين واحدة تبدأ في الصباح حتى الثانية بعد الظهر والثانية حتى المساء. بطريقين الأولى لعمال ماكينات السيارات والثانية لعمال الهيكل. كما توجد ورش للخدمات العامة ومحطة خدمة بالإضافة إلى وحدات توليد الحرارة الكهربائية والغازية.

ويبلغ عدد العمال 16 ألف منهم 18% من النساء أغلبهن فتيات ومهندسات وأحياناً مديرات للورش.

وتوجد دور حضانة وروضة بها ألف عضو وكذلك وسائل نقل الأمهات اللواتي يتركن أطفالهن في دور الحضانة المنفصلة عن المصنع.

ومصنع السيارات رقم (8) من المصانع القليلة المماثلة الموجودة في الصين ذلك أن صناعة السيارات أدخلت أخيراً وبعد الثورة.

ولذا فإن أماكن السكن والتعليم والعلاج للعمال نموذجية وعلى أحدث النُظُم وأرقاها.

ومدينة العمال المتاخمة للمصنع تضم مدارس أولية وثانوية وجامعات وكليات نظرية كما تضم مستشفيات حديثة البناء والمعدات. كما توجد مدارس ليلية ودور للتسلية والترفيه.

وتبلغ مساحة هذه المدينة 400 ألف متر مربع ويدين الصينيون بنجاح هذه المصانع للفنيين السوفيت الذين أشرفوا بخبرتهم ومساعدات أخرى على إخراج هذا العمل وسرعة إتمامه.

وقد كانت الصين تستورد الماكنات من ألمانيا والاتحاد السوفييتي.

ومن القصص التي تُروى بفخر عن حماس عمال المصنع إبَّان إنشائه بعضهم كان يشترك في عمليات البناء كما كانوا ينامون بجوار الآلات لمتابعة العمل دون توقف. وقد أحرز أغلبهم أرقاماً قياسية في الإنتاج.

والعربات جميعها ذات طابع واحد ولون واحد وذلك لإشباع الحاجات العامة أولاً، المطالب الاشتراكية والتي يتأتى عنها بالضرورة – طور إشباع الحالات الفردية أو رغبة الامتلاك. وهو مبدأ ستالين القديم والأكثر اعتدالاً. "كثير من الخبز وقليل من الموسيقى".

أعياد التحرير

من الشمال الشرقي كان علينا أن نعود لحضور احتفالات التحرير. وكان مجرد التفكير في جو بكين الدافئ –نسبياً– وفي احتمال وصول خطابات من السودان، مجرد ذلك سعادة.

وكنا جميعاً قد أثبتنا إخفاقنا في التأقلم بالأجواء الجليدية رغم أطنان الملابس وقد هاجمتني وأنا بقطار الشمال نزلة برد قاسية وعاودتني نوبة اللوز الحادة من جديد، وكان علي تحمل الرحلة، ودرجة حرارتي تقارب الأربعين إلا أن الحمى والنزلة لم تكونا بشيء إلى جانب احتقان لوزتي اللعينتين فتعذَّر علي التنفس وكدت أختنق. وزاد ألمي العضوي سوء حالتي النفسية التي تضافرت الغربة والمرض على ضعفها. وللغربة فعل عجيب في النفوس. مجرد الشعور بها يخلق حالة من الحساسية المفرطة التي تصل أحياناً حد التشاؤم.

وفي محطة من محطات القطار المتلاحقة صعد طبيب إلى العربة وأعطاني عقاراً مسكناً، وفي بكين وقد وصلناها يوم 30 سبتمبر أي قبل عيد الثورة بيوم وليلة، كان علي أن أقضي النهار بطوله بالمستشفى وقد شاركتني المرض الأخت محاسن عبد العال.

وفي المستشفى لم أستطع المقاومة وانتابني شعور طاغٍ بالضجر واللاحول، انهارت دموعي وأنا على طاولة الكشف وعيناي معلقتان

بمربعات السقف البيضاء والأضواء المحببة وحين تنبهت الممرضة أخذت تضع قطع القطن في أذني وتنتزعها كلما ابتلت.

وبفضل حقنتين تحت جلد صدغي "وهما أغرب حقنتين تعاطيتهما في حياتي" استطعت أن استأذن الطبيب، وبعد إلحاح سمح لي بحضور حفلة الاستقبال الكبرى التي يقيمها الرئيس ماوتسي تونج بفندق بكين للوفود الآتية لأعياد التحرير والمؤتمر الثامن للحزب الشيوعي الصيني "وقد بدا جلساته في 16 سبتمبر".

وكان علي أن أعد بأكثر من أمر قبل أن يسمح لي بحضور الحفل. وفعلت. لم يكن من المحتمل التنازل عن مثل هذه اللحظات التاريخية. والغريب أنني في غمرة السؤال عن إجراءات البروتوكول، وحُمَّى الحديث التي حرمتنا جميعاً ونحن نستعد لليلة المشهودة -في غمرة هذا شعرت بتحسن مفاجئ وغادرت فراشي الذي كنت أرقب منه الزميلات وهن يأتين ويخرجن، أحياناً لاستعارة ثوب أو لاستعارة قرط أو للسؤال عن صحتي أو لأمر آخر. ووجدتني أنجرف أيضاً في الاستعداد والاتفاق على ألوان الأثواب التي قررنا ارتداءها. وسرعان ما أتت السابعة، وخارج فندق بكين كانت مئات العربات تربض في صفوف ذات أطوال خيالية.

وبالداخل كان المكان يسبح في النور والبهجة والمشاعر.

وعلى مسيرة قصيرة من المدخل المغروس بالسجاد الأحمر، وقف شوين لاي رئيس الوزراء ثم ليونساوس نائب رئيس الحزب الشيوعي ثم ثلاثة آخرون لا أذكر أسماءهم وجميعهم في الرداء الكحلي التقليدي البسيط، وعلى وجوههم ابتسامات متواضعة ومرحبة، ومر بهم وفدنا وصافحونا واحدة واحدة مع كلمة ترحيب سمعت منها "اوه الوفد السوداني هذه أول مرة تشرفنا فيه امرأة سودانية". وبعد المعبر القصير انفسحت قاعة هائلة تعج بآلاف الشخصيات. وفود من أمريكا اللاتينية،

من كندا وإفريقيا ومن الاتحاد السوفيتي، من بورما وسيام، ونيبال وفرنسا وألمانيا وبولندا، من جميع بلدان العالم.

وجميعهم في أرديتهم الوطنية الجميلة والغريبة الشاذة والأخاذة، وأجمل الأزياء الزي الياباني والكوري وأغربها زي اللاميين "اتباع اللاما" وهم كهان يسكنون جبال التبت وهم حليقو الرأس تماماً، ويلبسون أثواباً وهي عبارة عن مقطع قطني مستطيل يتلفعون به، كما يفعل عرب الغرب في السودان عندنا مع فارق أن لون الرداء برتقالي فاقع ينحسر عن الساقين من الأمام على نحو ما تفعل السيارة، وهذا الزي يُرتدى في جميع فصول السنة بدليل أنهم يلبسونه في ليل بكين الخريفي القارس.

ومن البدء أخذ الناس يتجولون للتعارف فيما بينهم، إلا أن المكان اكتسب رهبة مفاجئة بظهور الرئيس ماوتسي على المنصة الواقعة في رأس القاعة وحوله شوين لاين وأحمد سوكارنو وهو ضيف على شرف مهرجانات التحرير لذلك العام، ورئيس وزراء نيبال ومكويان من الحزب الشيوعي السوفيتي مندوباً للمؤتمر الثامن، ومدام صن يات صن وهي نائبة رئيس الجمهورية وقد رَحَّب ماوتسي ورفاقه بالوفود وأشار إلى علاقات الصين الخارجية وعزمها على صيانة السلام والوقوف إلى جانب البلدان المحبة له.

ألقى ماوتسي خطاباً ثم أحمد سوكارنو ثم رئيس وزراء نيبال ثم مكويان وجميع الكلمات تُرجمت إلى جميع اللغات. وفي تلك اللحظة الرهيبة شعرت فجأة بساقي تلينان كخرطوم مياه وبوجهي يشتعل بالحمى، وبرأسي يدور واستندت إلى مس "نس" وكانت تلازمني منذ البداية، وحين وعيت كنت جالسة إلى مقعد مريح في أقصى المكان بجوار الحائط، وسألتها إن كنت قد وقعت، فأجابت بأنني لم أفعل بل إننا سرنا معاً حتى هذا المقعد، ورجتني أن أُلازمها حتى لا أنتكس إلا أنني لم أستطع.. وهل أطيق؟

وبعد برهة كنت أبحث عن باقي وفدنا الذي عاد مع باقي الوفود إلى حلقات التعارف بعد انتهاء كلمات ماوتسي ورفاقه. وهناك شوين لاي وماوتسي يصافحان الجميع واحداً واحداً، وكانت عدسات التصوير تبرق كعيون بوليس سري أرعن. وأخذ الناس يطعمون ويشربون أطعمة شرقية وأخرى غربية، بالإضافة إلى الأطباق الصينية المشهورة.

كانت ليلة حافلة إلا أن المرض -قاتله الله- لم يزجره حتى شدة انفعالي، وقد حد من استمتاعي بها على النحو الأمثل. وبالرغم من ذلك فقد ظَلَّت الذكريات تلك الليلة عالقة بذهني ليال كثيرة. الأصدقاء الجدد الذين تعَرَّفنا بهم والذين أصبحوا معارف لنا وأكثر في أقل من دقائق، زوجة السفير الهندي الرقيقة الأنيقة مسز نهرو وقد اكتشفنا أن اسم نهرو شائع جداً في الهند وهناك أكثر من أسرة مشهورة تحمل هذا الاسم، وهي ليست قريبة لجواهر لال نهرو "وإن كنت أحبه بشدة". وزوجة السفير اليوناني التي أعجبت بزينا وأخذت على عاتقها مهمة جذب أكبر عدد ممكن إلى مكاننا للتعرف على "أولئك الفتيات الرقيقات" على حد قولها وقد تبادلنا السوفنيرات بما لدينا من أشياء، أقلام الحبر والأقراط وحتى البطاقات كانت تحمل أجمل ذكرى.

في نفسها أجمل ذكرياتي على الإطلاق تلك الأيام المفعمة بأصفى العواطف وأنبلها بين قوم هم اكثر الناس إنسانية.

وكان الصباح عيد أول أكتوبر العظيم

وعلي أن أعد نفسي لأعنف المشاعر. وما زالت الحمى تفري رأسي المنفعل. إلا أنني صممت على المقاومة.

وانتظرنا الشمس أن تشرق لتبدو الغمامات المخملية، وكنت أرقب الجو في قلق، فهطول المطر قد يعني حجزي بالفندق. ولن تُجدي وعودي هذه المرة إذ أن تفاصيل الأمس قد سلمت للطبيب بحذافيرها. وللحقيقة فإن هؤلاء القوم يحسبون حساب أقل وعكة. وأذكر أن إحدانا طلبت قرص إسبرين ففوجئت بالطبيب يدخل عليها لرؤية عما إذا كان مجرد صداع أو أنه بوادر مرض آخر.

وقد استمتعنا -إذا صح التعبير- بأكبر كمية من التدليل خلال تلك الأيام. فقد كانت تكفي أقل شكوى ولو حتى إرهاق لإسراع الطبيب -الذي تبَيَّنا أنه يترل بالفندق- إلى حيث الشاكية- الأمر الذي لا يجده الإنسان حتى بين ذويه!

كان علي أن أرقب الجو بقلق، إلا أن الشمس كانت قد قررت أمراً آخر.

وفي العاشرة كنت أسبق الجميع إلى حيث تقف العربات التي تقلنا دائماً في رواحنا وغدونا ولم ينفع نصح الطبيب، وبالنهاية أمرني بارتداء معطف ثقيل ووضعني تحت رقابة الرفيقة لي.

وعبرنا شوارع بكين المغتسلة بالمطر الخفيف كأنه "دش" ملطف قبيل موعد هام.

الصباح رمادي هادي. وغمامات شفيفة تقوم حول بكين في خفة الجناح الرشيق وجلاله -وسحابات قريبة تغلف قمم المباني الشاهقة وتكاد تُخفي أسنة الأبراج فتبللها مثل رسوم وصور في قصة خيالية أو خيال القصور فير بركة صافية وقطرات المطر تأبى إلا أن تتساقط على الطريق المصقول في رتابة وتلاحق يحيل الإسفلت إلى صفحة لامعة تعكس كل ما يدور وكل ما هو قائم وكأنه نبت منها. وطبقات الضباب تتكاثف وتدثر بكين في غلالة رمادية مطرزة بماسات تبدو وكأنها نقاب العروس يوم زفافها وقد زاد من روعتها. وتتوافد جموع من

الناس في معاطف المطر وتحت المظلات الزاهية المشهورة. ويكتظ الميدان الكبير الذي تزينه "الأضواء" الحمراء واللون الأحمر يعني الفرح في الصين -وتلبس العروس ثوباً أحمر يوم زفافها وميدان تبارمين تزينه صور ماركس -انجلز-لينين-ستالين- ثم ماوتسي تونج وليونشاوشي وشو اين لاي ودكتور صن يات صن- الذي تقد حديقة باسمه على الجانب الآخر للميدان- على التوالي في أحجام ضخمة وتبدو وكأنهم يطلون على الجموع في الميدان في تطلع إلى مدى ما حققته مبادؤهم للناس من حصادات خيرة. وكأنهم يرقبون بثقة نتاج وبعض ثمرات مؤكدة لكل من يدين بمبادئهم -وتعاليمهم الإنسانية التي تدعمها مساعدة السوفييت الصادقة لكل من يمد يده نحوهم. وسرت موسيقى بطيئة حزينة تلف المكان في صمت جليل. وحيت الصين أبناءها الشهداء باثنتي عشرة طلقة قذيفة هزت المكان بأزيز مدوٍّ ثم بدا الاستعراض الكبير للجيش بمختلف وحداته -ثم ألقى القائد العام كلمة. وجاءت بعدها كلمة ماوتسي تونج أعقبها تصفيق مدوٍّ وتجاوب صادق من جانب الشعب والوفود المدعوة التي احتلت مكان الصدارة في أعلى البرج من "مدخل السلام السماوي" وهو اسم البرج الذي اصطف فوق قمته ضيف الشرف رئيس جمهورية إندونيسيا السيد أحمد سوكارنو وقد جاء خصيصاً من أجل أعياد التحرير ثم رئيس وزراء دولة نيبال ومدام صديات وليوسوتش وشواين لاي ومكويان -وكثير من رؤساء الوفود القادمة لحضور المؤتمر الثامن الذي عقد في بكين في شهر سبتمبر الماضي. أعضاؤه من 56 دولة من مختلف دول العالم من بينها دول رأسمالية -واشتراكية وديمقراطيات شعبية. كل هؤلاء شاركوا الشعب الصيني يوم العيد هذا عدا الوفود التي دعيت من قبل الهيئات المختلفة ليوم التحرير قبل الاتحاد الديمقراطي النسائي الصيني الذي دعا وفداً نسائياً يضم 10 فتيات سودانيات مذعورات تصيبهن الدهشة من كل ما حولهن وينتابهن شعور القروي الذي أتى تواً إلى المدينة، فيجذبن بأثوابهن البيضاء الهفافة أنظار الوفود الأخرى فتسعى للتعرف بهن ويتم التعارف في لغة لا يفهمنها أحياناً وفي

إشارات وانحناءات وشبه ابتسامات وسرعان ما يصبح الجميع أصدقاء وتتبادل بطاقات العناوين ووعود بالمراسلة وتوطيد للصداقة وأماني جميلة وتجاوب سريع وأضواء من عيون جامدة تبرق في خطف تسجل مظهراً عاطفياً يؤكد إمكانية التعايش السلمي والتفاهم بين الشعوب.

الموسيقى تستمر في وضوح خالقة إطاراً رائعاً عبقرياً للأجواء المفعمة بالسحر والجمال وانتصار الكفاح الخير والمجموعة الزاحفة نحو النور في ثقة وثبات وأمل، ومواكب العمال تتوافد في انتظام على الحلبة تعرض أحدث الإنتاج في لافتات مجسمة وتعبر بالألوان عن كل مكنون الامتنان على الحزب الشيوعي الذي يطل قادته من علٍ يباركون بابتسامة مضيئة نتاج العام. وتستمر مواكب العمال من كل فئة ومهنة وصناعة ويزيد المطر ويظل المشهد يتغير في تواصل. عاملات وتضامن وهتافات مجسمة صامتة ثم فرقة الكشافة للأزهار في أثواب بيضاء ثم حمراء ثم وردية وبالونات كبيرة ملونة عقصت في أشكال رمزية وأذرع صغيرة تلوح للرئيس وهتافات صغيرة ولكنها حادة مصرة –والمطر ما زال ينهمر والمواكب تتوالى، طلبة الجامعات المختلفة كل في عرض على حدة، وممثلات الأوبرا والطالبات وطلبة الكليات النظرية والأبحاث والمعامل والسينما والإذاعة وفرق الرياضة ومنظمات الشباب ورقصات قومية وامتزاج الألوان يؤكد ذوقاً رفيعاً وفناً راقياً والحمامات تنطلق بيضاء تحلق فوق الميدان مذعورة أولاً. ثم هادئة تحط على الحواجز وأعمدة النور والمطر يهطل مدراراً والبالونات ترتفع في أعداد هائلة نحو السماء تحمل هتافات وأماني طيبة للجميع، عاش السلام وصداقة الشعوب، ويحيا الزعيم ماوتسي تونج، يعيش الحزب الشيوعي، ومع ذلك فالشيوعيون يمثلون نسبة ضئيلة في الصين.

كلما زاد المطر ازداد الحماس وبالتالي التجاوب بين المتفرجين والمساهمين في الاستعراض وتزايد العدد حتى ليخيل للمرء أن الشعب كله قد أتى إلى الميدان آلاف المظلات والمعاطف الواقية والمناديل الكبيرة وكل

أساليب الوقاية من المطر ولكن ليس من بينها التخلف في دفء البيوت بل هناك رغبة أكيدة في شهود المعجزة التي تتم. حتى الأرستقراطيات من المدعوات من بنات الصين ودوقات إنجلترا المترفات والرجال المسنين وذوي الألقاب الرنانة لم يملكوا سوى الاستجابة للإغراء الكبير. وأذكر أن زوجة قس كانتربري -أعلى رأس في الكنيسة الإنجليزية وبالتالي في المذهب البروتستاني- أذكر أنها قالت إن المطر يزيد من رومانطيقية المنظر- تعبير مترف ولا شك، ولكنها رغم البلل لم تنزل إلى صالون الاستراحة وظلت تحاول إشعال سيجارتها عدة مرات ثم تحكم الدثار حول زوجها القس المعمر حامل الـــ 80 عاماً —وكان هناك كما قلت شخصيات عديدة من المجتمع العالمي في حلقات، ولكن أبرز هذه الحلقات كانت تلك التي تضم الرفاق الروسيين الذي يملؤون المكان بالمرح وروح الصداقة وإيجابية التعرف على الجميع وعقد أواصر الصداقة مع الآخرين -وليس بغريب أن ترى الشعب الصيني يشيد بالمساعدة المخلصة التي أولاها إياه السوفييت ولا يترك فرصة واحدة دون أن يعبر عن امتنانه وارتباطه بالشعب السوفيتي ولا يترك فرصة واحدة دون الدعوة للسلام بالاشتراك مع الاتحاد السوفيتي.

والصيني يمجد الزرع والحمام والأطفال والصداقة ويقدس أبطاله ويحترم التقاليد والعمال ويحب الأرض ربما لالتصاق وجوده بها منذ آلاف الأجيال. يحب الإنسانية جمعاء. واستعراضه الكبير إنما هو شعور ورغبة في توكيد هذه الفكرة وتجميع القوى من اجل العمل وتوطيد السلام والخير. وإذا كان مقياس النجاح مرتبطاً بمدى تجاوب الجماهير فقد نجحت الفكرة يؤكدها الإجماع في التعبير والتأييد فملايين العيون وأمواج من الأيدي وعيد من خفقات القلوب والأفراح الصادقة الواضحة والابتسامات وسيمفونية من الشعور والانفعالات والعواطف كل ذلك يؤكد أن "المحبة للأطفال والزهر والحمام والسلام الأخضر للأرض".

وفي المساء عرضت المحال الصواريخ من نفس الميدان وقد أتى إليه الملايين من المواطنين، أيضاً اجتمعوا في حلقات راقصة حول المكان. وقد اكتفيت بمراقبة الصواريخ من على سطح الفندق.

وأقيم في اليوم التالي احتفال شعبي.

رحلنا أول الصباح إلى قصر الصيف وهو تحفة فنية رائعة زاخرة بالكنوز الأوروبية والفنية ومن خيرة ما أنتجته المواهب الفنية العريقة. وقد شيده الإمبراطور شينج لينج. وقد تعَرَّض هذا القصر عام 1860م للنهب والسلب ثم الحرق على أيدي الجنود البريطانيين والفرنسيين الذين لم يكتفوا بنهب كنوزه بل أشعلوا فيه ناراً ظلت مشتعلة لمدة أيام. وقد سَبَّب هذا العمل البربري شعوراً عاماً بالاستياء بين الناس "الذين اعتبروا هؤلاء القوم برابرة لا يتقنون سوى فنون القتل والدمار".

ويقوم القصر على بحيرة شاسعة تطل شرفاته عليها وتطفو على سطحها قوارب ملونة مزخرفة على هيئة التنين التقليدي وقد امتلأت هذه القوارب بالمحتفلين من جميع الأجناس وكان من حظنا أن ركبنا أحدها.

ما إن وطئناه حتى فوجئنا بجمع من العاملات من أردية زاهية قابلننا بالعناق والقبلات والتصفيق ثم بالغناء، وكان من حقهن علينا رد التحية بمثلها فغنينا بحماسة وحرارة وأيدينا متشابكة.

وعلى الشاطئ كان القصر يغص بالزوار جموعاً جموعاً داخل المتاحف التي أصبحت في أبهائه وقاعاته وحول المسارح القائمة في الهواء الطلق وبين أرجاء الحديقة المعجزة، ألوان من الفنون الشعبية من منشوريا ومن كوريا من جميع قوميات البلاد. وقد بهرتنا الباليه لدرجة أننا أنفقنا معظم الوقت بجوار مسرحها.

أما في الداخل فقد كانت التحف الأثرية البادية على الجدران والسقوف تصنع إطاراً عبقرياً لمعروضات الفنون الحديثة، وفن ما بعد

الثورة ومن أبرز اللوحات ما تقدم به فنان الصين الأعظم شي ياي شو رائد المدرسة الجديدة والذي بلغ من العمر 120 عاماً ولا يزال يقدم إنتاجاً ثراً يعتبر مدرسة في الفن الصيني الحديث وأبرز ما في لوحات شيب ياي شو الخطوط الواضحة الجريئة والطابع المميز.

ولعلني إن أنسى لا أنسى التعليقات المدهشة حول هذه اللوحات. التي كانت تختلف أحياناً ولكنها التقت دائماً حول عبقرية الريشة المهمة.

ومن أكثر المجموعات صخباً و"شقاوة" ومرحاً الرفاق الروس فقد ملؤوا جميع الأماكن التي ارتادوها روحاً فكاهية وضجيجاً وبهجة وقد أصروا على أخذ صور لنا كل على حدة وقد أعجبهم زَيَّنا فلم نفترق إلا ولنا بينهم أصدقاء وصديقات نناديهم بأسمائهم الأولى دون كلفة.

بالنهاية حملنا ذخيرتنا من التذكارات مع بداية إدبار موكب النهار. وكان يوم...

وقبل رحيلنا إلى شنغهاي دعانا السفير المصري لحفل غداء في فندق بكين حيث تشغل السفارة جناحاً خاصاً.

وكم كانت بهجتنا عظيمة حول المائدة ونحن نتبادل لأول مرة حديثاً مرحاً مع أهل يتحدثون لغتنا فقد افتقدنا ذلك بشدة برغم أحاديث الرفيق هوجره التي كانت تترجم لنا، أضف إلى ذلك روح الود التي ربطتنا منذ اللحظة الأولى فجلسنا إلى المائدة أصدقاء نتبادل النكات ونستمع إليها من الجميع بلا استثناء ومنهم السفير السيد حسن رجب نفسه، وقد أثَّر فينا تواضعه.

6

جرح الصين الذي اندمل

شانغهاي عاصمة تشكيانج

عبر سهول الجنوب الشرقي كانت رحلتنا الثالثة: إلى شانغهاي المدينة الساحرة.

كانت في ذهني طوال الطريق مشاهد فيلم أمريكي تدور حوادثه في شانغهاي، وطبعاً المحتالون واللصوص والشحاذون الغامضون هم شخوص الفيلم المثير، بالإضافة إلى النساء الخطرات وعاهرات "شانغهاي".

وانتظرت رؤية الجانب الآخر للمقارنة.

شانغهاي

تقع شانغهاي على فم نهر اليانجشي وهي من أكبر مدن الصين وأهم ثغورها، يبلغ عدد سكانها حوالي سبعة ملايين نسمة وهي مقسمة إلى ثماني عشرة مقاطعة، 15 منها داخل المدينة و3 في ضواحيها. ولها مجلس بلدي خاص. ولكل قسم إدارة خاصة به وفروع لمنظمات النشاطات الاجتماعية.

وشانغهاي مركز صناعي هام وهنالك أكثر من 26 ألف مصنع ويبلغ عدد العمال والموظفين بهذه المصانع 380 ألف وهي زيادة على ذلك ثغر هام على البحر للتصدير والتوريد وبها 203,000 ألف مخزن للسلع.

وشانغهاي هي إحدى المراكز الثقافية الهامة في الصين، وبها 60 معهد متخصص "وخاصة للبناء والتعمير" و40 داراً للسينما و92 مسرحاً يؤمها 220 ألف متفرج يومياً وقد كانت مجرد مركز للصيد في القرن الرابع حتى القرن السابع، حين نمت الصناعات وإنشاء السفن فأصبحت شانغهاي مقراً هاماً وميناء للصين عظيماً، وكان ذلك في القرن السابع عشر، وقد تم تحرير شانغهاي، بواسطة الجيش الأحمر في مايو 1949م. وشهر مايو من الشهور التاريخية بالنسبة لمدينة شانغهاي. وفي عام 1940م وأثناء حرب الأفيون بعد المعاهدات الجائرة التي فُرضت على الصين من جانب بريطانيا تحوَّلت شانغهاي إلى مستعمرة للفرنسيين والإنجليز والأمريكان واليابان فيما بعد.

وقد تأسست مصانع ومؤسسات استعمارية كان الغرض منها الاستغلال وليس الإفادة ما أضرَّ كثيراً بالاقتصاد القومي. وقد كانت المدينة خلال هذه الفترة تحت حكم صيني صوري وظلت كذلك لمدة مائة عام.

كان الأعداء الحقيقيون هم:

1- الاستعمار.

2- الإقطاعية.

3- الرأسمالية. وكانت هذه جميعاً تتكاثف في سبيل إبقاء الشعب تحت قبضتها واستترافه على نحو لا إنساني. ومن أشهر الأمثلة على طغيان بربرية المستعمر لافتة رفعها الفرنسيون على مدخل الحدائق والمسارح ما زالت إحداها معلقة في قلب المدينة على باب حديقة كبيرة تحوَّلت إلى ميدان تقول "الكلب والصيني لا يدخلان".

وقد ظل الشعب في كفاح مرير ضد هذه العناصر المستبدة مجتمعة وكان هذا الكفاح الذي تميزت به شانغهاي على نحو ضار ذا دلالة تاريخية وخاصية منفردة. وفي أول يوليو عام 1921م تأسس الحزب

الشيوعي الصيني في الوقت الذي كانت تجري فيه تغييرات سياسية في شانغهاي وقد كان مفروضاً عقد اجتماعه الأول بها لولا أحد العملاء الذي أفشى بالمكان فاضطر الأعضاء إلى العدول عن ذلك في اللحظة الأخيرة.

النساء في شانغهاي

يبلغ عدد النساء في شانغهاي 2 مليون و900 ألف امرأة وعدد البالغات منهن يقدر بمليون و700 ألف، ويبلغ عدد العاملات 300 ألف عاملة وهؤلاء يعشن في الدينة، أما الضواحي فيعيش فيها نحو 150 ألف امرأة. والباقيات ربات بيوت وحسب.

والمرأة في شانغهاي، كما هو الحال في هونغ كونغ من أكثر نساء الصين اكتواء بويلات ومصائب الاستعمار، فقد كانت تنفر من الظلم العام الواقع على الجميع والظلم الخاص الواقع عليها كإمرأة في مجتمع هو ميناء مفتوح وهو ما أدى باستمرار إلى تأزم وضع المرأة بصورة درامية مع تردي أعداد كبيرة من النساء في هاوية الرذيلة، وكان الفقر والحاجة هما الدافع الأول بالإضافة إلى الضغط الذي تتعرض له نساء المدن المحتلة من جانب الجنود والمستعمر الداعر.

وقد تعرضن لهوان بشع قبل التحرير حتى إن المرأة أصبحت توصم به حتى من جانب بني وطنها.

إلا أن التحرير أتى باكراً مع الحرية. وأصبحت المرأة في شانغهاي موضع الرعاية الكاملة الدقيقة من الدولة، عن طريق القوانين المشروعة والحركات الاجتماعية، وخاصة الاتحاد النسائي الديمقراطي الصيني. وقد كفلت لها الدولة المساواة في جميع الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية كما وهبتها المنظمات الاجتماعية الواعية الثقافة والكرامة.

ومشكلة المرأة في شانغهاي هي وجه أكثر دمامة لمشكلة المرأة الصينية عامة فقد خرجت بعد التحرير بنفس الذخيرة في المشاكل وإن تفاوت المقدار إلا أن الدرجة واحدة.

ويضع القانون الزراعي مثلاً حداً لجانب من هذه المشكلات بأن يوجب على منظمات العمال والفلاحين ممارسة تجنيد النساء على نحو واسع وجادٍ لمساعدتهن على أخذ أماكن قيادية في هذه المنظمات.

ومن الضروري عقد اجتماعات نسائية أو لمندوبات النساء داخل نطاق المنظمات لحماية مصالح النساء خلال عمليات الإصلاح الزراعي. والتصدير الاقتصادي "وحماية حقوق النساء السياسية ومناقشة جميع مشاكل النساء الاجتماعية".

وما يؤكد هذه الدعوة أن مجلس الشعب يضم 161 نائبة:

ومجلس الشعب ينقسم إلى ثلاث درجات.

1- التشريعي.

2- التنفيذي.

3- القضائي.

واللجنة القائمة هي الجهاز التنفيذي الذي يعمل في حالة عدم اجتماع المجلس وهي مسؤولة عن المجلس وتقدم له تقاريرها وتنقسم أعمالها وسلطاتها إلى:

1- الأعمال والسلطات المحاربة في الظروف العادية بما في ذلك تطبيق القوانين،.. إلخ.

2- الأعمال والسلطات الممارسة في الأحوال الطارئة ورئيس هذه اللجنة هو لبوتساوش ونائبه سونج ننشنج لنج "مدام صن يات صن".

ويضم مجلس الشعب القومي "أو مجلس الأمة" ممثلي جميع فئات الشعب على اختلاف هيئاتهم وقومياتهم ومصالحهم. وهم من مختلف حقول العمل حتى يتسنى بذلك خلق حكومة عمالية، ويتألف المجلس من ألف نائب. ومدة الانتخاب سنتان. ويمكن إعادة انتخاب العضو الذي يفقد ثقة الشعب.

وتمثل النساء 20% من ممثلي المقاطعة وتمارس شانغهاي جميع الأعمال ابتداء من بيع الكتب والزهور حتى أعمال القضاء والمحاماة ويبلغ عدد العاملات المبرزات لعام 1956م 389 عاملة.

ولهن ضمانات اجتماعية متقدمة وراقية، فقد كان هنالك مستشفى ولادة واحد قبل التحرير به 100 سرير فقط، ويعكس ذلك تدهور العناية الصحية بالنساء في ذلك الوقت. في حين يوجد الآن 23 مستشفى خاص و16 مركزاً صحياً و120 مركز رعاية للنساء والأطفال، و3 مستشفيات خاصة للأطفال وقد كانت تستعمل طريقة التوليد القديمة إلا أن الطريقة الحديثة قد استحدثت وتلد بها 96.1% من النساء وتبلغ نسبة الوفيات بين الأطفال 5% مقابل أكثر من 60% فيما قبل التحرير.

وقد حلت مشاكل النساء العاملات بإنشاء 823 دار حضانة تابعة لمؤسسات العمل حتى يتسنى للأم الإشراف على طفلها.

2- توجد دور حضانة شعبية مسائية ونهارية.

3- توجد دور حضانة في الأحياء تشرف عليها لجان الأحياء.

4- توجد دور حضانة موسمية "إبَّان موسم الحصاد مثلاً" وتشرف عليها التعاونيات.

5- توجد في شنغهاي أكثر من 40 دار حضانة خاصة للأطفال يشرف عليها أخصائيون.

كانت نسبة الأمية بين النساء قبل التحرير 80% وقد أوجدت بعد التحرير حلقات محو الأمية بين الكبار إلى جانب المدارس وقد انضمت إلى حلقات الأمية 300 ألف امرأة وقد تم محو الأمية بين النساء مع نهاية عام 1957م.

4 مايو

من الأماكن الجبارة التي حظينا بزيارتها في شنغهاي قصر العمال. وقد كان قبل التحرير نادياً للجنود الفرنسيين. وحلبة لسباق الكلاب. وقد أسس في 1950/10/1م كمقر لنقابة اتحاد العمال.

كان الغرض منه سد الحاجة الثقافية للعمال بواسطة النشاطات المختلفة لرفع المستوى السياسي والعلمي والأدبي.

ويتألف القصر من ثلاثة طوابق، كانت تشغله قبل 1950م معارض صناعية مختلفة بالإضافة إلى متحف تاريخي يشمل القصر جانباً ثقافياً وثالثاً صناعياً.

وتعرض أحدث المخترعات الصناعية إلى جانب أحدث وسائل حماية العامل أثناء عمله كما تنظم أكثر من 40 محاضرة في الشهر لتوضيح موضوع العرض والطلب ورأس المال والقيمة ومختلف النظريات الاقتصادية. وتوجد قاعات للموسيقى والفن والأدب والمسرح ومجموعات الهواة بإشراف أخصائيين لمساعدة كل ذي موهبة في تنميتها ويشترك في المكتبة 2500 قارئ يومياً: ويتخرج من مجموعات الفن والموسيقى حوالي ألف كل دورة، وتوجد بشانغهاي عدا هذا المركز 10 نواد للعمال و3 للعمال الصناعيين "خاص" بالإضافة إلى 900 ناد متصل بالمصانع المختلفة.

وفي 1950م نشط المركز بشكل ملحوظ ما أبرز الطبقة العمالية التي هي أعرق الطبقات الشعبية في شانغهاي، ذلك أن الاستعمار عُني بإنشاء المصانع فأوجد طبقة من العمال نمت عنها حالات فردية مكونة بذلك طبقة البورجوازيين، فالبورجوازية في شانغهاي أحدث من طبقة العمال.

وفي سنة 1919م تبلورت الحركة العمالية في شكل انفجار حدث في أول مايو وكرد فعل للثورة البلشفية في روسيا وتعرض في القصر الثقافي للعمال مراحل تطور الحركة العمالية.

1921–1927م

1927–1937م

1937–1945م

1945–1949م

1949–1952م

بعد حرب الأفيون أرسل الإنجليز مصانع أوجدت طبقة عمالية ضخمة من العمال الصناعيين. وبعد الحرب العالمية الأولى استطاعت طبقة البرجوازية الرأسمالية الوطنية النمو في الفترة التي تراخت فيها قبضة التنافس بين دول أوربا وأمريكا إذ انصرفت هذه إلى الحرب وبالتالي ازداد عدد العمال الصناعيين على نحو ملحوظ بين 1914–1919م. ومعنى ذلك أن الطبقة العاملة وجدت قبل البرجوازية وقد تألفت أساساً من الفلاحين النازحين عن الريف طلباً للرزق أو هرباً من أوضاعه المهنية. ذلك أن الشعب الصيني كان مؤلفاً قبل ذلك من الإقطاعيين والفلاحين والحرفيين أي من طبقتين، نشأت منهم بفضل حركة تشييد المصانع الاستعمارية بعد حرب الأفيون، طبقة العمال الصناعيين وهم فلاحون بالمكان الأول ثم قامت طبقة البورجوازيين المتنامية بعد ذلك.

وقد قامت حركة 4 مايو بمبادرة ثلاثة آلاف من الطلبة إلى تنظيم مظاهرات ضخمة احتجاجاً على معاهدة فرساي. وقد أدت هذه الانفجارات وأخرى إلى تردد حكومة بكين في توقيع المعاهدة. وقد ساهم عمال شانغهاي جميعاً في هذه الحركة وكان ذلك في سنة 1919م أي قبل قيام الحزب الشيوعي الصيني بعامين. وبعد عام من هذه الحركة اجتمع العمال للاحتفال بعيدهم "1 مايو" وقدموا عريضة تطالب بتحديد ساعات العمل إلى 8 ساعات وكانت أول المطالب العمالية. (1 مايو سنة 1920-1921-1927م). ولم يكن هذا وحسب هو ما تمخضت عنه حركة 4 مايو سنة 1919م التي كانت صدى لثورة العمال في روسيا. فقد تكوَّنت أول جمعية ماركسية تلاها العديد من الجمعيات حتى جاء (1) يوليو عام 1921م فأرسلت جمعيات الماركسيين مندوبين عنها إلى شانغهاي لحضور أول مؤتمر للحزب الشيوعي الصيني الذي أوجد اللجنة المركزية ودستور الحزب. وقد أوشك المؤتمر على الوقوع في قبضة البوليس حين وشى بهم أحد العملاء فكان لزاماً عليهم العدول عن عقده في شنغهاي ومن ثم عُقِد أول اجتماع للجنة المركزية على ظهر قارب في البحيرة الجنوبية.

وفي 1922م اقترح الحزب الشيوعي تكوين جبهة محددة لمكافحة الاستعمار وفي العام التالي عرضوا تعاونهم على دكتور صن يات صن لإعادة تنظيم حزب الكومنتانج وكان مسيطراً على الأقاليم الجنوبية بعد أكثر من 15 ثورة وطنية وفي 1924م شرع الحزب في تطبيق المبادئ الثلاثة وهي التحالف مع روسيا، التحالف مع الحزب الشيوعي، معاونة الفلاحين والعمال. وبعد خبرة 40 عاماً في الكفاح الثوري استقر الدكتور صن على نقطتين:

1 - إن الشيوعية صديق طيب وعملية توعية الجماهير أمر هام.

2 – إنه علينا توحيد كفاحنا مع الشعب ومع أولئك الذي يعاملوننا على أساس المساواة الكاملة "وفي مارس من العام الذي تلاه مات دكتور صن يات صن".

وفي سنة 1924م قامت مظاهرة عاملات شركة الحرير وعمال شركة توباكو نانج في شانغهاي وكانت هسينج تشنج يو في القيادة ومتزعمة حركة تنظيم المظاهرة منذ بدايتها وهسينج عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وقد أعدمها قوات بوليس الاستعمار يوم 4 مايو سنة 1927م.

وقد تكونت بعد ذلك رابطة قيادة العمال حتى كان عام 1925م: وفي 3 مايو حين رفض مصنع نسيج يملكه ياباني دفع أجور العمال خرج العمال في موكب وبعثوا متحدثين باسمهم ومنهم من يدعى كاوتسون هون فقمعت المقاومة وقتل المندوب، فنظمت اللجنة المركزية مظاهرات في 3 مايو قتل فيها عدد كبير من المتظاهرين، واستمرت المظاهرات والإضرابات واستمر الضرب من جانب البوليس الاستعماري.

وقد علمت هذه المأساة الطبقة العاملة أموراً كثيراً وساعدت على لم شملهم، فنظمت الاتحادات والنقابات ومنذ ذلك الحين تسلم الحزب مقاليد أنظمة الكومنتانج.

وانطلق بحركة الإصلاح الزراعي فاتحاً الأرض لمزارعيها وقد كانت لهذه الخطوة فعلاً أولى بنود حزب الكومنتانج الذي خانه وتنكر لبرامجه زاعماً أن توزيع الأرض خرافة، إذ أن الصين لا تكفي فلاحيها. وقد وزعت الأرض على النساء والرجال على السواء، الأمر الذي لم يحدث منذ ثورة التيبج الخاطفة (1851–1864م) وأسست بمساعدة الطليعة الحزبية المدربة كوادر للنساء. ومجالس للقرية وتنظيمات نقابة للفلاحين، تقوم فعلاً برفع الاضطهادات عن كاهل فلاح الصين، ويقول في ذلك ماو:

"توحيد العمال الزراعيين والفلاحين الفقراء والفلاحين المتوسطين وكل العناصر المعادية للإقطاع في الريف في منظمات تقوم بالإشراف على الإصلاحات الاجتماعية في الريف وتحققها خطوة وتحمي مصالح الفلاحين وفق سياسة وقوانين الحكومة الديمقراطية المركزية، وتنظم الإنتاج الزراعي وتنشئ الجمعيات التعاونية وتُنمي أساليب الزراعة وترفع مستوى الحياة في الريف وتحمي الحقوق السياسية للفلاحين وترفع المستوى السياسي والاقتصادي وتساهم في بناء الدولة الديمقراطية الجديدة".

وقد استطاعوا استعادة المناطق المقفولة والقواعد الحربية وقد عمت ثورات العمال لمدة ثلاثة أسابيع فقط، ذلك أن شانج كاي تشيك خانهم متضامناً مع الاستعمار لصالحه الخاص قائداً لجناح يميني معاد. إلا أن الجناح اليساري انضم للحزب.

وفي أبريل 1927م اشتركت سلطات البوليس المستعمر وتشانج كاي تشيك في مجزرة ذبح فيها مئات العمال والمواطنين لدرجة أن عربات اللوري الكبيرة كانت تتبادل دوريات من 5/4 منها لتنقل القتلى من شانغهاي وكانتون ونانكين. وكان هذا مجرد فشلنا الخامس عشر.

كانت هذه هي الحرب الأهلية الثانية وبعدها أصبح لزاماً على الحزب الشيوعي ممارسة السرية وإن ظلَّ عددٌ من الفدائيين يروحون ضحية الخيانة ما شَتَّت أعضاء الحزب في الأقاليم والغابات. وكان هذا هو الوقت الذي تكوَّن فيه الجيش الأحمر على نحو صلب وقد أبقيت بعض العناصر القيادية للحزب في شانغهاي، واستمر العمل الحزبي سرياً دون الجنوح إلى العنف أو الصدام الصريح.

وهكذا فإن أي مظهر للكبت أو عملية من عمليات مصادرة اهتمامات الناس السياسية يؤلف عملاً هاماً بل ولازماً للحركات السرية، إذ أن الجماهير لا تقدم مطلقاً وسائل التعبير عن نفسها، وهي لذلك تتحايل لتصل إلى أغراضها وتنجح بجميع الوسائل الممكنة

والمشروعة ثم غير المشروعة ونحن دائماً نرى أن الحركات السرية تزدهر في عهود الإرهاب والقهر وأحكام القمع.

والجماهير إن صمتت فليس السكون رضى وإن صبرت فليس الصبر إلا إصراراً على نهاية يرسمها ويضع نهايتها ويخرجها رغم جميع السدود والعراقيل.

وقد كان، وازدهرت الحركة السرية للحزب وقويت تنظيماته وأهمها الجيش الأحمر الذي كان رداً على أنذل وأحط عمل عرفته الحروب والثورات ألا وهو خيانة شانج كاي تشيك صاحب التاريخ الحافل بالتشرد والمغامرات واللصوصية في شانغهاي، المدينة التي شهدت أوج مجدها وشهدته حبة حنطها التاريخ إلى الأبد كرمز لأبشع صور الإنسان.

وأعلنت سونج تشينج لينج "لقد انتصرت قوى الغدر والخيانة".

فهل فعلت حقاً!

مطلقاً..

فقد كان "لا بد للثورة أن تستمر".

واكتسبت الثورة حلفاء جدداً استنفرهم وأثارهم انحطاط الإقطاع والبورجوازية الكبيرة اللذين خانا الشعب وباعاه وغدرا به على نحو لم يعرف لبشاعته مثيل في التاريخ الحديث.

إلا أن البورجوازية لم تتخلَّ بعد عن مكانتها التاريخية فقد كسب الحزب جميع أجنحة اليسار والوطنية من البورجوازية الصناعية والبورجوازية التالية والبورجوازية الصغيرة.

حيث جميع العناصر الوطنية متضامنة برغم تناقض أيدلوجياتها وتباين دوافعها مكونين طوفاناً رهيباً مصراً على سحق الخيانة والاستعمار بقيادة ماوتسي وشوان لي تكوَّن جيش العمال والفلاحين

وبعد عدة أشهر تأسست أولى قواعد الثورة في تسينجيكيان غثان وفي خلال عامين تكونت 19 قاعدة ثورية أخرى وبين 1930-1933م هزم الجيشُ الأحمر أربع حملات كبرى قادها تشانج كاي تشيك، متجاهلاً تغلغل اليابانيين الذين غزوا شانغهاي في 1932م حين كان تشينج منصرفاً إلى تدعيم حكمه الفاشي تاركاً البلاد في أزمات رهيبة بحكم الوضع العصيب الجديد. وبعدها أترسل أقوى حملاته لضرب قاعدة الثورة الرئيسية في كيانجس.

وفي يوليو 1934م أصدرت الثورة قراراً بالزحف شمالاً لمقاومة الاعتداء الياباني، وبعد 3 أشهر غادرت كتائب الجيش الرئيسية كيانجي متبوعة بوصمات المقاطعات الأخرى متوجهين شمالاً. وهكذا بدا "الزحف العظيم" المشهور.

الاستعمار الياباني 1937-1945م

في يوليو 1937م قامت اليابان بغزو عسكري للصين وبدأت المعركة على كوبري ماركو بولو في الجنوب الغربي لبكين، وفي أغسطس امتد الغزو فشمل شانغهاي وقد اشتركت الفرقة الثامنة للجيش الأحمر والفرقة الرابعة الأولى بالتضامن مع الاتحاد السوفيتي الذي وقع مع الصين معاهدة عدم اعتداء بالإضافة إلى الإمدادات العسكرية. وقد كان منذ نتيجة اندلاع هذا الغزو اندلاع حرب الباسفيك بين اليابان والولايات المتحدة في ديسمبر 1941م.

استمر تشان كاي تشيك مقاومته السلبية للغزو الياباني مركزاً قواته في الجنوب الشمالي والشمال الغربي للصين موجهاً مقاومة عنيفة للحزب وللشعب: وفي أغسطس 1945م أعلنت روسيا الحرب على اليابان وفي 14 أغسطس أعلنت اليابان التسليم.

الحرب الأهلية الثورية وتأسيس جمهورية الصين الشعبية 1945-1949م

بعد إنهاء حرب المقاومة لليابان ساندت الولايات المتحدة تشان كاي تشيك بالمال والرجال لقمع نشاط الحزب الشيوعي والقوى التقدمية في البلاد. وقد عملت قوات الولايات المتحدة التي عسكرت على طول الساحل على تسليم جميع الأراضي المكتسبة من اليابان لتشانج كاي تشيك مكتلة ملايين الرجال وأحدث العتاد حول المناطق المحررة بواسطة جيش التحرير في الشمال والشرق والشمال الشرقي.

إلا أن الحزب الشيوعي أراد المفاوضات السلمية مع الكومنتانج ليتفرَّغ لحركات الإصلاح في الأراضي المحررة. وبالرغم من ذلك أطلق تشانج كاي تشك قواته وقوات الولايات المتحدة على المناطق المحررة وأجبر الحزب على الانسحاب من نانكين شانغهاي نسونجكينج إلى بينان وفي النهاية داهم بينان مشتتاً جيش التحرير.

وفي أكتوبر 1947م أصدر الحزب بياناً يعلن فيه عزم الجيش على هزم تشانج كاي تشيك وبناء الصين الجديدة.

ومن ثم بدأت عمليات هجومية "بعد الدفاعية" من جانب قوات الحزب: وفي نوفمبر من العام التالي استولى الجيش على جميع أقاليم الشمال ومع تقدم نوفمبر حُرِّرت أقاليم الشمال الشرقي: وفي يناير 1949م دمرت قوات التحرير باقي جهاز الوكمنتانج في نفس الوقت الذي كانت فيه قوات الشمال تعالج تينسين وبكين إلا أن بكين حُرِّرت بأساليب سلمية.

وفي أبريل حررت تانكن من حكومة الكومنتانج وبتقدم عام 1949م حررت مزيداً من المدن حتى كان شهر سبتمبر حين عقد مؤتمر

استشاري للأحزاب الوطنية التي آزرت الحركة القومية جميعاً في بكين. وفي خطاب الافتتاح أعلن الرئيس ماو أن الشعب الصيني 1/4 سكان العالم قد انتصب ليقف على قدميه.

وفي أول أكتوبر أعلن الرئيس ماو رسمياً تأسيس جمهورية الصين الشعبية.

1949-1952م

بدأت عملية البناء الاقتصادي على نحو متطور نحو الاشتراكية وإعادة ترميم المصانع والمنشآت التي دمرتها الحروب ومن ثم نقطة الانطلاق نحو تدعيم جميع الانتصارات الماضية.

وبقصر هو متحف وقفنا على سجل لكفاح العمال وشاهدنا صوراً مأخوذة لشهداء معارك العمال منها قصة محاكمة وطني شاب من أبطال المقاومة الشعبية وانج سو -هو وقد كان في الخامسة والعشرين من عمره حين أُلقي القبض عليه "وقد تزوج لتوِّه" بتهمة القيام بأعمال تحريض للعمال والصور التقطت لجميع أطوار القضية ابتداء من لحظة اعتقاله إلى المحاكمة الصورية إلى أيام السجن وصورته وهو يهتف "يسقط الاستعمار، عاشت الصين الشعبية": وصورته وهو في رحلته الأخيرة إلى ساحة الإعدام وزوجته على مقربة من المكان ثم صورة أخيرة له وهو يتلقى الرصاص بعيون مفتوحة وجسورة ثم صورة الجسد يتهاوى بفعل الرصاص.

وفي المتحف الذي يحمل اسمه جميع أدواته التي كان يستعملها: الكتاب الذي كان يقرؤه في سجنه وأدوات الكتابة التي كان يكتب بها، وآخر رسالة استطاع تهريبها لزوجته، وملابس السجن، والملابس التي

كان يرتديها يوم إعدامه وقد اخترقتها رصاصتان عليها بقع سود من دم جاف.

أشياء بعثت إلى عيوني دموعاً لم أملك حبسها فانهمرت برغمي وانتابني شعور بالسخف واللاجدوى وأنا أرى وأسمع: هل كل ما يبقى من حياة مليئة فياضة عارمة مجرد أشياء للذكرى؟ وزوجته؟ إنها تعمل الآن مُدَرِّسة في ثانوية وعضواً في الحزب الشيوعي والاتحاد النسائي.

يا للبساطة! استمرار الحياة الحتمي. وللمرة الثانية شعرت بسخف دموعي وحمقي. إنه جدير بحياة خالدة.

النساء

من أتعس مشكلات المرأة في الصين عموماً وفي شانغهاي بدرجة حادة مشكلة البِغاء.

كان المجتمع الصيني منقسماً إلى طبقتين تفصلهما فوارق بارزة. طبقة الملاك الإقطاعيين والأغنياء، وطبقة الفلاحين والفقراء والحرفيين الأكثر فقراً. وكان هذا الفقر هو أصل جميع المشكلات الاجتماعية حتى ليقال إن الناس كانوا يتبادلون أبناءهم ليأكلوهم. وقد أورد لوسون مثل هذه الأساطير في قصته المشهورة "يوميات رجل مجنون" وأن الفتيات كن يسرن عرايا لندرة الخرق.. حتى الخرق!

إلا أن الأمر المؤكد أن هذا الفقر الماحق قد دفع الناس إلى بيع بناتهم الصبايا واللواتي حول الخامسة للمواخير. وقد انتشرت بفعل الحاجة تجارة الرقيق الأبيض في المدن والقرى على السواء. وكانت هذه المواخير تربي هؤلاء التعيسات حتى يبلغن الثالثة عشرة، فتقوم بدورها بتوريد البضاعة إلى بيوت الدعارة في المدن الكبيرة. وكانت شانغهاي

من أكثر مراكز رواج هذه التجارة يضاف إلى أسباب هذا الرواج وجود كميات هائلة من الجنود المستعمرين طالبي المُتَع.

وكانت هذه التجارة تنتعش إبَّان المجاعات والفيضانات التي تقضي على آخر أمل في الرزق، إلا أن الثورة أخذت على عاتقها حتى بعض القضاء على أسباب البغاء الأولى وهي الفقر -أخذت على عاتقها اجتثاث آخر جذور هذا المرض الاجتماعي السرطاني: ذلك أن بعض الحالات كانت في الغالب لا تلغى لمجرد إلغاء أسباب الحاجة وإنما لأسباب نفسية وسيكلوجية. وقد قامت لجنة من مندوبي الهيئات الاجتماعية في نوفمبر عام 1949م بإغلاق جميع المواخير في بكين ثم بدأت حملة واسعة بين النساء الواعيات جندن لتعليم البغايا وإكسابهن مؤهلات للتكسب الشريف ثم علاجهن من الأمراض السرية التي كانت متفشية بينهن بنسبة 96% وقد تم إغلاق 237 ماخوراً كانت تضم 1316 امرأة.

ولا شك أن نمو الاشتراكية يعني بالضرورة القضاء على جذور هذا الداء المادية والفسيولوجية ذلك أن العلاقات الجنسية الشاذَّة ليس لها وجود في مجتمع واعٍ متقدم يتمتع أفراده بجميع فرص الحياة الكريمة اللهم إلا في حالات شاذة.

وقد رؤي بعد التحرير مباشرة تكوين مراكز لتعليم هؤلاء النسوة وأخرى لإيواء أطفالهن. وينص القانون على أن "الأطفال غير الشرعيين يتمتعون بنفس حقوق الأطفال الشرعيين ولا يسمح لأي فرد بإيذائهم أو التفرقة الفاصلة بين الأطفال غير الشرعيين وغيرهم" "المادة الخامسة عشرة -الفصل الرابع من قانون الزواج".

ومنحهم ثقة المجتمع ومساعدتهم على استنشاق حياة أكثر كرامة.

وفي هذا المركز تقضي الواحدة ثلاثة أشهر في تعلُّم الحياكة والتطريز أو أعمال الفلاحة. ولتعطي الدولة لكل واحدة رأسمال صغيراً

مكوناً من أدوات الكسب وقطعة أرض صغيرة. وتتجه 50% منهن إلى الزراعة كوسيلة مفضلة للعيش.

وقي تزوج 30% من هؤلاء النسوة، وأصبحن زوجات يساعدن أزواجهن من العمال أو الفلاحين وقد أثبتت مثل هذه الحالات نجاحاً كبيراً.

وأصبحت 10% منهن عاملات، وحوالي 5% فَضَّلن دراسة الفنون كالموسيقى والرقص والغناء واحترفن فيما بعد.

وقد برزت منهن عاملات مثاليات تقدميات، ومنهن أيضاً أعضاء في الحزب الشيوعي ومنظمات الشباب والسلام.

قيادة الاتحاد النسائي

نتيجة لاهتمام الحزب الشيوعي بالنساء ورعايته وحمايته لمصالحهن، قويت مظاهر المساواة التي شرعها قانون الصين أصبحت جميع الحقوق النسائية تمارس على نحو شامل وساطع أيضاً.

ذلك أن وجود النساء كقوة "أضخم احتياطي للحزب" فإن الحزب يرى أهمية كبرى في تعبئة النساء وتدريب كادر نسائي لدفع عجلات التقدم نحو المجتمع الاشتراكي.

ويقول لينين في ذلك إنه "لو لم تكسب النساء الحرية الكاملة فلن تكون هناك حرية كاملة للبروليتاريا".

ويقول ماوتسي "أرسلوهن للعمل وسوف يتعلمن بالممارسة، سنرى أن أعداداً من ذوات الكفاءات قد برزن خلال هذا العمل".

وفي تقرير تشاي تشانج السكرتير الأول للجنة العمل وسط النساء باللجنة المركزية للحزب بالمؤتمر الثامن "إن عدد الكادر النسائي كان في

عام 1951م: 150 ألف امرأة وكن يؤلفن 8% وحسب من مجموع كادر الحزب لجميع حالاته، وفي عام 1955م أصبح هذا العدد 764 ألف امرأة أي 14.5%".

وعن طريق هذا الكادر استطاعت المرأة الصينية التغلب على جميع مشكلات عدم المساواة.

وقد ساعدت حركة الإصلاح الزراعي في خلق الجو الملائم لتطور المرأة اجتماعياً وسياسياً ذلك أن ازدياد الحاجة إلى الأيدي العاملة مع انتشار الوعي بين الناس هدم الكثير من التقاليد العقيمة القديمة واستحدث للناس مؤسسات تتماشى مع روح العصر. وبخروج النساء من قواقع التقاليد، أصبحت المساواة أمراً يكتسب بالممارسة، إذ أن القانون وحده لم يكن يكفي لإلغاء الأوضاع القديمة حتى أقبل الناس ومارسوا القانون في عفوية وتطور طبيعي لأحداث حياتهم الجديدة.

وبنمو الاقتصاد القومي وحركة تصنيع الزراعة والتصنيع الثقيل للبلاد –ظهرت مشكلات جديدة للنساء العاملات– وهي تحديد النسل وتنظيمه ثم الأطفال:

في مارس سنة 1955م أصدرت اللجنة المركزية للحزب قانوناً يعالج مسألة تحديد النسل:

إن تحديد النسل مسألة تتصل بحياة جماهير الشعب، وتحت الظروف التاريخية الحاضرة، ومن أجل رخاء البلاد والأسرة والجيل الجديد، يرى حزبنا أن يطبق تحديد النسل وتنظيمه إلى حد ما".

وكانت حركة نوعية جديدة في طول البلاد وعرضها قامت بمبادرة الاتحاد النسائي وكادر الحزب.

وبوجود التعاونيات في الأقاليم والقرى انتهى قلق الأمهات الفلاحات. ذلك أن التعاونية دولة صغيرة تأخذ على عاتقها مهمة توفير

العمل للجميع ومساعدة كل شخص على القيام بواجبه كمواطن، وعامل ورب أسرة.

إن إحصائيات النساء في مختلف مجالات العمل توضح أن مثل هذه الأرقام الضخمة لا بُدَّ أن نفسح لها مجالاً عادلاً في عالم عادل.

وتقرير تنج ينج تشاو نائبة رئيس الاتحاد للمؤتمر الثامن للحزب الشيوعي يقدم هذه الأرقام:

يوجد أكثر من 100 مليون امرأة مزارعة وأكثر من 2 مليون امرأة موظفة وعاملة وأكثر من 2 مليون امرأة حرفية. وحوالي 8 مليون كادر نسائي للحزب.

وفي قيادة جميع هذه الأعمال الرائدات سونج تشنج لنج "مدام صن يات صن" وترأس الاتحاد النسائي، ونيابة رئاسة اللجنة القومية الثانية للمؤتمر السياسي الشعبي الاستشاري الصيني. واللجنة القائمة لمجلس الأمة. ورئاسة معهد الترفيه الصيني، ورئاسة اللجنة القومية لحماية الأطفال.

ثم هو هسيانج نينج "مدام لوسون" وتتولى رئاسة "شرف" الاتحاد النسائي ونيابة رئاسة لجنة الكومنتانج الثوري، ونيابة رئاسة اللجنة الثانية للهيئة الاستشارية السياسية الشعبية.

ومن أبرز أعمال الاتحاد أيضاً:

1 – ربط كفاح النساء الصينيات بكفاح النساء في العالم وتطبيق مبدأ أساسي هو تقوية علاقات الصداقة والتضامن بين الدول.

2 – مساندة كفاح النساء من أجل نيل حريتهم وحرية بلادهم.

3 – الدفاع عن حقوق النساء والأطفال ومساعدة المرأة للقيام بواجبها كمواطنة وأم عاملة.

4 – حماية سلم العالم والوقوف ضد سياسة الحرب ومناهضة جميع أساليب الضغط والقمع والتفرقة. ومن مظاهر توكيد هذا المبدأ علاقات الصداقة والاتصال المتواصل بين اتحاد نساء الصين وجميع النشاطات النسائية والعالمية الأخرى.

وللاتحاد اتصالات وثيقة مع أكثر من 60 دولة ومن هذه الصلات ما يربطنا نحن كنساء سودانيات بنساء الصين وتضامناً مع الهيئات الشعبية السودانية الأخرى في مناشدة حكومتنا للاعتراف بالصين الشعبية. وتضم جمعية الصداقة الصينية والسودانية عشر سودانيات. وقد بدأت هذه العلاقات بمناورة اتحاد نساء الصين الذي وَجَّه دعوته لوفدنا.

ومن أبرز فروع الاتحاد فرع شانغهاي وذلك يرجع إلى الجهود الجبارة التي قام بها في مواجهة المشكلات المتأزمة والمركبة لنساء المقتطعة بسبب ظروف شانغهاي.

ومن انتصارات اتحاد نساء شانغهاي.

1 – التغلب على مشكلة البغاء على نحو مطلق.

2 – إقبال النساء بدرجة كبيرة على المشاركة في الصناعة والزراعة ومختلف الحرف وميادين العمل الأخرى حتى أن 95% من نساء تشكيانج يشتركن في جميع نواحي العمل الزراعي التعاوني.

3 – تجيد النساء أكثر من 60 حرفة من مجموع الحرف المعروفة البالغة 87 حرفة إجادة تامة وترتفع هذه النسبة في بعض الأماكن لتصل 72 حرفة.

4 – بلغ مجموع الأجور للنساء في الخريف الماضي 40% من الأجور كاملة.

5 – وصل إنتاج النساء في مسم الحصاد 1956م 38,98% من مجموع التعاونيات في كل الهسو.

6 – بلغت نسبة النساء المبرزات 50% من مجموع العمال البارزين سنة 1956م.

7 – ثبوت أهمية اشتراك النساء في سرعة إتمام عملية الإصلاح الزراعي.

8 – اتضاح تطور مستوى حياة الأُسر الريفية وارتفاعها.

9 – ازدياد نسبة كادر النساء غير الشيوعيات "يمكن تطبيق جميع هذه النتائج على الفروع الأخرى بدرجات قليلة التفاوت".

10 – ارتفاع الوعي السياسي لدى النساء حتى إنهن يؤلفن أضخم احتياطي للحزب وذخيرة لا يستهان بها إلى جانب قضايا السلم والحرية والتضامن.

وبعد..

لقد دعانا اتحاد نساء شانغهاي المجيد لحفل تكريم ليلة عودتنا إلى بكين وكن قد خَصَّصن الصباح لمؤتمر صحفي نسائي "جميع المصورين والصحفيين بالمؤتمر من النساء" ألقت فيه الزميلة رئيسة وفدنا كلمة شرحت فيها ظروف النساء في السودان والانتصارات القليلة التي أحرزنها كما تبادلت ورئيسة الاتحاد كلمات الترحيب والتضامن.

وفي المساء التقت معنا شخصيات بارزة في مجتمع شانغهاي حول موائد حافلة على نحو مترف. وطبيعي كان الكرم الصيني أوسع بكثير من شهيتنا المحدودة.

كنا في حالة من الانشراح والسعادة الطافحين: المكان يعبق بأريج الأزهار المتفتحة في الخارج على ضوء ممر خريفي. وفي الداخل كان صوت ممتلئ حياة لمغنية أوبرا شابة جلست في رداء مخملي أحمر وعلى

وجهها المستدير المتلقي لضياء المصابيح الخافتة فبدت كراقصة معبد بوذي جلست عند قدمي المعبود في لحظة تعبُّد مهيبة، كان صوتها يخرج من بين أسنانها الصغيرة اللامعة وعيناها مسبلتان في استطالة آسيوية. حين شرح الصمت المصغي أو الهناء الصامت صيحة جزلى انقطعت فجأة أيضاً حتى حسبت أنها لم تكن وأنّي أتوهم. إلا أننا جميعاً كنا قد تنبهنا واشرأبت أعناقنا تساعد عيوننا على الاستطلاع.

لقد تفتحت زنبقة "لا أذكر اسمها" لا تفعل ذلك إلا مرة كل عام. وكانت لحظة نادرة.

وحول وعاء النبتة الخزفي الرائع "أيضاً" رأيناها تتفتح ببطء وهدوء مواظبين كرئتين أخلي سبيلهما لتمتلئا بالهواء والحياة.

زنبقة شمعية البياض هائلة الحجم تتفتح مرة كل عام وتظل كذلك لأسابيع ثم تعود إلى الانطواء ضامة كأسها العجيب الخضرة المؤلفة تبايناً عبقرياً مع بياض الأوراق لتتفتح بعد عام آخر. حين يتحوَّل الكأس الأخضر إلى برعم جديد ثم زنبقة وتتحول الزنبقة القديمة إلى بذور تنثرها بعد عام أيضاً عندما تتفتح كلفاً بيضاء سخية.

وعبق المكان بعبير عجيب قوي وساحر. ولست أدري لم انبعث بقلبي أسى ضئيل بدا يطفو ليحول الإحساس بالسعادة والبشر الطافحين إلى شعور أقرب إلى الكآبة والانقباض لأمر غامض لا أدري كنهه ربما ينتظرني بالخارج ذي الألف وجه متسائل في قلب الليل أو ربما في البعيد.

والغربة نقطة ضعف لمسافر لديه أسباب اللهفة ولديه أيضاً تجاوب فطري مع الأسى "نواة سعادة الكئيب" كما يقول تشيخوف.

وفي تلك الليلة أيضاً أهدانا الاتحاد تذكارات صغيرة وعديدة –كما العادة– كان من بينها شباشب حريرية مطرزة على النحو الصيني التقليدي. وعندما عدنا أخذنا نقارن فيما بينهما! وتمخضت المشايعة عن شبشبي وشبشب الزميلة علوية على أنهما أجمل اثنين. وقد رأينا أن نصل

إلى نتيجة نهائية وكانت ثالثة محكّمة! ففاز شبشبي! وانبعثت عيون الأخت علوية التي لم تحتمل استفزاز الباقيات إمارات عتب وغيظ فاستأنفنا الحكم وعدلناه حتى لا تبيت علوية غضبى أو كدرة. أو تفقد فرصة رؤية أحلام جميلة تخرج في الصباح من سماعها منمقة مع إضافات من علوية المشهورة بأحلامها عن السودان وبأكثرها ألواناً.

كنا في تلك الأيام الجميلة نتصرف بطفولية عفوية الصفاء وكأنما الأجواء البسيطة التي حولنا تغلبت على أجوائنا المكبلة بالرواسب والعقد فتخلينا عن الأحاسيس المتباينة الآسرة التي تملأنا ومن الشعور بجدية العمل الذي نحن بسبيله لنعيش لحظات جذلى مورقة، صافية.

وكانت هذه العفوية تبرز في لحظات الوداع عندما نصدح بضرورة انتزاع أنفسنا من الأجواء التي أحببناها عندما نفاجأ بالرحيل كضرورة مرة واجب تعاطيها.

كانت الأخت دولت تنبهنا بوقار وحزم شديدين وهي تبتعد بعيونها عنا وقد اكتشفتُ فيما بعد أن هذه عادة دولت عندما تقول أشياء لا تؤمن بها أو تكذب، أكاذيب بيضاء طبعاً، فتختلج أهدابها لحظة قصيرة وبغير أن تواجهنا بنظراتها.

اسمعوا يا بنات ما عاوزين بكا، بلاش بَرْجَزة "من بورجوازية" سامعة يا خديجة وفاطمة!

قصر الأطفال

في شانغهاي زرنا قصر الأطفال وهو بناء أبيض ضخم تحف به حديقة شاسعة كان ملكاً لأحد الاستعماريين الفرنسيين.

ويعرف قصر الأطفال باسم "بيتنا الحبيب" بين الرواد الصغار وتلاميذ مدارس شانغهاي. وهو مكان حبيب فعلاً حيث يقضي أكثر

من ألف طفل يومياً ساعات سعيدة في ممارسة هواياتهم المفضلة وتنميتها على يدي مشرف أخصائي وينمي معها ثقتهم بأنفسهم وقواهم الخلاقة.

وتتألف نشاطات الصغار من فرق صغيرة ينضم إليها كل حسب رغبته الخاصة. فرق للعلوم الطبيعية والعلوم الفسيولوجية للفنون والحرف للرقص والموسيقى لصناعة نماذج الطائرات والسفن ومختلف أنواع الرياضة. ويلتقي آلاف الصغار في أمسيات السحر والمهرجانات حيث تتم آلاف الصداقات وتُسأل مئات الأسئلة عن الأبطال المشهورين والمواطنين المثاليين من العمال المبرِّزين وحول حياة الشخصيات التاريخية والأدبية.

وحيث يرقص آخرون حول نيران فرقهم الكشفية أو يرقبون مسرحيات وأفلاماً مثيرة شائقة ومحببة. وللَقصر مكتبة ضخمة تضم مجموعة مختارة من الكتب تبلغ 50 ألف جزء جمعت بغاية توجيه النشء ولإشباع هواة القراءة.

وبالقصر يلتقي أطفال شانغهاي أيضاً بأطفال من جميع أنحاء العالم. وبالرغم من اختلاف اللغات وسني العمر أحياناً فإنهم سرعان ما يجدون جواً من الصداقة والسلام ويتحولون إلى أصدقاء وأحباب.

والأيام التي تمضي في قصر الأطفال تؤلف أجمل ذكريات هؤلاء الصغار. هنا يجدون الهدوء والأجواء المهيئة مع العلم والحياة يتهيؤون للعمل من أجل بلادهم وشعبهم في المستقبل.

وعندما نذكر وسائل الطفولة السعيدة، يتبادر إلى الذهن اسم سونج تشنج لنج مدام صن يات صن الذي اقترن دائماً بكفاح الشعب الصيني على نحو موصول من أجل استقلاله الوطني.

وتسونج تشنج لنج منذ أن استطاعت وهبت طاقاتها التي لا تفتر في سبيل حماية الطفولة والسلام. ومن بين أعمالها الكثيرة المجيدة إنجاز

بارز هو تأسيس معهد ترفيه الصين والذي ظل دائماً تحت رعايتها المباشرة.

وقد بدا هذا المعهد باسم رابطة الدفاع الصيني حتى عام 1945م وقد أخذت سونج تشنج لنج على عاتقها منذ البداية مهمة العمال على مساعدة الشعب الصيني خلال كفاحه في الداخل والخارج.

وكان عمل المعهد في البداية يتألف من توفير العناية الطبية بالإضافة إلى أعمال رعاية المحتاجين من أيتام وأرامل.

إلا أن بداية عام 1949م أضافت لأعمال المعهد وسائل جديدة للتوسع المشاريعي فشمل العناية بالطفل والأم، والنشاطات الثقافية للنشء. وقد تطور المعهد الآن ليشرف على جميع شؤون الطفولة من الأجنة حتى لا وصول مرحلة الاستقلال ومواجهة الحياة. ومن أجمل الأشياء التي وقع عليها بصرنا خلال جولتنا الطويلة في القصر الشاسع الفاخر قاعتا العلوم الفلكية والباليه.

فالأولى مزودة بكل وسائل التوضيح البسيطة المبسطة، وأروع من ذلك جميعاً سقف القاعة الذي يتحول إلى سماء منجمة إذا ما ضغط أحد الأزرار وإلى سماء مقمرة إذا ما ضغط آخر وهكذا.

أما الباليه فقد أبهجتني رشاقة الأطفال المدهشة والراقصات الصغيرات ذوات الضفائر الكستنائية. ومن الملاحظ أن النساء في شانغهاي ذوات شعور وعيون أقل ضيقاً. وتصل أحياناً هذه الملامح من الابتعاد عن الملامح الصينية، ما يجعلنا نتساءل هل لتاريخ شانغهاي الطويل مع الغزاة والمستعمرين علاقة بذلك؟

إن الراقصات الصغيرات يبدأن تعلم الباليه منذ سن الثالثة، ومن هنا يكسبن الرشاقة والمرونة المطلوبتين منذ سن صغيرة.

وأجسام الصغار جميعاً تعكس بوضوح مظاهر الصحة والعافية وذلك بفضل الاهتمام بالنواحي الرياضية وتربية الأجسام التي توجه إليها العناية على نحو مساير لجميع مظاهر خلق أمة قوية.

وقد رأيت فيلماً سينمائياً ملوناً عن "فريق كرة السلة رقم 5 النسائي" ويدور الفيلم من بدايته حتى النهاية حول حياة اللاعبات، تكوين الفريق، التمرينات اليومية، أول مباراة وجميع النجاحات التي لقينها والفشل الذي تعرضن له، خلفية الفيلم قصة محزنة لحياة أم البطلة التي عاشت في مجتمع ما قبل الثورة مجنياً عليها ومهانة ومعرضة للظلم والمشقة من جانب زوج أرستقراطي ماجن.

وخرجتُ من الفيلم بحقيقتين الأولى تغير وضع ونظرة المرأة ونظرة المجتمع لها بعد الثورة، والثانية أهمية الرياضة لبناء مجتمع قوي سيبني دعائم اشتراكية قوية. وأن الرياضة ليست أقل شأناً من أي عمل آخر، ويقول مدرب الفريق للبطلة:

– سوف تصبحين بطلة "شامبيون" في الأوليمب القادم.

– ولكن لن أستطيع متابعة التمرينات، أن أمي تتوقع التحاقي بالجامعة بعد العطلة.

– أن حمل اسم الصين إلى محفل دولي، وحمل علمها بين عشرات الأعلام الأخرى ليس أقل من أي درجة جامعية تحصلين عليها.

وتذهب البطلة إلى المباراة وتخلف الجامعة والامتحانات ومعها مدربها ومباركة أمها لتنصرف ابنتها.

أوبرا شانغهاي

يبلغ رواد المسارح والسينمات في شانغهاي أكثر منه في أي مدينة أخرى، وترى صفوفاً طويلة تتدفق في الأمسيات على دور الأوبرا والمسارح، تمتد الصف الأزرق الطويل أحياناً إلى نهاية الشارع.

وأغلب رواد المسارح من العمال يملؤون الصالات الفاخرة لدار الأوبرا العريقة كل ليلة في أرديتهم الزرقاء ووجوههم البسيطة الذكية. وقد كنا في مقاعد أمامية على مقربة من عشرات من هذه الوجوه التي ما إن يدق آذان رفع الستارة حتى تتجه بكليتها نحو المسرح لا تبارحه عيونها لحظة. وكثيراً ما كنت ألتفت إلى الخلف أو إلى الجانب لا تملّى هذه الوجوه وهي تحدق بأوسع عيون تستطيع، وكأنما تشرب من نبع شغفت به.

ومن إحدى وسائل الثقافة والإمتاع معاً المسرح الصيني وهو يتميز من مقاطعة إلى أخرى ومن مدينة إلى مدينة، فأوبرا بكين تختلف عن أوبرا شانغهاي في طريقة الإلقاء وفي الملابس وتوزيع الأدوار. فمثلاً تستطيع ممثلة أوبرا شانغهاي القيام بدور نسائي ورجالي!

ويقبل هؤلاء الرواد على المسرحيات القديمة والأعمال الدرامية لسنين 1920–1930م التي تفضح شرور تلك الأيام وتفتح عيون الناس على ضرورة الثورة، كما يقبلون على المسرحيات الحديثة التي لا تقل روعة والتي تبين مساهمة الكتاب والمؤلفين في بعث وبناء أدب جديد لمجتمع اشتراكي عريق التاريخ، كما يقبلون أيضاً على شكسبير وابسن، وشو، وتشيخوف، وغوركي.

وتطور المسرح الصيني من أرستقراطية إلى شعبية أكسبه خبرة مباشرة بذوق الجماهير واطلاعاً وتبيناً صريحاً لمواطن الضعف والقوة فيه.

من ذلك ما تعرض له ممثلو المسرحيات القديمة التي تمجد أيدلوجية الإقطاع وتسفه انتفاضات الشعب وتسخر منها.

فقد تنازل من لان فانج الممثل المسرحي المشهور عن أحب أدواره إليه في تستن آخر والقائد العام والتي أمضى ثلاثين عاماً يمثلها بنجاح منقطع النظير وقد درب عليها على أيدي أشهر الأساتذة والفنانين حتى تنبه إلى مضمون الرواية التي يمجد ثأر سيدة من سيدات القصور لحبيبها باغتيال زعيم ثورة الفلاحين.

ويقول من لان فانج "لقد وضعتها جانباً بلا أدنى أسف".

وفي موقف من مسرحية "وداعاً إلى حبيبة القلب" يردد البطل "ليس هذا إلا سخف النساء اللامجديات".

ويضج المسرح بهمهمات استنكار وسخط لإهانة المرأة.

وفي الصين اليوم يدرس آلاف من الفتيات والفتيان في بكين بمعهد الدراما الكلاسيكية كما في معاهد أخرى في شتى أنحاء البلاد فنون الدراما الحديثة بالإضافة إلى ثقافات عامة يتخرجون بعدها مواطنين طيبين وفنانين ممتازين.

ومن أجل تحقيق نداء ماوتسي تونج لخلق أشياء جديدة من أشيائنا القديمة. فإن "عمال المسرح" يضعون جهدهم في تطوير أسلوب الدراما الكلاسيكية التي يحبها الجماهير والرائجة "تشنج نشو أي "أوبرا بكين" وكذلك البنج تشو، وتشو تعني أوبرا".

"ولتتجه فنوننا القومية فإننا نطرق مداخل عوالم تسمح لجميع الأزهار بالتفتح".

الأدب

قلت لصديقة صينية من المرافقات لنا، والقطار يعبر بنا سهولاً منبسطة إلى أوسع مدى، من حقول الأرز ونباتات الجنوب والشمس تغرق في الأفق البعيد، تصبغ العيدان الرهيفة وتتموج عروقاً مرتجفة من الذهب بين القنوات –قلت وقد أشجاني الغروب وامتلأ صدري بعبير الأرض ورائحة الأزاهير الجذلى، ورؤى لأكواخ أنيقة، تنبعث منها أنفاس زرقاء من الدخان تنشر الوعد بوجبة شهية ساخنة عقب يوم حافل بالعمل عامر بالإنتاج:

قلت للصديقة: ترى ماذا تكتب بيرل يك، لو أنها عادت إلى الصين وشاهدت الفلاح الجديد، وإنتاجه الطيب على أرضه تلك الطيبة –لعل "المكارثية" تمنعها من معاودة الكرة؟ ألن تدعو الكاتبة ابن العم سام إلى بلادكم لترى بنفسها؟

وابتسمت الصديقة من رقة وتواضع قائلة "إننا نرحب بجميع الأصدقاء".

وتذكرت فلاح قصة الكاتبة الأمريكية المشهورة التي نالت على دقة وضعها جائزة نوبل، إذ قد وصل الكتاب حدا من الدقة والصدق كفل له أعظم الرواج والشهرة.

الأسطورة والرواية من أقدم آداب الصين إلا أن موضوع هذه الروايات إطلاقاً لم يكن الحياة اليومية للناس البسطاء.

وقد أخذ أدباء الصين الجدد أصحاب أيدلوجية ما بعد الثورة، والماركسيون منهم خاصة، في خلق بدائع فنية نابضة بحياة الناس وشؤونهم الصغيرة وتفاصيل مجتمعهم الفنية. وعن طريق هذه الأعمال وتقدم الوعي الأدبي بين الجماهير تأخذ نظرية العلاقة الوثيقة بين "الأدب والحياة" في التحقق باطراد سريع.

ومنذ ترجمة بيرا بك لقصة "شيوهيو" باسم "جميع الرجال إخوة" لم يعرف القراء بعدها قصة أخرى تتناول صراع الفلاحين وكفاحهم. حتى جاء لوهسون (1881–1936م) أبو الأدب الصيني الحديث ليخلق طوابير هائلة من الشخصيات الشعبية.

وقد ازدهر الأدب الواقعي أيضاً خلال حرب مقاومة اليابان (1937–1945م) حين حارب الكتاب جنباً إلى جنب مع العمال والفلاحين واجدين من خلال تجاربهم المباشرة حلقة شعبية عريضة يستطاع استغلالها كمادة صحيحة للكتابة. وجاءت الأعمال التي تتناول أحداث تطورات الثورة الشعبية أكثر الأعمال الأدبية أصالة ومنها مؤلف تنج لنج "تشرق الشمس على نهر سالكان". "والعاصفة" لتشو لي بو، اللتان نالتا جائزة ستالين.

وتشو لي بو صاحب قصة الفولاذ المنصهر. وقد كتبها بعد عام من معايشة عمال الحديد والصلب في شهشنجشان قرب بكين.

وتبدأ الراوية بقطاع من جيش الشعب خلال عمليات إجلاء الكومنتانج وانحسارهم بقيادة ليو بو هسين حيث تستولي على المؤسسات وتحاول إعادة إداراتها. وتستعرض الراوية حيرة بعض العمال الفنيين حول "كيف تبدأ" إلا أن المؤلف يجمع بصبر ودقة المتقاتلين منهم والنشيطين لإعادة ترميم الموقد الرئيسي، ما يوحي للفئتين بنقطة الانطلاق فيعبروا.

وقد رحب النقاد بهذه الرواية كما لقيت رواجاً بين العمال ومن التعليقات الكثيرة "أنها بنفس اللغة التي نتكلم" كما أنها صادقة وأصيلة.

وخلفية جميع الأعمال الحديثة الجيدة إنتاج رائد الأدب الصيني الحديث لوهسون صاحب "يوميات الرجل المجنون" وقصة "اكيو الحقيقية" "وزوبعة في فنجان" وصديق الحزب الشيوعي العظيم، وقد

عايش الثورة الشعبية ومما أكسب أعماله غنى ودسامة حياة النماذج البشرية الفريدة والشعبية التي أنجبتها أحداث الثورة المجيدة.

وقد مات لوهسون في أكتوبر عام 1936م مخلفاً ثروة ضخمة من الأعمال الأدبية والتراجم والدراسات والمقالات الهادفة التي كانت نبراساً لجيل صاعد من الكتاب الصينيين الحديثين، مثالاً للواقعية في الأدب.

ويقول ماو في مشاكل الفن والأدب أن الماركسية اللينينة تشمل الواقعية في الأدب والفن الخلاقين. ولكنها لا تحل محلها تماماً كما لا تستطيع أن تشمل في الطبيعيات للنظريات الذرية والإلكترونات ولا تستطيع أن تحل محلهما، أما المعتقدات المتحجرة والفارغة فهي تختنق بحق الروح الخلاقة وهي فوق ذلك تهدم الماركسية اللينينية.

إن تعلم الماركسية اللينينية هو ترديد آلي للمادية الجدلية وهذه ستخنق الروح الخالقة.

إننا نريد أعمالاً بإخلاص يحسه القلب ويهدف حماية الشعب.

ويقتبس لينين من قصيدة "لوهسون"

ارفع جبهتك متحدياً غير مكترث

أمام الأصابع المتحدة من آلاف الناس

ولكن احن رأسك بإرادتك

واعمل كالثور من أجل الشباب

ويستطرد ماو:

"وقد تجدون أنتم أيها المثقفون الاندماج في الجماهير والتخلص من "العباطات" التي تشجبها البورجوازية الصغير تجربة مؤلمة وشاقة. إن اعتناق الماركسية اللينينية من الناحية الأيدلوجية وحسب إنما هو مجرد رشق شارات ثورية الياقات.

إن الماركسية اللينينية لدى الكتاب والفنانين وفهمهما الفهم الصحيح الهادف هو التغلب على الانهزامية والتشاؤمية والقدرة على ارتياد منابع الإبداع الفني الواقعي المتصل بحياة البيروليتاريه وجماهير الشعب. إنها هدم نظرية الفن للفن الأرستقراطية التجريدية".

وخلال البحث المخلص وجدت فترات صادقة تحتل كفاح الشعب وحياته ذلك أن الأدب والفتى يمثلان بالضرورة مرآة صادقة شاملة للحياة.

وأعمال لوهسون "مرآة صادقة" ومن أكثر المرايا أصالة وشمولاً لحياة الناس.

هانشو

كان الأسبوع الأخير لزيارتنا من أفضل أيام الزيارة في شانغهاي المثيرة الصاخبة بوحدة الحياة جميعاً الغنية التراث والحاضر، ذات الأماكن التاريخية المجيدة الفخمة وملامحها الهرمة والأماكن الشابة الأخرى.

من شانغهاي تركنا فندقنا الفاخر المطل على ساحة كبرى بها المعرض السوفيتي المصور الدائم والبستان الجميل الذي طالما قضينا، الأخت فاطمة سعد الدين وأنا، به فترات من التأمل والهدوء بين خمائله وتماثيله البديعة ووطدنا صداقات لرواد البستان من الشبان والشابات الذين كانوا يأتون إليه في فترات ما بين ساعات العمل والغداء. وتركنا أيضاً زملاءنا في لعبة البنج بونج الملحقة قاعاتها بالفندق- تركناها ونحن نغالب الشعور بالفرقة ونجتهد في تناسي حقيقة أننا نرى الجميع لآخر مرة وأننا قد لا نلتقي أبداً. لم يكن يمكن تصديق هذه الحقيقة. هل حقاً علينا انتزاع أنفسنا من هؤلاء القوم وتلك الأجواء الحميمة الطيبة، انتزاع أنفسنا للأبد.

المؤلفة: إلى اليمين في معبد بوذا الذهبي في هانشو

ورحلنا..

إلى مدينة جديدة صغيرة قرب شانغهاي هي مدينة هانشو البديعة والواقعة حول البحيرة الغربية. وهانشو شهيرة بجبالها ومناظرها الطبيعية البديعة وبحيراتها ذات التاريخ. ذلك أن أول مؤتمر للحزب الشيوعي الصيني عُقِد على ظهر قارب على سطحها. واستطاعت البحيرة التستر عليهم حينَ وشى بهم أحد الجواسيس.

وفي هانشو مصنع للحرير ينتج لوحات حريرية نسجت عليها بألوانها الطبيعية مناظر هانشو والبحيرة الشهيرة والحوادث التاريخية الهامة كانعقاد المؤتمر على القارب ووداع ستالين للينين على ضفة النهرين

ورحيله إلى سويسرا متخفياً، وصور صن يات صن ولوهسون وماو ومارك ولينين وانجلز ولوبيخانوف بالإضافة إلى إخراج اللوحات المشهورة على النسيج كلوحات تتس باي شو وغيره.

ويقع الفندق الذي نزلنا به على لسان ممتد إلى قلب البحيرة بحيث يطل عليها من على شبه جزيرة تتصل بضفاف البحيرة بجسور قصيرة.

ويقع على الجانب المقابل من الجهة الشمالية قصر إمبراطوري تحول إلى ملهى كبير شعبي وقد رأينا آلافاً من مواطني هاتشو يتوجهون إليه بعد ساعات العمل. ومن أجمل أركان الملهى قاعة تقدم المرطبات الوطنية مبنية جميعها: الجدران والسقف والأرض والأثاث والأواني من البومي والقاعة طافية على سطح البحيرة ولا تثنيها إلى الأرض الحبال القوية التي تشدها إلى البر ويمكن الوصول إلى قاعة البومي هذه على ممرات من البومي المضفور مجدولة على شكل طوف. أما حديقة القصر فبقعة مذهلة بها أركان وخمائل يعجز المرء عن وصفها وجميعها تحمل من الكنوز الغنية ما لا يوصف من نقوش الجدران والسقوف إلى زخرف القباب المخروطية إلى الممرات المنسقة التي يتناثر عليها الطلبة والرسامون كل بلوحاته ينفرد بمنظر طبيعي أو بنائي يلونه في هدوء وصبر وفن.

وعلى البحيرة تتناثر أيضاً قوارب بوصية صغيرة وأخرى بخارية وأغلب المراكبية من النساء تجلس الواحدة في الطرف البعيد من القارب وفي يديها مجداف تضرب به الماء الهادي كمرآة مصقولة تعكس جميع الحوادث الجارية بأمانة مرصاد. وقد لوح وجهها فبدا يميل إلى الاحمرار وألقت ضفائرها الكستنائية الطويلة خلفها وسرح بصرها إلى البعيد في سهوم وهدوء لا يتحرك لها هدب إلا خصلات صغيرة أمامية تعكس ضلالاً متراقصة على الوجه الصامت.

وسطح البحيرة مزدان بكازينوهات وعدة ومطاعم ولما كان سبيل المواصلات منها إلى الشاطئ هو القارب وحسب فإن أعمال القارب من أبرز الحرف للأهالي. ويأتي بعدها صيد السمك ثم تربية دودة القز

وللأخير مصانع ضخمة لتربيته واستخراجه وزرنا إحداها ومتحفاً صينياً خاصاً ملحقاً بها يعرض تاريخ الشرنقة والعذراء والدودة والفراشة وجميع مراحل الحشرة المفيدة ثم أحدث وسائل تربيتها والعناية بها وتوفر أحسن الأجواء لاستغلالها على أفضل نمط.

قلت إن المطاعم والكازينوهات على البحيرة عديدة ومختلفة إلا أن أجملها مطعم كان وحيداً إبَّان حكم المانشو إذ كان وقفاً للأباطرة وهو على نفس الطراز التقليدي المترف وقد حول إلى مطعم شعبي ترى في أركانه الأزواج والأحباب يستمتعون بأطيب الأزمنة وأسعدها. وقد فعلنا نحن. كنا أحياناً نستكثر كل هذا الجمال وتبهرنا عبقرية الفن الذي حيالنا.

وفي هانشو أيضاً رأينا أعجب المناظر: ذلك برج في وسط البحيرة يُرى منه القمر ثلاثة وقد وعدنا برؤية هذا المشهد في ساعات معينة. وجلست أفكر: هل أحتمل كل هذا الجمال وحدي وذكرت آخرين أحببت أن يشاركونيه، إنه أكثر مما أستطيع، قمر وأمواه وفن وأجواء. وتذكرت قصة لسومرست موم بطلها أحب بقعة معينة من جزيرة كابري ترك أمواله وأهله ورحل إليها ليكون بجوارها ليشهد طلوع القمر كل مساء يطلع فيه القمر.

وفي صبيحة ليلة مقمرة افتقده أصدقاؤه على غير عادته ولما مات بحثوا عنه وجدوه عند مكانه المفضل جالساً يحدق بلا حراك وحين لمسوه سقط: كان ميتاً. ويعلق المؤلف بقوله لا بد أنه مات من جمال المنظر.

لا بد أن جمال هانشو والبحيرة يفوق بقعة ذلك الرجل المفضلة ولا بد أننا أقل حساسية.

وقد رأيت ثلاثة أقمار لا واحداً تنعكس على الماء المترجرج بفعل المجداف بعيد الليل يبعث رغبة طاغية في الصمت وفي التأمل وينشر على القلب أسى رهيفاً هو قمة السعادة.

ولقد حظيت هانشو الجميلة بشعراء وكتاب كثيرين عاشوا وماتوا حول بحيرتها الملهمة ومن بينهم شاعر الصين الكبير لوهسون ولهم مقبرة ضخمة من أجمل معالم المدينة إذ قد نسقت على نحو بارع فبدت كأجمل الحدائق.

وبالفندق ونحن نتجول التقينا بالسيدة هوهشيانج ننج وكنا قد التقينا بها في بكين وهي رئيسة الاتحاد النسائي الفخرية وتساءلنا عن وجودها في هانشو فقالت إنها تشرف على التحضير للاحتفال بذكرى مرور 20 عاماً على وفاة لوهسون وأخذت تحدثنا عن التحضير وأعمال الإعداد للاحتفال حين قالت "كان زوجي".. وسألتُ ببلاهة من خلال دهشتي "هل أنت مدام لوهسون؟"، وقبل أي إضافة وجدتنا نتعانق من حرارة دمعت لها عيون السيدة المتواضعة وعيوني وعندما تصافحنا لنفترق قبلتني. وحين رحلت عنا وقفت أرقبها وأناجي بشبه السحر مدام لوهسون! يا الله!

وكانت لحظة نادرة من أجمل الذكريات التي حملتها معي من هانشو والبحيرة والقمر والباجودا ذات الطوابق الثلاثة عشر.

وسيدة أخرى هي تسي تسو عضو هيئة السلام الصينية.

جاءت لزيارتي في غرفتي بالفندق لتعرف عني –على حد قولها– أساليب العمل وسط النساء في حركة السلم السودانية! وكان منها تواضع أشعرني بتضاؤل شديد.

وقد عرفت عنها أساليب العمل وسط النساء في حركة السلم في هانشو. وتسي تسو أيضاً نائبة مديرة الاتحاد النسائي للمقاطعة.

وكانت تتحدث الصينية مع إلمامها بالإنجليزية في حين جلست مس تي تترجم عنا.

حدثتني عن عدد النساء في مجلس السلم الذي يبلغ من 30% إلى 40% من عدد الرجال وعن أسلوب العمل الذي رأيت مدى تقدم حركة السلم عندهم من خلاله.

إنهم يدينون بنفس مبادئ الحركة العمالية بالإضافة إلى المبادئ القومية ومنها نشر الوعي السياسي ومناهضة الاستعمار في جميع أشكاله وتحقيق الاشتراكية للمجتمع الصيني.

نشر أفكار ومبادئ الهيئة بطريقة تلائم مجتمع الأقاليم والنساء الإقليميات.

ومن انتصارات الحركة أنهم في 1950م جمعوا 520 ألف توقيع على نداء السلام الذي أترسل إلى أُستوكهلم.

وإنهم تبنوا فكرة كسب ربات البيوت وإشراكهن في العمل من أجل السلام عن طريق عمال الكهرباء وجارسونات المطاعم وباعة الخضر والبقالين من أعضاء الحركة وجميع من يتصلون بحياة ربات البيوت اليومية.

وإنهم وزعوا النداء على عدة أماكن عامة مثل المطاعم والمكتبات ومحل مبيع الجرائد اليومية ومحطات الأتوبيس حتى يسهل التوقيع دون إرهاق الموقعين وجامعيها.

وعن طريق لجان الأحياء والعاملات أمكن تكليف نقابات العمال بتبني نختلف النشاطات ونشر دعاية الحركة بوسائل وإمكانية النقابة نفسها.

كذلك ساهمت نساء السلام في أولى فرق المساعدة المشتركة في حركة الإصلاح الزراعي لنشر الوعي الاشتراكي الذي هو الخلفية الأساسية للوعي السلامي والسياسي.

وساهمت حركة السلم في هانشو في عمليات محاربة الأمية والتقاليد الضارة بالتضامن مع الاتحاد النسائي ومن الملاحظ أن جميع الحركات الاجتماعية تلتقي عند الهدف الأخير.

كذلك ساهمت في حملات صحية بإبادة الذباب والحشرات الضارة ومكافحة الأوبئة والنظافة مع الشباب والصليب الأحمر. ومن الملاحظ أن هانشو انظف المدن التي رأينا على الإطلاق.

ومن أساليب العمل السلامي:

تنظيم النساء في فئة واحدة ومستوى واحد في مجموعات تخدم مجموعات أقل مستوى بإشراف الهيئة وذلك لخلق الوعي الكافي لإيجاد مجتمع لا طبقي.

وقد وصل الوعي بالنساء درجة كانت حتى النساء العاجزات منهن يشاركن في حملات السلام. ويجتمع الرأي حول قضية سلامية مثل قضية رزنبرج وجميلة. ويحكى أن امرأة ضريرة كانت تخرج لتخطب في الجموع وتحدثهم عن ألوان العذاب التي لقيتها على أيدي اليابان المستعمرين والأمريكان والتي أفقدها صبرها.

وأخرى كسيحة كانت تخرج في باركاب، للتوقيع على نداء أستوكهلم في مناهضة التجارب النووية ومثل هؤلاء من النساء اللواتي يتأثرن ويسهل انضمامهن لاكتوائهن بويلات الحروب والاستعمار أكثر من أي من فئات الشعب الأخرى. كما أن حماية انتصارات الشعب الجديدة وما ناله من رفاهية ومكاسب بعد الثورة هي بالمحل الأول وبالضرورة نتاج أعوام سلمية. ومن هنا كان توكيد الاشتراكية وزيادة سعادة الشعب الصيني ورفاهيته وإضافة انتصارات ومكاسب جديدة للدفاع عن السلم تحت سمائه تنمو أزهار كل المواسم وتتفتح مكونة للأطفال والأجيال القادمة عالماً أفضل وأسعد.

والاتحاد النسائي.

وكان طبيعياً أن يتطرق بنا الحديث إلى نشاط الاتحاد النسائي.

قالت تسو إن أعمال الاتحاد هي:

1 – حماية الأمهات والأطفال والعناية بهم.

2 – رعاية الزواج والأسرة.

ويمكن إضافة جميع ما تقدم من أعمال السلام إلى الاتحاد.

وقد تأسس الاتحاد النسائي في أبريل عام 1942م وكانت بكين قد تحررت في ذلك الوقت. وقد عقد أول مؤتمر وطني مؤقت أقر فيه قيام اتحاد نسائي. وهو منظمة نسائية تضم ممثلات لمختلف وجهات النظر. وفي عام 1953م عقد مؤتمر عام انتخبت فيه اللجنة التنفيذية وهي نفس اللجنة القائمة بقيادة الاتحاد النسائي حتى اليوم.

وتضم اللجنة التنفيذية 153 عضواً من مختلف مجالات الفكر والأجناس والأديان والقوميات من أماكن مختلفة ونائية أحياناً، فقد انتخبت لجنة مكونة من 25 منهن لإدارة أعمال الاتحاد وترأسهن كل من شونج نيج لنج "مدام صن يات صن" وهو هسيونج "مدام لوهسون" "فخرياً" وتساي نسانج فعلياً.

وقد بدا الاتحاد عمله بتعليم النساء ليساعد على بناء مجتمع نسائي واع بناء مجتمع اشتراكي قوي متكافئ القوى.

ومن أبرز أعمال الاتحاد مجلة نساء الصين التي تطبع بخمس لغات وتعنى بالأسرة وتخلق وعياً نسائياً وجماهيرياً لأهداف الاتحاد.

صدرت عام 1942م.

توزع 40 ألف نسخة.

تنطق بلسان الاتحاد

تعنى بتوعية 48,18% من سكان الصين وهي نسبة النساء.

تنشر الأيدلوجية الحديثة للصين الشعبية والمبادئ الماركسية بين النساء وكذلك الثقافات الوطنية.

وصل عدد القارئات "حتى آخر 1956م" 100 مليون قارئة.

رفع المستوى العلمي بين النساء ومتابعة انتصارات العلم.

تشجيع المبرزات من العاملات وغيرهن بنشر نجاهن في مجال العمل وخلافه.

تنشر الثقافة الصحية.

تنشر الثقافة السلامية.

بلغ عدد النسخ عام 1956م 750 ألف نسخة للداخل و2300 ألف نسخة بخمس لغات للخارج.

من أبواب المجلة:

1 – "الاكتشافات العلمية" عرض وتسجيل الاكتشافات العلمية.

2 – المبرزات من النساء.

3 – "الآباء" وهو باب موجه في تربية الأطفال.

4 – "للحوامل" ثقافة فسيولوجية للأم والطفل وتجنب أمراض السنين الأولى والأوبئة.

5 – "المترل" لخلق ذوق واقتصاد مترلي ومعالجة مالية الأسرة.

6 – "الأدب" الآداب القومية. الثقافة الوطنية والعالمية لخلق ورفع مستوى أدب وثقافة النساء.

7 – "شخصيات نسائية" تاريخية عالمية قومية.

8 - "من أجل السلام" باب في الثقافة السياسية وويلات الحرب والاستعمار مثل مشكلة فرموزة أو حوادث الشرق الأوسط أو مؤتمرات الدول الآسيوية أو بابونج.

9 - "المساواة" مناقشة ممارسة حقوق النساء بعد التحرير وتطبيق القوانين وشرح وتبسيط دستور الشعب.

10 - "الإصلاح الزراعي" وهو من أهم أبواب المجلة ويناقش هذا الركن بتوسع تطورات الأصول الريفية. والعمل على اختصار الفوارق بين الريف والمدينة بالإضافة إلى تشجيع تعاون العمال والطلبة مع الفلاحين على خلق طبقة العمال والمزارعين أو على العكس ويؤلف هذا التعاون الخلفية المطلوبة لتطبيقه نظام كميونات الشعب وهي المديريات المستقلة وذات النمط الفريد لأنظمة الحكم والإدارة والاستغلال،.. إلخ.

كذلك يعمل في ركن الإصلاح الزراعي على محو الفوارق الطبقية بنشر الوعي الاشتراكي للصين الاشتراكية.

11 - تأهيل النساء الأرستقراطيات لأعمال مجدية عن طريق اقتراحات عملية بالإضافة إلى التركيز على محو الرواسب المريرة التي قد تتخلّف عن وضع هذه الطبقة الجديدة بعد الثورة، ويشرح نظرية الحكم اللاطبقي وتوضيح الضمانات الاجتماعية التي تكفلها الدولة للفرد واقتلاع رغبة الاقتناء الملكية الفردية من أدمغة البورجوازية بدحض مسبباتها.

والباب الأخير.

هو باب حلول لمشاكلك وهو على نمط اسأليني أو بيني وبينك في مجلاتنا العربية، وهو باب هام بالرغم من تغَلُّب النساء على المشاكل الاقتصادية والسياسية إلا أن هناك دائماً مشاكل اجتماعية تقليدية في سبيل التقلص كالحماة وامتناع الرجل عن المشاركة في الأعمال المترلية!

العودة

وفي طريق العودة كانت شوارع المدينة المزدحمة بالناس والسلع الأنيقة الزهيدة الثمن والجميلة والتي جمعنا تذكارات وهدايا منها. كانت الشوارع تموج بألوان الزينات المعلقة من أجل استقبال ضيف الصين أحمد سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا، وكانت صورته وصور ماوتسي تطل على الميادين بأحجام هائلة حتى لترى نظرة العيون الأربعة من بعيد، وأنت مقبل على بُعد كبير. وأقواس النصر الملونة الضخمة تكلل كل منعطف وطريق.

وكنا نتحدث في مهارة الصين وإتقانهم. فقد جئنا منذ يومين وقد مررنا بنفس الشوارع التي تحولت وبسرعة وبفعل هذه الزينات، و لم تكن موجودة.

قلت لمس ني: الشعب الصيني شعب عظيم. قالت: كل شعب عظيم. إنها على حق، كل الشعوب عظيمة.

وصلنا بكين مرة ثالثة وستكون رحلتنا القادمة والقريبة في الغد وستكون أخيرة.

و لم يبق لنا من الزيارة سوى نهار للسوق وليلة وداع.

وكان برنامج الليلة أوبرا بكين وعشاء "بطة بكين" في مطعم صغير خلف قصر الصيف في الضاحية القريبة من بكين، اجتمعت سيارات وفدنا ومودعينا ومن بينهم زوجة السفير المصري آنذاك السيد حسن رجب أمام الفندق المشهور بطبق البط الذي يقدمه منذ مئتي عام.

وهذا الطبق ذو شهرة عالمية ونوع البط الذي يصنع منه وجد بالصين أولاً وهو من نوع يكبر بسرعة هائلة حتى إنها تبلغ 35 ضعف وزنها في ثلاثة أشهر، وتضع البطة الواحدة من 120 إلى 180 بيضة في السنة، وقد صدرت أول مرة إلى الولايات المتحدة عام 1874م ثم إلى إنجلترا وبلدان أخرى. وهذه الطيور تتأقلم بأي جو توجد به وتضع بيضها في جميع فصول السنة. وقد أقيم مطعم صيني في المعرض الصيني بموسكو عام 1953م لقيت به بطة بكين رواجاً كبيراً. وقدمت أيضاً في معرض ليبزج الدولي عام 1954م.

والطبق لذيذ للغاية وممتع. وتبدأ لذته وإمتاعه ابتداء من دخولك المطعم فهو يصنع على مرأى من الزبائن وحين يطلب ذلك.

ويبدأ بتقديم المشهيات أولاً ريثما تتحمر البطة وتتكون مشهيات هذا الطبق بالذات من البصل الأخضر المقطع قطعاً مستطيلة مع الخل وقليل من العسل الأسود ونوع من الخبز يشبه الفطير المثلث المصري.

وحين تجهز البطة يأتي النادل بوقار جليل: لقد أعدت البطة فهل نقدمها الآن.

وبعدها يأتي اثنان في نظافة وجلال، أحدهما يرفع ستارة المقصورة والثاني يمد حاملاً بيديه برشاقة ليضعه على طاولة جانبية صغيرة مع عدة أطباق، فيبدأ الأول في تشريح الجلد الذهبي بمهارة وسرعة متقنتين، والجلد هو أجمل أجزاء البطة.

ويقدم طبق بعد آخر، أولاً الجلد ثم اللحم وبعد ذلك يصنع من العظام مرق بالبيض ودهن الصدر.

وقد أقبلنا على هذه الأكلة كما لم نقبل من قبل على طعام حتى البصل بالعسل صار له مذاق آخر بفعل البرد والجو المثير الذي حولنا.

وبعد العشاء قدمت لنا مضيفاتنا من الممثلات رقصات قومية وأغان وقدمت أيضاً ناعسة المسلمة العراقية التي التقينا بها في أول حفل

استقبال بضفائرها السوداء وعيونها العربية وردائها المكون كطاؤوس أو قوس قزح وطاقيتها الصغيرة قدمت رقصات توقيعية عنيفة.

وقدمنا نحن لكل هؤلاء حفلة عرس سودانية ابتداء من الخطوبة إلى سد المال حتى الزفاف، وقد أُعجبوا بها أيما إعجاب وكانت عادات العرس السوداني وتقاليده حديث المساء حين وقفت إحدى المضيفات تودعنا بكلمة مؤثرة بدأت بها لحظات طوال من الانفعال الشجي.

وبالنهاية بدأن في وداع من قد لا نلقاهم في الصباح عند رحيلنا، ناعسة وحرم السيد حسن رجب وأخريات. وافترقنا لنبيت في الفندق لليلة الأخيرة بانتظار فجر قصير.

الليل قارس يحتضر مشرق قريب يرسل رائحة فجرية رطبة ورذاذات من الثلج الأبيض تلمع على أكتافنا المتورمة باللباس ويدي تقبض في تشدد على مقبض الحقيبة المكتظة، وذوبان الجليد يجري تحت أقدامنا الإفريقية ثم:

إفطار في الساعة الثامنة صباحاً من زبد وكافيار وخبز وبطارخ وصوت السماور التقليدي يصفر فوق نار أبدية وشاي روسي أسود يختلط دخانه بالبخار المنبعث من أجوافنا المقرورة وصور الجدران تبعث عدوى الشتاء الجليدي في سيبريا الجديدة تزيد من رعدة أوصالنا مع درجة الحرارة التي تبلغ 2 تحت الصفر.

كنا على بعد يوم وليلة من المسافة الزمنية وأميال من المسافات تفصلنا عن أرض تركناها في الفجر السابق.

حيث حَلَّقت بنا الطائرة الصغيرة التي تشبه الطراحات إلى حد بعيد مبتعدة بنا عن آخر بقعة من بكين مبددة من الأفق معالم الوجوه العزيزة والأيدي الملوحة بالمناديل والزهور والتي عانقتنا منذ قليل مودعة وامتزجت دموعنا بدموعهن جميعاً بلا استثناء حينئذ. كانت مشقة أن

ننتزع أنفسنا من بين هؤلاء الأحباب لنعبر آخر (ماو) على أرض الصين ونرى آخر وجه منهم ونضم آخر باقة من زهورهم.

كانت مشقة بقدر ما كانت معرفتنا بهم سعادة وصفاء.

المحتويات

استهلال	7
المقدمة	9
مقدمة الطبعة الثانية	21
نص الرحلة	31
قرية دامور	39
بيت الدين	40
هونج كونج	43
كانتون عاصمة الجنوب	49
حرب الأفيون (1840 – 1842م)	49
من الإقطاعيات إلى الكميونات	54
الكميون الجديد	65
خطاب ماوتسي تونج عن الإصلاح الزراعي	81
المدينة المثلثة	84
ووهان	85
هانج كاو شيكاغو الصين	86
كوبري اليانجس	88
أرقام عن بكين	90
بكين	91
فندق السلام	98
المدرسة الابتدائية رقم (1)	101
السلام	104

حركة السلام في الصين 104
معهد الأقليات القومية ـ بكين 109
جامعة بكين 115
الصحة 119
مستشفى ولادة 122
مستشفى الأطفال 124
الشمال الشرقي 125
آن شان 127
العمال 130
مساكن العمال 132
فوشن 135
بيت الكبار 141
آن شان "في أرقام" 143
انطباعات عن آن شان 145
حركة العاملات 146
أعياد التحرير 152
وكان الصباح عيد أول أكتوبر العظيم 155
شانغهاي عاصمة تشكيانج 162
شانغهاي 162
النساء في شانغهاي 164
4 مايو 167
الاستعمار الياباني 1937 – 1945م 173
الحرب الأهلية الثورية وتأسيس جمهورية الصين الشعبية 174
1949 – 1952م 175

النساء 176
قيادة الاتحاد النسائي 178
قصر الأطفال 184
أوبرا شانغهاي 187
الأدب 189
هانشو 192
العودة 203